

- الكتاب: أعمال الفارسة
- الكاتب: الفارس الداوي الصوري جيرارد أوف مونتريل
- ترجمة: أ.د. سهيل زكار
- الطبعة الأولى **2008**

للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - حلبوني - الجادة الرئيسية
تلفاكس 2236468 جوال 330989 0944
WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com
ص . ب : 11418

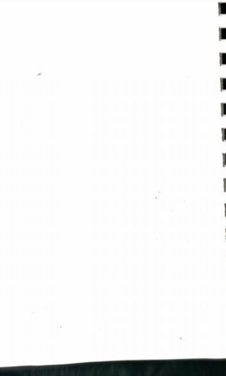
تنويه: الأرقام المتسلسلة في الأعلى من أجل الإحالة على الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الفارس الداوي الصوري جيرارد أوف مونتريل



ترجمة: أ. د. سهيل زكار





مدخل

إن التاريخ المعزو بشكل عام إلى «الفارس الصوري» هو الرواية الوحيدة المتبقية والأكثر أهمية حول الأيام الأخيرة للدول الصليبية في داخل الأراضي الرئيسية، ذلك أنه على سبيل المثال، التاريخ الوحيد مع رواية شاهد عيان حول سقوط عكا عام ١٢٩١، والمصدر الأكثر اعتماداً الذي نمتلكه حول تاريخ اللاتين في الشرق بين ثلاثينات وأربعينات القرن الثالث عشر، عندما يبدأ، وبين أوائل القرن الرابع عشر(إنه ينقطع في وسط أحداث عام ١٣٠٩، بعدما أعطى إشارة إلى الأحداث في عام ١٣١٤)، وهو الجزء الثالث من عمل أطول، بات معروفاً منذ القرن التاسع عشر تحت اسم أعمال القبارصة Gestes des chiprois ، الذي هو تاريخ كما يبدو من شكله الأصيل قد بدأ مع آدم(أو ربما مع الحملة الصليبية الأولى)، وقد انتهى في تاريخ ما، فيما بين عام ١٣١٤ وعام ١٣٤٣(ربما قبل عام ١٣٢١، وشبه مؤكد ليس بعد عام ١٣٢٤)، وهو على هذا الشكل موجود في مرويات «حوليات الأرض المقدسة» وليس في مرويات وليم الصوري وذيوله.

هذا وإنه بالنسبة لتاريخ الفارس الصوري، لم يعرف من قبل، أو لم يقدم إلى قراء الانكليزية على الرغم من أهميته لمؤرخي الحروب الصليبية والشرق اللاتيني، مع أنه قد ظهرت له طبعة حديثة وترجمة إلى الإيطالية، نشرت من قبل لورا مينيرفيني Laura minervini في عام ٢٠٠١.

المؤلف

مع أن العمل المقدم في هذا المجلد كان معروفاً منذ حوالي القرن تحت اسم «الفارس الصوري»، وأن ذلك يفيد أنه قد كتب من قبل واحد من فرسان الداوية قد عاش في صور، فإن النص نفسه لا يمتلك عنواناً

رسمياً، ولا يقدم أي إشارة مباشرة إلى المؤلف، ذلك أن النسخة الوحيدة المتوفرة منه من العصور الوسطى، ضاعت منها أوراقها الأولى وأوراقها الأخيرة، وبذلك ضاع العنوان مع أية إشارة لربما أعطاها المؤلف في نهاية عمله، وبذلك بات الكتاب من دون أي برهان موثق حول اسم المؤلف.

واشتق العنوان الحديث وهو«الفارس الصوري» من حقيقة أن المؤلف كانت له بوضوح علاقة ما بوليم بيجو Beaujeu ، مقدم الداوية من ١٢٧٣ حتى ١٢٩١، لكن هذه العلاقة غير كافية لتحديد هوية المؤلف، ولتأكيد أنه كان بالفعل عضواً في منظمة الداوية، مما يفيد أن أعداداً كبيرة من أناس خدموا مع المنظمة، بمختلف الأشكال، دون أن يكونوا أعضاء منتمين تماماً إليها، وبالإضافة إلى ذلك، لو كان المؤلف عضواً في التنظيم، لكان من شبه المؤكد قد تعرض للاعتقال ومن ثم للسجن في عام ١٣٠٨ مع بقية أفراد الداوية الذين كانوا آنذاك في قبرص، على أنه من الواضح إلى حد كبير أنه لم يكن داوياً، فمعظم أصحاب الكتابات بعد الاكتشاف الأولي للمخطوط في القرن التاسع عشر، تشككوا، أو أنكروا أن يكون كاتب النص داوياً، ومع ذلك إنه في مطلب لعنوان أفضل، جرى استخدام عبارة«الفارس الداوي».

ومع أن اسم المؤلف لا يمكن تأكيده بشكل قاطع، من الممكن استخراج عناصر لها علاقة بترجمته من التاريخ، ونحن لا نعرف مكان ولادته، لكن لعل ذلك كان جزيرة قبرص، بحكم أن المؤلف كان منذ عام ١٢٦٩ (Valet) أو (Vale) ، أي «مملوكاً» أو«غلاماً» (مع أن الكلمة تعني أيضاً «تابع») في خدمة مرغريت لوزنغنان صاحبة أنطاكية، وذلك عندما تزوجت من جون أوف مونتفورت[القرين] في صور، وبها أن الصبيان كانوا يتوقفون عن الخدمة كغلمان في حوالي سن الخامسة عشرة، بمكنتا بصورة منطقية أن نكون متأكدين بأن مؤلفنا لم يكن قد

ولد قبل عـام ١٢٥٤، وقال المؤلف أنه بقي لمدة عام في خدمة مرغريت، وعلى هذا يبدو منطقياً أنه كان في حوالي الرابعة عشرة من عمره في عام ١٢٦٩، ومع مضي عام كـان سيصبح فارساً، وهـذا يجعل تاريخ ميلاده في حوالي عام ١٢٥٥.

وكـانت مرغريت لوزنغنان، صاحبة أنطاكيـة، أخت هيوج الثـالث صاحب قبرص، وقد تـزوجت واحداً من أعظم نبـلاء مملكة القـدس، ولذلك أيضـاً يبـدو منطقيـاً الافتراض بـأن المؤلف كـان على الأقل من النبلاء الأدنى درجـة، لأن واحداً من العامة، مـا كان ليؤخذ إلى خـدمة سيدة نبيلة ذات مقام عالٍ، مثل مرغريت.

وعـاشت مـرغريت وزوجهـا في صـور، ولهذا جـاء عيش المؤلف في تلك المدينة، وكمـا تقـدمت الإشـارة أعـلاه، لعل هذه لم تكن مـدينتـه الأصيلة، ومع ذلك يعطينا النص انطبـاعاً قوياً بأن المؤلف قـد عاش في صور، على الأقل فيما بين عامي ١٢٦٩، ١٢٨٣.

على سبيل المثـال حكى قصـة اغتيـال ختن السيـدة فيليب أوف مونتفورت في عـام ١٢٧٠، بتفـاصيل حيـة، تجعل الإنسـان مرغماً على الاستخلاص بأنه إمـا كـان نفسـه هناك وقت وقـوع الاغتيـال، أو أنه حصل على تقرير مفصل من شخص مـا كان هنـاك، ويبدو أنه استمر يعيش في صور، سـواء في خدمـة مونتفـورت أو خارج خـدمته، وذلك لبعض الوقت بعـد ذلك(مع أنه ظهر أنه كـان شاهداً للاحتفال بالنصر البشع الذي أقيم في عكا من قبل البيازنة في عـام ١٢٨٢)، ونجـده في عام ١٢٨٣ حاضراً لدفن جون أوف مونتفورت، وأنه بقي في صور.

وبعد ذلك بوقت قصير، أي في عـام ١٢٨٥، وصف نفسـه أنه كـان موجوداً في عكا يخدم مقدم الداوية، وليم بيجو، ويعمل لديه كاتباً، حيث تولى كتابة نص معـاهدة سـلام بين الداوية وبين ملك قبرص، وقـد بقي

هناك في العام التالي(١٢٨٦)، عندما جاء ملك قبرص الشاب هنري الثاني إلى عكا حتى يتوج ملكاً على القدس أيضاً، ووصف الكاتب الاحتفال المترف الذي أقيم بتلك المناسبة، حيث تضمن هذا الاحتفال مبارزات للابسي الصلبان، وشيئاً آخر يشبه كثيراً أدوار ألعاب الأعمال الأرثرية الحية، ويقترح وصفه الممتع بقوة بأنه كان حاضراً بالذات.

وظهر بعد هذا بمثابة مستشار فريب لمقدم الداوية، كما أوضح شارل كوهلر، وثانية كان موجوداً في عام ١٢٨٦ في المجلس الاستشاري الخاص للمقدم في قضية صغيرة مهمة، وفي عام ١٢٨٦، عزم أمير أنطاكية وطرابلس على اعتقال أدميرال جنوي اسمه توماسو سبينولا Spinola ، وأرسل فارس رسالة إلى مقدم الداوية يحذره من هذه الحقيقة، وأعطى المقدم الرسالة مع اسم الفارس المخبر، إلى المؤلف، الذي أرسل التحذير المجهول إلى سبينولا، وبذلك أنقذه من الاعتقال ومن السجن، وكان هذا بالغ الأهمية، حيث أن هناك إشارات أخرى أفادت بأن المؤلف لربما خدم كضابط مخابرات خاص لوليم أوف بيجو.

وجاءت الإشارة التالية من عام ١٢٨٨، عندما قال المؤلف بأن تاجرين من الاسكندرية حرضا سلطان مصر على مهاجمة طرابلس، وأنه كان بإمكانه أن يعطي القارىء اسمي التاجرين بالذات لو أنه اختار أن يفعل ذلك(وقد قدم الكلمات التي خاطبا بها السلطان، إما بإعادة صياغتهم، أو لأنه عرف بالفعل الذي قالاه)، ونجد مجدداً في عام ١٢٨٨ بأن المقدم وليم أوف بيجو كان لديه جاسوساً في مصر، ولم يكن هذا ربما مدهشاً، بل الأمر المهم هو أن المؤلف لم يعرف هذا الموضوع فقط، بل عرف اسم مصدر المعلومات، الذي كان أميراً مسلماً عالي المقام، وعلاوة على هذا لم تكن عملية الاتصال هذه حادثة منفردة، لأن الأمير كان يتلقى عطاء دائماً من الداوية، وكان عليه أن ينذرهم من أية حركات خطرة من جانب السلطان، وحقيقة أن إعطاء هوية مثل هذا

الجاسوس المهم وكشفه من قبل وليم بيجو إلى المؤلف، تضعه في موضع ثقة كبيرة واعتماد، لأن معلومات سرية مثل هذه كان من الممكن لقليل من الناس السماح لهم بالاطلاع عليها، وقد وصل الأمر بشارل كوهلر إلى الافتراض بأن المؤلف نفسه كان الرسول بين الاثنين، وكما سنرى تكلم المؤلف العربية، وكان بإمكانه شغل هذه الوظيفة، مع أنه لا توجد بينة مباشرة تؤكد أنه فعل ذلك.

وأشار المؤلف بعد هذا إلى نفسه في عام ١٢٩٠، عند إسدال الستارة الأخيرة على صليبية ما وراء البحار، وقام المؤلف في إحدى المرات أثناء المراسلات التي تم تبادلها بين السلطان الأشرف خليل ومقدم الداوية، بترجمة رسائل السلطان من العربية إلى الفرنسية لصالح المقدم، مظهراً -حسبما تقدمت الإشارة أعلاه- أنه أجاد العربية، ويبدو أنه لم يكن عضواً في مداولات مجلس مدينة عكا في عام ١٢٩٠، مثلما كان مولاه.

ووصف المؤلف للأحداث التي وقعت خلال أحداث حصار عكا في عام ١٢٩١، يبرهن على معرفته القريبة بالوقائع، فهو كان حاضراً في الثامن عشر من أيار لعام ١٢٩١، عندما تسلح وليم أوف بيجو بشكل خفيف، وقاد حشداً تمّ جمعه بسرعة، ليقوم بهجوم معاكس يائس ضد المسلمين، الذين كانوا يتوغلون في كل مكان، وكان مع المقدم بطانته الشخصية، ومن المؤكد أن المؤلف كان بينهم، وقد وصف كيف أظهرت القوات الداوية مقاومة شديدة، وقاتلت قتالاً عنيفاً ضد المهاجمين المتفوقين، وعرض صورة مختصرة، ولكن مرعبة لموت مملوك انكليزي أصيب بقذيفة نفط مشتعلة، وتحدث عن الجراحة المميتة التي أصيب بها مقدمه، ثم خروجه من ساحة القتال، وجاءت تفاصيل وصفة تنبض بالحياة، إلى حد أن القارىء ربما يستطيع أن يتخيل أنه كان هناك.

ثم ذكر المؤلف بأن بعض الداوية، بما فيهم المقدم التالي: ثيوبولد غودين Gaudin ، قد أخرجوا من المدينة الساقطة عسكرياً وأرسلوا

إلى صيدا، وبعد هذا جاء وصفه لأحداث الأيام العشرة الأخيرة للمدينة المنهارة أقل تفاصيل وصحة، مقارنة بوصفه لأحداث الوقائع الماضية، مما يؤكد تقريباً أنه كان برفقة هؤلاء اللاجئين، وبالحقيقة إنه لو لم يكن معهم، لكان من المؤكد هلاكه مع الآلاف الذين ماتوا أثناء المقاومة المركزية، لدى سقوط حصن الداوية في الثامن والعشرين من أيار، وإذا لم نقل هلاكه لكان على الأقل قد وقع بالأسر، لكن النص لا يعطي أدنى إشارة إلى أنه كان.

ومن صيدا، ذهب كما يبدو، مع اللاجئين الآخرين إلى قبرص، وبعد هذا يظهر أن تعايشه مع الداوية قد انتهى، وهذه حقيقة تؤكد يقيناً وتظهر، أنه لم يكن بالفعل عضواً رسمياً في منظمة الداوية، فقد انتقد بحدة سلوك ثيوبولد غودين، مقدم الداوية الجديد، ولامه من أجل فقدان صيدا، واتهمه بشكل مكشوف بالجبن، وهو لم يظهر تحيزاً إلى الداوية ضد الاسبتارية، وعرف عن قرب المعاناة الخاصة التي لحقت باللاجئين في قبرص، واللامبالاة العامة تجاه آلامهم- التي أظهرها القبارصة، ولربما ارتبط بشكل ما، إما مع فيليب أوف إيبلين، أو ببلاط هنري الثاني نفسه، فعلى سبيل المثال كان في لارنكا على الساحل الجنوبي لقبرص، عندما توقف هناك قائد بندقي، وهو على طريقه إلى إحدى المعارك بين الجمهورية الأكثر صفاء، وخصوصها الجنويين الرئيسين، وكان المؤلف موجوداً في مقابلة منحها الملك هنري إلى القائد، وروى بعضاً من المحادثات غير المهمة بصورة حرفية.

وبعد نهاية عام ١٢٩٣، يبدو أنه كانت للمؤلف علاقات قليلة مباشرة بالأحداث التي وصفها، مع أن التفاصيل التي قدمها ونغمه وصفه للحملة المشتركة للقبارصة والرهبانيات العسكرية في عام ١٣٠٠، تقترح بقوة أنه كان برفقة هذه الحملة، وكثير من مواده عن أحداث ما بعد ١٢٩٣، ذات قيمة من الدرجة الثانية، ويبدو أنه استقر

نهائياً في قبرص، مع أن هناك إيماءة غير واضحة، على أنه ربما قام ب
إلى الغرب في وقت ما، ما بين ١٢٩٣ و١٣١٤ ، فقد قدم وصفاً
لظهور فيليب الجميل، فهل يا ترى رأى بنفسه فيليب الجميل؟
الممكن أنه كان يقوم بمجرد تكرار لوصف غير مباشر، لكن ورا
ذات تفاصيل مريبة، مثل روايته حول الأحداث الأخرى، التي
المؤكد أنه كان حاضراً فيها.

ويتركنا هذا كله من دون معرفة اسم المؤلف، وخمن محقق الكتا
القرن التاسع عشر، أنه ربما كان فارساً اسمه جيرارد دي مو
Gerard de montreal ، وهناك بعض التسويغ لهذه النظرية، ه
البينات من أجلها ليست نهائية، ودوّن فلوريو بوسترون -bus
tron الذي هو نفسه كتب تاريخاً لقبرص في القرن السا
عشر «أعمال القبارصة» بمثابة واحد من مصادره، ووصف كا
هذه«الأعمال» على أنه كتب من قبل فيليب أوف نوفار، وكان يو
يشير إلى القسم الأوسط من كتاب أوسع لأعمال القبارصة، وم
بوسترون إلى القول بأنه بعد فيليب أوف نوفار قام جيرارد
مونتريال بتدوين كثير من الأشياء قد وقعت في أيامه، وكان الك
بول ريانت Riant أول من لاحظ هذه النسبة في أوائل ثمان
القرن التاسع عشر، ولم تتعرض عمليته في التحديد الأولى، عن
المؤلف «الداوي الصوري» هو جيرارد أوف مونتريال، إلى التح
الجدي، منذ ذلك الحين، وذلك على الرغم من حقيقة أن القضية ل
نهائية، وأن هناك تفسيرات أخرى لإحالة بوسترون.

ونحن نعرف زيادة قليلة حول جيرارد، وتبع المؤلف المجهول لل
الحديث المبكر لقبرص الذي امتلكه فرانسيسكو أمادي(الذي صار
مرتبطاً بذلك التاريخ) نص جيرارد بالنسبة لجزء التاريخ الذي ي
أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، ومع أن الصف

الأخيرة من تاريخ الفارس الصوري نفسه مفقودة، يمكننا من خلال أمادي استخراج أدلة حول احتمال محتويات هذه الصفحات، وذلك لأن أمادي أصبح بالحري مختصراً بالتفاصيل، وذلك بعد النقطة التي توقف فيها الداوي، وأعطانا أمادي إيماءة واحدة أخيرة حول جيرارد، حيث قام مع فرد آخر هو وليم أوف ميرابيل Mirabel بالتورط في مناقشات حول عودة الملك هنري الثاني إلى قبرص، بعدما تعرض أخوه أمارلك - الذي حل محله - إلى القتل في حزيران ١٣١٠، ومما لاشك فيه أن قطعة المعلومات هذه قد جاءت من صفحات تاريخ جيرارد.

وبعد هذا ليس لدينا معلومات مؤكدة حوله، مع أن هناك إمكانية واحدة أخرى صعبة، ففي عام ١٥٣١ قام البنادقة (الذين كانوا يمتلكون قبرص آنذاك) ببحث في تاريخ قبرص، وقد روت بعثتهم بأن واحداً اسمه جيرارد دي مونتريل، الذي هو رجل قضاء مشهور قد جمع نسخة من هذه القوانين، وقد كتب لهم نوعاً من أنواع المقدمات، وقد مدح البنادقة عمل جيرارد دي مونتريل وأثنوا عليه كثيراً، وترجموه إلى لغة البنادقة لاستخداماتهم الخاصة.

واعتقد الكونت بول ريانت، الذي كتب في عام ١٨٨٠، بأن جيرارد كان هو الشخص نفسه، المؤلف الداوي، وذهب شارل كوهلر، الذي كتب في ١٩٠٦ إلى أنه شخص آخر حمل الاسم نفسه، واعتقد أن الأعمال القانونية لجيرارد أوف مونتريل لم تكتب حتى عام ١٣٦٩، وذلك بسبب أنه في ذلك التاريخ عقد اجتماع قانوني للوردات قبرص، وأن هذا الاجتماع لم يذكر مثل هذا العمل، هذا من جهة ومن جهة أخرى بسبب أنه لم يعتقد أن جيرارد أوف مونتريل للقرن الرابع عشر، مؤلف «الداوي»، أبدى أدلة على امتلاكه عقل قانوني، يمكنه أن يخرج نشرة للقوانين.

ويبدو أن هذه المحصلة قد بنيت على بينة ضعيفة، حيث من الواضح أن مؤلف «الداوي» كان على معرفة بقوانين مملكة القدس وقبرص، ذلك

أن مناقشته لعدد من القضايا العسكرية جاءت مستقاة من صفحات من قانون جون أوف إيبلين، وهذا واضح تمام الوضوح، كما أن بقية كتاب«الداوي» لا يظهر عقلاً كان غير قادر على التفكير القانوني، من ذلك على سبيل المثال، أظهر المؤلف إلى الجنويين اهتماماً ومعرفة بالاصطلاحات المتعلقة بالامتيازات الملكية في قبرص، وانتقد قسطلاناً ملكياً لعدم محافظته عليهم تحت الضغوط، ومن دون، على كل حال، بينة أخرى إضافية، حيث لربما جرى تدميرهم من قبل الأتراك، بعد استيلائهم على قبرص في عام ١٥٧١ من غير الممكن الوصول إلى محصلة ثابتة حول القضية، فمن الممكن أن يكون مؤلف«الفارس الداوي» هو جيرارد أوف مونتريل، لكن سندع المسألة ها هنا.

تاريخ المخطوط:

نحن لسنا متأكدين حول التاريخ الدقيق لتأليف نص«الفارس الداوي»، لكن مهما يكن المكان الذي أكمل فيه مؤلف«الداوي» عمله، كان المخطوط، أو على الأقل نسخة عنه، في قلعة مدينة كيرينا القبرصية في عام ١٣٤٣، ففي ذلك العام، قام شخص اسمه جون لي ميغي Miege بصنع نسخة عنه.

ولربما كان جون لي ميغي طبيباً لأن كلمة«ميني» تعني بالفرنسية القديمة«طبيب»، وكانت الكلمة أيضاً لقباً أو كنية لاستخدامات عامة، ومها كان اختصاص جون، لقد سقط في خضم الصراعات على السلطة في قبرص القرن الرابع عشر، ووجد نفسه سجيناً في القلعة في كيرينا، وهناك انشغل في صنع نسخة عن «أعمال القبارصة»، وذلك لشغل وقته.

وكان هذا عملاً مفيداً وغير مفيد من وجهة النظر التاريخية، كان عملاً مفيداً، لأن نسخة جون هي المخطوطة الوحيدة من«الأعمال» التي بقيت. وكان عملاً سيء الحظ لأن جون هو وحده الذي استخدم قلمه

الأخيرة من تاريخ الفارس الصوري نفسه مفقودة، يمكننا من خلال أمادي استخراج أدلة حول احتمال محتويات هذه الصفحات، وذلك لأن أمادي أصبح بالحري مختصراً بالتفاصيل، وذلك بعد النقطة التي توقف فيها الداوي، وأعطانا أمادي إيماءة واحدة أخيرة حول جيرارد، حيث قام مع فرد آخر هو وليم أوف ميرابيل Mirabel بالتورط في مناقشات حول عودة الملك هنري الثاني إلى قبرص، بعدما تعرض أخوه أمارك- الذي حل محله- إلى القتل في حزيران ١٣١٠، ومما لاشك فيه أن قطعة المعلومات هذه قد جاءت من صفحات تاريخ جيرارد.

وبعد هذا ليس لدينا معلومات مؤكدة حوله، مع أن هناك إمكانية واحدة أخرى صعبة، ففي عام ١٥٣١ قام البنادقة(الذين كانوا يمتلكون قبرص آنذاك) ببحث في تاريخ قبرص، وقد روت بعثتهم بأن واحداً اسمه جيرارد دي مونتريل، الذي هو رجل قضاء مشهور قد جمع نسخة من هذه القوانين، وقد كتب لهم نوعاً من أنواع المقدمات، وقد مدح البنادقة عمل جيرارد دي مونتريل وأثنوا عليه كثيراً، وترجموه إلى لغة البنادقة لاستخداماتهم الخاصة.

واعتقد الكونت بول ريانت، الذي كتب في عام ١٨٨٠، بأن جيرارد كان هو الشخص نفسه، المؤلف الداوي، وذهب شارل كوهلر، الذي كتب في ١٩٠٦ إلى أنه شخص آخر حمل الاسم نفسه، واعتقد أن الأعمال القانونية لجيرارد أوف مونتريل لم تكتب حتى عام ١٣٦٩، وذلك بسبب أنه في ذلك التاريخ عقد اجتماع قانوني للوردات قبرص، وأن هذا الاجتماع لم يذكر مثل هذا العمل، هذا من جهة ومن جهة أخرى بسبب أنه لم يعتقد أن جيرارد أوف مونتريل للقرن الرابع عشر، مؤلف«الداوي»، أبدى أدلة على امتلاكه عقل قانوني، يمكنه أن يخرج نشرة للقوانين.

ويبدو أن هذه المحصلة قد بنيت على بينة ضعيفة، حيث من الواضح أن مؤلف«الداوي» كان على معرفة بقوانين مملكة القدس وقبرص، ذلك

أن مناقشته لعدد من القضايا العسكرية جاءت مستقاة من صفحة
قانون جون أوف إيبلين، وهذا واضح تمام الوضوح، كما أن
كتاب«الداوي» لا يظهر عقلاً كان غير قادر على التفكير القانوني
ذلك على سبيل المثال، أظهر المؤلف إلى الجنويين اهتماماً وما
بالاصطلاحات المتعلقة بالامتيازات الملكية في قبرص، وانتقد قا
ملكياً لعدم محافظته عليهم تحت الضغوط، ومن دون، على كل
بينة أخرى إضافية، حيث لربما جرى تدميرهم من قبل الأتراك
استيلائهم على قبرص في عام ١٥٧١ من غير الممكن الوصو
محصلة ثابتة حول القضية، فمن الممكن أن يكون مؤلف«النثر
الداوي» هو جيرارد أوف مونتريل، لكن سندع المسألة ها هنا.

تاريخ المخطوط:

نحن لسنا متأكدين حول التاريخ الدقيق لتأليف نص«النثر
الداوي»، لكن مهما يكن المكان الذي أكمل فيه مؤلف«الداوي»
كان المخطوط، أو على الأقل نسخة عنه، في قلعة مدينة كيرينيا القد
في عام ١٣٤٣، ففي ذلك العام، قام شخص اسمه جون لى
Miege بصنع نسخة عنه.

ولربما كان جون لى ميغي طبيباً لأن كلمة«ميغي» تعني بالفر
القديمة«طبيب»، وكانت الكلمة أيضاً لقباً أو كنية لاستخدامات
ومهما كان اختصاص جون، لقد سقط في خضم الصراعات على ال
في قبرص القرن الرابع عشر، ووجد نفسه سجيناً في القلعة في
وهناك انشغل في صنع نسخة عن«أعمال الفارسة»، وذلك لشغل
وكان هذا عملاً مفيداً وغير مفيد من وجهة النظر التاريخية
عملاً مفيداً، لأن نسخة جون هي المخطوطة الوحيدة من«الأعمال
بقيت، وكان عملاً سيء الخط لأن جون هو وحده الذي استخدم

بالنسخ، حيث يبدو أنه كان فقير الثقافة، وقام بالعمل بشكل غير متقن، وهكذا تحتـوي المخطوطة على كثير من الأخطاء من مختلف الأنواع، وهناك الآن طريقة محددة لمعرفة النص الأصيل تماماً.

وفي الوقت الحاضر لاتوجد طريقة لمعرفة الذي حدث للمخطوط الذي نسخ عنه جون لي ميغي، الذي ربما كـان- أو لم يكن- النسخة التي كتبها المؤلف، فلقد اختفى من التاريخ، واعتقد شارل كـوهلر أن من المحتمل أن المخطوط إما كان بحوزة القسطلان نفسه، ولعله كان ما يزال في كيرينا، عندما استولى العثمانيون الأتراك على قبرص في عـام ١٥٧١، حيث أن كمية من المواد التي تعلقت بتاريخ اللاتين في الشرق(ربما بقايا أرشيف الداوية) قد اختفت في عام ١٥٧١، أو بعد ذلك.

وكـانت هناك نسخة منه أو من كتاب" أعمال" آخر متوفرة في قـرون تالية، حيث أن من المؤكد أن مـارينو سانوتو قـد استخدمهـا، في كتابه المعروف باسم" كتاب الأسرار" الذي صنفه في أوائل القرن الرابع عشر، فلربما أكمله في عـام ١٣٢١، ومثل ذلك فعل ليتسوس مكاريس في كتـابه العائد للقرن الخامس عشر، بعنوان"نصوص حول أرض قبرص الحلوة"، كما استخدمه فلوريو بوسترون وأمادي بين مصادرهما، كما أشرنا أعلاه.

ثم كما يبدو نسي الكتاب وذلك عملياً لمدة ثلاثمائة عام أو أكثر، أي حتى حزيران ١٨٨٢ عندما كان هاويان للتاريخ في إيطاليا، هما الكونت ماسيمو مولى دي لاريسي Massimo mola di larisse وكارلو بيرين Carlo perrin يبحثان في قلعة فيرزولو Verzuolo ، فوجدا في قعر صندوق نسخة جون لي ميغي، وعبّر بيرين عن اهتمامه بها، وكـان الكونت هو المالك للقلعة وللمخطوط، ومع ذلك أعطاه إلى صديقه.

ويبدو أن بيرين أخذ المخطوط إلى البيت، وجرب يده في إخراج نسخة محققة(يبدو أنه وجد صعوبة في الفهم)، وعـزا المشاكل إلى

مصاعب متجذرة في نسخة جون لي ميغي)، كما أنه أعلم الكونت بول ريانت من «جمعية الشرق اللاتيني» في فرنسا، بالذي عثر عليه، وكانت الجمعية تعمل على إخراج سلسلة من النصوص عن الشرق اللاتيني، ومن الطبيعي أن ريانت أراد إضافة هذا العمل الثمين إلى مجموعته.

وصنع بيرين نفسه نسخة دبلوماسية، وهي أقرب الطرق آنذاك لصنع نسخة عن النص، كانت متوفرة قبل أيام الأفلام وآلات النسخ، وأعطاها إلى ريانت، لكن بيرين اشترط أنه مقابل إعارة النسخة، ينبغي أن يضاف اسمه إلى إجراءات إعداد طبعة الجمعية.

لكن الجمعية رفضت، على أساس أن عمل بيرين لم يكن يتمتع بالصفات المقبولة، ويبدو أن بيرين شعر بالانزعاج فرفض (لكن بلطف تبعاً لكوهلر) السماح للجمعية باستخدام كنزه مباشرة في إعداد الطبعة، وهكذا أرغم ريمود على الاعتماد على النسخة الدبلوماسية في إخراج طبعة «جمعية الشرق اللاتيني»، في عام ١٨٨٧، ومثله محررو طبعة مجموعة روشيل لتاريخ الحروب الصليبية في عام ١٩٠٦، وذلك عندما أدخلوا نص الأعمال في مجموعتهم القانونية من النصوص الصليبية والوثائق، في المجلد الثاني «الوثائق الأرمنية» (مع أن كوهلر أشار إلى أن رينود امتلك فرصة مقارنة النسخة الدبلوماسية مع المخطوط، على الأقل لوقت قصير، وذلك أن وسيطاً، هو جوليس كاموس Jules camus من كلية حرب تورين، فحص المخطوط، وبعث بتقرير إلى محرري روشيل).

وهكذا مع أن طبعتي روشيل ورينود كانتا مفيدتين بطريقتها الخاصة، ما من واحدة منهما تأسست على نسخة جون دي ميغي العائدة للقرن الرابع عشر، بل بالحري على النسخة الدبلوماسية لكارلو بيرين العائدة للقرن التاسع عشر، وجاءت طبعة رينود بالحري حرفية، وفيها قليل من التصويبات، وكانت عملاً من دون تعليقات، وأما طبعة روشيل فقد أعدت من قبل غاستون باريس، ولويس دي ماس-

لاتري، وشارل كوهلر، حيث حاول هؤلاء القيام بالعمل كما ينبغي، وحاولوا ترميم بعض مشاكل النص، مقدمين تصويبات وملاحظات.

وبعد وفاة بيرين، اختفت المخطوطة، وبالتالي اعتقد مؤرخو الحروب الصليبية أنها ضاعت، وفي الحقيقة هي لم تضع، بل وجدت طريقها إلى مكتبة الملك فكتور عمانويل الثالث أوف سافوي، ومن هناك إلى المكتبة الملكية في تورين، وبقيت هناك مجهولة تماماً برقم ٤٣٣ Varia حتى اكتشفها في سبعينات القرن العشرين أستاذ للأدب الايطالي، ونشرت ألدا بارت روزيباستيانو Alda bart rossebastiano دراسة مختصرة حولها في مجلة «دراسات فرنسية» في عام ١٩٧٩، لكن بسبب أن هذه مجلة أدب إيطالي، وليست مجلة تاريخ حروب صليبية، لم ينتشر هذا المقال بين مؤرخي الحروب الصليبية.

وأخيراً أدرك مؤرخ إيطالي هو سلفيوميلاني Silvio melani أن مخطوط الأعمال قد أعيد اكتشافه، فأخرج طبعة مع ترجمة إيطالية للقسم الثاني الحاوي لتاريخ فيليب نوفار في عام ١٩٩٤، وكما ذكرنا أعلاه قامت في عام ٢٠٠٠ لورا مينيرفيني Laura minervini بإخراج طبعة مع ترجمة إيطالية للقسم الثالث، أي «الداوي الصوري».

وثائقية النص:

بصرف النظر عن معرفة اسم مؤلف «الداوي الصوري»، وعلى الرغم من المشاكل التي دخلت في النص من قبل جون لى ميغي، يبقى مصدراً لا يقدر بثمن حول الأحداث التي يغطيها، ولاسيما- كما هو بديهي- حول تدمير عكا، عاصمة مملكة القدس في عام ١٢٩١.

وبشكل عام ناضل المؤلف في سبيل أعلى درجات الصحة، وهو غالباً ما حقق ذلك، وذلك عندما كان شاهد عيان (كما كان في عكا) أو لدى حصوله على تقارير شهود عيان عن الأحداث، وأخباره ذات سمات عالية، وهي بشكل عام معتمدة، وعندما كان المؤلف يصف أحداثاً

بعيدة عن مكان وجوده، أرغم على الاعتماد على تقارير من الثانية، أو على أقاويل، وهنا تناقصت درجة صحته نسبياً، و الأحداث المروية، أو تعرضت للغلط، ووجد المؤلف صعوبات الأحيان في الحصول على التفاصيل الدقيقة والصحيحة حول البابوات إلى العرش البابوي.

ومفهومة مسألة معالجة قضايا الأعداء لصعوبتها، وهكذ المعلومات عن أصل المغول، الذين كانوا بعيدين جداً في الـ الأرض المقدسة، غدت خيالية بشكل خاص، وممتزجة بـ أسطورية المصادر، مثل رومانسية الاسكندر، وفي بعض الأح نقله للكلمات العربية فيه خلل(مع أنه غالباً ما جاء نقله صحيح

والمؤلف هو بالعادة متوازن وعادل، وحاول أن يكون غير عندما كان يعرض آراء الفئات المتصارعة(كما في قضية آل هو الذين كان يمقتهم بلا أدنى شك)، وجاء وصفه للناس الذين واضحاً بشكل عام، فيوليان صاحب صيدا، كان شجاعاً، وأنيقاً، وقاسياً، لكنه كان شبقاً، يفتقر إلى التفكير السليم، أم مرغريت صاحبة أنطاكية، التي قدرها بوضوح تقديراً عالي كانت زوجة مولى المؤلف أحياناً، أعني جون أوف مونتفور، كانت أجمل سيدات بلاد ما وراء البحر، وكانت حقاً جيدة، وكريمة، لكن في أواخر أيام حياتها صارت بدينة إلى أبعد وتماماً من دون عقل»، وكان في شعره متحرراً تماماً من الميول وهو الشعر الذي نظمه حول سقوط عكا، وظهر عدم الانحياز أكثر من ظهوره في التاريخ نفسه، لكن حتى هناك قطع- أثناء فساد رجال الكنيسة- انتقاداته، ليبين، أنه قد يقوم الدو والفرنسيسكان أحياناً بإظهار تكبر غير مقبول، لكن يبقى الـ أسوأ مكان من دونهم، بما أنهم قوم ابتعدوا عن الذنوب.

وعلى العموم سعى المؤلف جاهداً في سبيل درجة عالية من الصحة، وغالباً ما توصل إلى ذلك، ولقد كان موثوقاً لدى بحثه في قضايا كان هو نفسه شريكاً بها أو شاهداً، وأقل وثائقية لدى بحثه في وقائع وقعت بعيداً عنه، ولذلك أرغم على الاعتماد على تقارير من الدرجة الثانية، أو على أقاويل رائجة.

ملخص الوقائع:

اتبع المؤلف إلى حد كبير خطة دقيقة في عمله، وجرى عرض الوقائع، بانتظام حسب وقوعها، وذلك حسب ما هو ممكن، ويبدأ العمل بالفقرة الثانية، المؤسسة على مذكرات فيليب أوف نوفار عند توقفها في ثلاثينات وأربعينات القرن الثالث عشر، واصفاً الأعمال المتنوعة لفردريك الثاني في كل من الغرب والشرق، والصراع بين مختلف المدن الإيطالية(في كل من الوطن وخلال حوض البحر المتوسط) وهو صراع كان رئيسياً، وشكل الهم الرئيسي للعمل كله، بسبب المآسي المتبادلة للمتصارعين من المدن الإيطالية مع التوزعات الفئوية للشرق.

وجرى وصف إنحدار أسرة هوهنزتوفن، من دون تعاطف كبير نحو الحزب الأمبراطوري، وهناك بعض التغطية- جاء بالحري وهمي بسبب وجود ثغرة في تغطية السنوات ١٢٤٩ —١٢٥٨— للحملة الصليبية الأولى للويس التاسع(المعروفة عادة باسم الحملة الصليبية السابعة)، كما وأمضى المؤلف بعض الوقت في مناقشة أصول المغول، وأسرهم الحاكمة، وحملاتهم المختلفة، لكن ليس دائماً مع صواب كامل. كما رأينا، وتحدث عن قيام بيبرس، وتتبع حملاته المدمرة على الدول الصليبية المترنحة حتى وفاته في عام ١٢٧٧، وبعد ذلك حلول آخرين محله معادين للدول الصليبية مثل قلاوون والآخرين.

وجرى أحياناً البحث في حوادث وقعت في الغرب، هي ظاهرياً لا علاقة لها بالشرق اللاتيني(من ذلك على سبيل المثال حياة الإيرل

سيمون دي مونتفورت في انكلترا)، ووصف المؤلف المناورات السياسية التي قادت إلى سقوط طرابلس في عام ١٢٨٩، ثم انتقل مباشرة للحديث عن دمار المدينة، وكما رأينا كان المؤلف حاضراً وناشطاً في الدفاع حتى قبيل سقوطها.

وبعدما بحث المؤلف في هذه الواقعة المفجعة، وروى خبر سقوط عكا النهائي، قطع فجأة- لكن مؤقتاً- سياق روايته، وانصرف جانباً، ليقدم رواية فيها خطأ طفيف حول الواجبات العسكرية لمختلف عناصر مملكة القدس، ويرجح أنه أخذ ذلك من أعمال جون أوف إيبلين، ثم بعدما قدم المؤلف وصفاً مختصراً لحملة انتقامية قام بها الملك هنري الثاني، ملك قبرص، ولعملية اغتيال الأشرف خليل على يد أمرائه، توقف فجأة، ليقحم قصيدة طويلة كان هو قد نظمها بعد سقوط عكا، فيها بكى جزئياً سقوط المدينة، لكنه هدف بشكل رئيسي نحو ذكر التغيرات الاجتماعية التي شاهدها، والتي أسف من أجلها، ففي قصيدة تألفت من أربعة وستين بيتاً، وصف انتشار الانحطاط في السلوك وفي الأخلاق، وذلك باصطلاحات عاطفية مريرة.

ثم استأنف الرواية، في البحث أولاً في حوادث حرب الاستغلاب الاسبانية، ثم تحول مجدداً نحو الحروب غير المنتهية بين الجنويين والبنادقة، ثم الصراع بين بونيفيس الثامن وفيليب الرابع، حيث أنه تناول ذلك وغطاه من دون انقطاع(مع أن معلومات -كما رأينا أعلاه- المؤلف غير صحيحة حول مجرياتها) وقدم نصاً قصيراً حول الحكم المضطرب لهيثوم الثاني ملك أرمينيا، وفي كثير من النقاط، أتى المؤلف على ذكر الحروب بين انكلترا وفرنسا حول فلاندرز في عام ١٢٩٨، (ربما في ذلك معركة كورتراي Courtrai في عام ١٣٠٢)، وذكر بعد هذه المحاولات العديدة المخفقة للقيام بحملات مغولية-صليبية، مثل الغارات التي نفذت على مستوى كبير من قبل القوات المتحدة

للمنظمات العسكرية ومملكة قبرص بعد عام ١٣٠٠، كما تمت تغطية - أخبار الاستيلاء على جزيرة أرواد، وبعد ذلك سقوطها، وكذلك(بعض التفاصيل) الاستيلاء الاستبدادية على جزيرة رودس، وشرع المؤلف برواية حكاية اغتصاب سلطة الملك هنري الثاني من قبل أخيه أمالرك، مع أن هذه الحكاية- لسوء الحظ- غير كاملة، حيث جاءت عند وقت انقطاع المخطوطة(ومثل روايات الأحداث الطويلة لتلك المدة، حكيت هذه القصة على أجزاء، اعترضتها تقارير حول حوادث أخرى معاصرة)، وتتبع المؤلف أخبار الانحدار المتواصل والثابت للمملكة الأرمنية، بما في ذلك مقتل الملك هيتوم وحفيده ليون من قبل عساكر إسلامية مغولية في عام ١٣٠٧، ووصول أوشين إلى العرش الأرمني.

ثم تحول المؤلف مجدداً للبحث في محاكمة الداوية وقمعهم، ويبدو أن معلوماته لم تكن كلها صحيحة، خاصة حول بداية المؤامرة، ولكن يبدو أنه قد تحدث مع شاهد عيان حول المشهد المثير الذي استخرجت فيه اعترافات جاك أوف مولوي مقدم التنظيم مع ضباط الداوية الآخرين وبعد ذلك إعدامهم، وقد حدث هذا في عام ١٣١٤، وهذه نقطة غالباً ما تم تجاوزها وعدم الانتباه إليها من قبل المعلقين على الكتاب، مما يعني أن هذا الكتاب لم يكتمل قبل ذلك التاريخ، في أدنى الحالات، وصدر الاضطراب عن حقيقة عودة المؤلف ثانية إلى الشرق للبحث في الوقائع الأخيرة للصراع بين هنري الثاني وأخيه أمالرك، وهنا في عام ١٣٠٩، ينقطع المخطوط، لأن الأوراق النهائية منه مفقودة.

والحادثة المحورية في هذا التاريخ هي سقوط عكا، لكن هناك موضوع آخر مرتبط«بالفارس الداوي»، لعله- كما اقترح جابل غريفود Gilles grivaud - تعلق بتحول المجتمع السوري- القبرصي، من مجتمع فروسية ومجتمع صليبي، إلى مجتمع تجاري، وهو تحول لم يوافق المؤلف عليه، وانتقده بشدة.

الكتاب الثالث

الفقرات ٢٣٧-٧٠٢ من أعمال قبارصة الفارس الداوي

٢٣٧- الآن وقد سمعتم حول الخطط التي رسمت حول هذا الجزء من البحر في سورية وقبرص، والمرتبطة بشكل منفرد بالامبراطور والقبارصة(١)، وأنا أريد أن أحدثكم حول عدد من الأشياء الأخرى التي وقعت في سورية، وفي قبرص، وفي بعض الأماكن الأخرى في بلدان ما وراء البحر، أشياء جديرة بالذكر.

٢٣٨- بينما كانت هذه الحرب مستمرة بين القبارصة ورجال الامبراطور- كما سمعتم- سمع الامبراطور بأن الجنويين قد ساعدوا القبارصة ضد رجاله، بكل ما امتلكوه من قوة، وعلاوة على ذلك، لقد كانوا قد قاوموه عندما كان في عكا، حيث منحوا تأييدهم إلى صاحب بيروت، ولهذا السبب حمل الامبراطور مشاعر كراهية شديدة نحو الجنويين، وأصدر أوامر إلى جميع الأماكن التي كانت تحت سيادته، بعدم بقاء الجنويين هناك، تحت طائلة الإعدام، وذلك حتى يجبرهم بشيء آخر، وحرم تصدير القمح وأي نوع من أنواع الطعام من بلاده إلى جنوى، تحت طائلة عقوبة ثقيلة، وبسبب هذا صار القمح غالياً جداً في جنوى، حتى بلغ ثمن المعيار الواحد من القمح مائة Sous بنقودهم، لأن مدينة جنوى كانت قادرة على تأمين كل حاجياتها باستثناء القمح.

٢٣٩- وفي الوقت نفسه أمر البابا باسيليستيان الرابع الميلاني، عدداً من الأساقفة بالقدوم إليه إلى روما، وبسبب أن هؤلاء الأساقفة لم يتجرأوا على الذهاب عبر طريق الأراضي الامبراطورية، أو خلال بيزا، فقد جاءوا إلى جنوى، حيث استقلوا عدة غلايين من أجل الرحلة إلى روما، وعندما سمع البابا بأن هؤلاء الأساقفة سوف يعبرون في الغلايين

١- تقدم الحديث عن هذا في المجلد/35/ من موسوعتنا.

من جنوى، جهز أربعين غليوناً في بيزا، وقد مضوا وراء الغلايين الجنوية وأساقفتهم(وفعل الامبراطور هذا صدوراً عن الكراهية نحو الجنويين، وبسبب الصراع بينه وبين الكنيسة) واستولت قواته على تلك الغلايين الجنوية ودمرتهم وقتلت عدداً من الناس، وأحضرت الأساقفة إلى بيزا، حيث أن بعضهم سلخت جلود رؤوسهم، ومات آخرون في السجن.

٢٤٠— عندما سمع البابا حول هذا، حرم كنسياً حكومة سكان بيزا، وقد بقيت محرومة كنسياً لمدة طويلة بعد ذلك، وبسبب أن الجنويين قد تضرروا، قاموا بتسليح غلايين ومراكب أخرى، وأرسلوهم ضد البيازنة ورجال الامبراطور، وقد ألحقوا بهم بعض الأضرار القليلة.

٢٤١— ومباشرة قام الامبراطور بتسليح خمسة وستين غليوناً في صقلية وفي أبوليا، حيث قدموا إلى بيزا، وقام البيازنة بتسليح أربعين غليوناً(مما جعل أعداد الغلايين مائة غليون وخمسة غلايين)، وكان أدميرال البيازنة جنوياً اسمه أنسالدو دي ماري Ansaldo de mari حيث كان هو الأدميرال الامبراطوري.

وحشد الامبراطور قوة من الخيالة والرجالة، وأرسلها عبر البر إلى جنوى، وحاصرت القوتان اللتان قدمتا براً وبحراً جنوى، ورمت غلايين الامبراطور مقذوفات كبيرة وسهاماً لها رؤوس فضية مربعة، وعملوا عرضاً جميلاً جداً، ووصلت القوات البرية إلى مكان يدعى ليفانتو Levanto، وهو مكان ضيق كثيراً، ووعراً جداً، وصخرياً، أعاق الخيالة، وكانت هناك مدينتان على سفوح الجبال، وكان بين هاتين المدينتين واد ضيق جداً، استمر حتى البحر، حيث كان هناك شاطئاً رملياً التقى بالبحر، وفي هذا المكان قام الجنويون الذين عاشوا هناك مع آخرين أرسلتهم حكومتهم، بإنزال ضربات قاسية بقوات الامبراطور، حيث قتلوا الكثيرين بالرماح الطويلة وبالسهام التي لها رؤوس مربعة، وبهذه الطريقة سحقت قوات الامبراطور على الأرض.

٢٤٢— وفي اليوم نفسه خرج الجنويون بوساطة البحر، مع ثمانين

غليونـاً مسلحين بشكل ثقيل لـلاشتبـاك بالقتـال مع الغـلايين الامبراطورية، فقـد صعـد جميع الرجـال شخصيـاً على ظهـور سفنهم للدفاع عن أراضيهم وشرفهم، وأعانهم الرب بموجب حقهم، وقضى بوجوب الانتقام للأساقفة منهم[لأنهم استولوا على غلايينهم، وهكذا] لحقت الهزيمة بالمائة غليون امبراطوري خارج مدينة جنوى، واستولى الجنويون على واحـد وعشرين غليونـاً، ثمانيـة منهم من غـلايين الامبراطور، وثلاثة عشر من غلايين البيازنة.

ووقعت المعركة في ذلـك العام الذي استولى فيه القبارصة على مدينة صور منتزعين إياها من اللومبارديين، الذي كان عـام ١٢٤٢ لتجسيد يسوع المسيح، وذلك في شهر تموز.

٢٤٣— والامبراطور الذي كان الأكثر وحشية، وكان رجلاً بلا رحمة في قلبـه، كـان معـادياً كثيراً للكنيسة المقـدسـة، وقـد اضطهـدها، ولهذا السبب واجـه نهاية سيئة، ووصل إلى الإفـلاس هو وورثتـه، ومن بين أعماله الوحشية التي اقترفها، سوف أحدثكم عن واحد منها.

٢٤٤— فقد حدث أن عدداً من رجـاله، وفرسـانه، وبرجاسيته مع أناس آخرين، أن أسـاءوا التصرف نحـوه، تبعـاً لقـانـون الذين حكم عليهم، وسبب له ســوء التصرف هذا بعض الأضرار(الحقيقيـة أو المتصـورة)، فـأمـر باعتقـالهم مع زوجـاتهم ومع أولادهـم الكبـار والصغار(ما فوق سن ثمانية أيام) ثم قضى باقتلاع أعين عدداً منهم، ثم تدبر إحراقهم في مكان واحـد، بمثابة كتلة بشرية كبيرة، وقـد كان هناك خمسمائة إنسان كلهم مع بعضهم.

٢٤٥— في عـام ١٢٤٣ لتجسيـد مولانا يسوع المسيح مـات البـابا باسيليستاين، وصار أنوسنت الرابع بابا(١)، وكان قد ولد في جنوى من أسرة كبيرة اسمها دالسيس Dalsses.

١— مات البابا سيليستاين في عام ١٢٤١، وبعد ثمانية عشر شهراً من الفراغ، انتخب أنوسنت الرابع في حزيران ١٢٤٣.

وحث البابا الامبراطور بقوة للتصالح مع الكنيسة المقدسة، وقال بأنه سوف يستقبله عن طواعية وبترحيب، لكن الامبراطور لم يرغب بذلك، ولذلك خلع البابا الامبراطور من على عرش الامبراطورية، وحشد قوة، وزحف ضده، وتحارب معه أمام مدينة بالين(اقرأ: بارما Parma) ، ولحقت هزيمة قاسية بالامبراطور وبقواته، إلى حد أنه لم يعد قادراً على التسبب باضطراب الكنيسة بعد ذلك، وقد عاش مدة قصيرة بعد هذه المعركة، حيث مات بعد ستة أعوام(اقرأ: عامين) من هزيمته، وخلفه ابنه الملك كونراد الذي كان ابن ملكة القدس، وقد تزوج كونراد من ابنة دوق النمسا، الذي كان واحداً من أعظم شخصيات ألمانيا وكان غنياً، وأنجب كونراد من زوجته هذه ولداً اسمه كونرادين، ولسوف تسمع الحديث عنه مرة أخرى في هذا الكتاب.

٢٤٦— وتصرف كونراد هذا الذي أخبرتكم عنه بذاته بدوره بشكل أسوأ تجاه الكنيسة المقدسة، وذلك أسوأ مما فعله والده من قبل، وقد مات محروماً كنسياً مثل والده.

٢٤٧— وكان للامبراطور فردريك ابناً آخر يدعى مانفرد، ولد من الزنا، كما سأخبركم.

٢٤٨— فقد حدث أن أحب الامبراطور فردريك سيدة من لومباردي، كانت مركيزة إيطالية- لكن فيما يتعلق بالامبراطور لم يكن لها نظير- ومن هذه المرأة حصل على ابنه مانفرد.

ويوماً بعد آخر، صارت هذه المرأة مريضة وباتت قريبة من الموت، وحيث لم يكن لدى الامبراطور زوجة فقد رغب بالزواج منها، من أجل أن يمنح الشرعية لمانفرد الذي أحبه، ولتحقيق هذا الغرض سأل الأطباء هل سوف تكون قادرة على التعافي من مرضها، وأكد له جميع

١- هذا الاسم تصحيف لاسم فيزشي Fieschi وهي أسرة كونتات لافانا Lavagna،

الأطباء أنها لن تكون قادرة على التعافي في هذا العالم، وبناء على هذا التأكيد تزوجها الامبراطور، ولكن بحكم إرادة الرب تعافت المرأة من مرضها، وعاشت لبعض الوقت.

وبهذه الطريقة صار مانفرد شرعياً، ولذلك عندما مات الملك كونراد، قدم مانفرد هذا نفسه، واستحوذ على السيادة، واستولى على ممتلكات الامبراطور فردريك، والده الزاني، وقال عن نفسه بأنه كان شرعياً، ولذلك هو الوريث الأكثر شرعية(بما أنه كان ابن الامبراطور) من ابن أخيه الملك كونراد.

٢٤٩—وتجاه هذا، قام جميع بارونات مملكة صقلية، وإمارة أبوليا بقبوله سيداً لهم، وأعطوه تاج مملكة صقلية، فصار بذلك سيداً لها.

٢٥٠— وعندما سمعت أم كونرادين ابن الملك كونراد، بأن مانفرد قد توج وعمل سيداً.

بدا حقاً بالنسبة إليها، بأنه قد حرم ابنها كونرادين من ميراثه، وخافت كثيراً من أن يقدم مانفرد على محاولة دس السم إلى ابنها، بإحدى الوسائل، ليوقف مطالبته بحقوقه عندما يصبح بالغاً، ولهذا السبب أطعمت هذه السيدة ابنها مع اثني عشر طفلاً آخرين من عمره، وألبستهم جميعاً بالألوان نفسها، وأظهرت حباً عظيماً متساوياً نحو كل واحد منهم، وهكذا بات من غير الممكن بالنسبة إلى أي واحد آخر لأن يمتلك معلومات أكيدة، أي واحد من الأطفال، كان ابنها، وبهذه الطريقة حمت السيدة ابنها الخاص.

٢٥١—وتزوج مانفرد هذا الذي عمل ملكاً- كما سمعتم- من ابنة سيد كبير في بلاد الاغريق اسمه ميخائيل[الثاني أنجيلوس كومنوس، وكان اسمها هيلينا انجيلينا]، وقد أنجبت له أبناء وبنات.

ولسوف أحدثكم فيما بعد عن قضايا أخرى، تتعلق بهذه الحوادث،

وسأدع الكلام عنهم، لأتحول عوضاً عن ذلك إلى قضية أخرى، وبذلك أستطيع أن أروي الأشياء بطريقة تاريخية.

٢٥٢— حدث خلال العام ١٢٤٤ للمسيح، في مملكة القدس، أن فئة من المسلمين تدعى الخوارزمية قد تحاربت مع الصليبيين في موضع اسمه فوربي [الحربية]، وبإرادة الرب انهزم الصليبيون هزيمة ساحقة، وكان من بين الذين قتلوا أو أسروا الأخ أرماند أوف بريغورد، مقدم الداوية، والأخ وليم أوف شاتونوف، مقدم الاسبتارية، والكونت ولتر صاحب يافا، ورئيس أساقفة صور[بطرس الثاني أوف سيرين Sergines] ، ورالف أسقف القديس جورج[اللد]، وابني صاحب البترون، ومارشال الداوية الأخ هيوج أوف مونتاغيو، وعدد كبير آخر من البارونات والفرسان.

٢٥٣— أصيب في هذا العام باليان صاحب بيروت بذراعه الأيمن، من قبل حشيشي، أثناء عبوره مكان الصرافة في عكا، وجاءت الجراحة من خنجره، وهي لم تقتله، مع أنها شوهته.

٢٥٤— في العام نفسه أقام غيوفري أوف سيرين والداوية معسكراً في يافا، وجرى تثبيت هدنة بينهم وبين سلطان دمشق، كانت قد أعطت الصليبيين القدس والأراضي الواقعة على هذا الجانب من النهر، باستثناء نابلس وأريحا.

٢٥٥— في عام ١٢٤٥ دعا البابا أنوسنت المتقدم ذكره إلى مجمع في ليون، وفي أثناء المجمع قام بخلع فردريك الثاني من على عرش الامبراطورية، لأنه قد قيل بأن البابا قد خلعه من قبل بناء على مبادرة منه، فقط بسبب أن البابا كان جنوياً، ولكن المجمع العام تولى خلعه بسبب أعماله الشريرة.

٢٥٦— وكان هذا هو المجمع الذي أعطى الصليب إلى الملك الصالح

لويس التاسع ملك فرنسا، من أجل إنقاذ الأرض المقدسة، وأعطي الصليب معه أيضاً إلى إخوته، وإلى كونتات آخرين، وبارونات وفرسان.

٢٥٧— في العام ١٢٤٦ لتجسيد المسيح، عبرت الملكة أليس صاحبة قبرص، وأم الملك هنري الأول السمين من هذه الحياة الحالية، وتركت مملكة قبرص كلها إلى الملك هنري، وكان صاحب بيروت[باليان أوف إيبلين] هو نائب مملكة القدس، ووضع فيليب أوف مونتفورت، صاحب تورون، صور تحت حفظه.

٢٥٨— وفي العام ١٢٤٧ للمسيح، استولى سلطان مصر على مدينة طبرية، وقتل هناك، وأسر عدداً كبيراً من الصليبيين، ثم مضى من هناك لمحاصرة عسقلان بالبر وبالبحر مع واحد وعشرين غليوناً وسفينة واحدة كبيرة، وبسبب أحوال الأنواء غرقت هذه السفن جميعها، لكنه استولى على عسقلان، على كل حال، وشكل ذلك خسارة كبيرة للصليبيين.

٢٥٩— وفي العام نفسه مات صاحب بيروت ونائب مملكة القدس، وصار أخوه جون أوف إيبلين، صاحب أرسوف، نائباً بعده.

٢٦٠— وفي العام نفسه مات جايلز صاحب صيدا، وابن باليان صاحب صيدا، وقد خلفه ابن له اسمه يوليان، وهو الذي باع صيدا فيما بعد إلى الداوية.

٢٦١— وفي العام ١٢٤٨، وفي اليوم السابع والعشرين من أيلول، وصل الملك لويس التاسع ملك فرنسا إلى ليماسول في قبرص، جالباً معه أسطولاً كبيراً، وكان في هذا الأسطول خمسة عشر غليوناً جنوياً، وأربع سفن كبيرة جداً، مأجورة من قبل الملك، وجلب ملك فرنسا معه زوجته، وإخوته: اللورد شارل، كونت أوف آنجو، واللورد ألفونسو كونت بوتيير Poitiers ، وكونت أرتوي [واللورد هيوج الرابع دوق برغندي] ابن عمها الشقيق، ووليم كونت فلاندرز، وجلب كذلك

عدداً كبيراً آخر من البارونات، أنا لا أستطيع أن أسميهم جميعاً، وفوق الجميع كان هناك ثمانمائة فارس.

٢٦٢— واستقبله الملك هنري الأول، ملك قبرص واللوردات الإبيلينيين بتشريف كبير زائد وسرور، وقد مكث في قبرص خلال ذلك الشتاء، ووصل من عكا مقدما الداوية والاسبتارية والفرسان وناس آخرون للالتحاق بالحشد، وفي قبرص اجتمعوا للتشاور، وقرروا الذهاب إلى مصر في الربيع، وعندما حل عيد الفصح أرسل الملك ملكة فرنسا إلى عكا، وذهبت من عكا إلى عثليت، وهي قلعة كانت ملكاً للداوية، وقائمة على ساحل البحر، وتبعد سبعة فراسخ عن عكا.

٢٦٣— وفي العشرين من أيار لعام ١٢٤٩، غادر ملك فرنسا ليماسول في قبرص، وذهب الداوية والاسبتارية ومعظم فرسان قبرص وسورية معه، وقد مكثوا في البحر لمدة أربعة عشر يوماً، وتمكنوا من الرسو بالقوة، واستولوا في السادس من حزيران على مدينة دمياط، من دون توجيه ضربة، مع أن الأعداء كانوا متذرين ويعلمون خبر قدوم ملك فرنسا إلى هذا الجانب من البحر، ومع ذلك لم تكن لديهم فكرة أين سيوجه ضربته، ولهذا السبب اتخذوا قليلاً من الاحتياطات، وأخذوا بعامل المفاجأة، ولذلك نصب رجالنا السلالم وأسندوها إلى الأسوار، وتسلقوا عليها من دون معارضة، لأنه كان في دمياط فقط أناس عاديون، وكانوا قلة، ولم يكن هناك مدافعين.

٢٦٤— وعندما سارت الأمور على هذه الشاكلة، قدم النائب البابوي[يود(أو أودو) أوف تشاتورو]، وبطريرك القدس[روبرت أوف نانتي]، وملك فرنسا مع البارونات الآخرين الشكر إلى مولانا على هذا الإنجاز الكبير، الذي منحهم الرب إياه في بداية حملتهم، حيث لم يواجهوا مقاومة في استيلائهم على البلاد، حتى بدا الأمر وكأنه قضاء الرب وعمله.

٢٦٥— وعندما سمع مسلمو القاهرة والاسكندرية بأن الصليبيين قد استولوا على دمياط انزعجوا كثيراً وخافوا خوفاً عظيماً، وحشد سلطان القاهرة كل الفرسان والرجالة الذين كانوا لديه للدفاع عن نفسه ضد الصليبيين، ولو أذن الرب، لتمكن ملك فرنسا وجيشه من الاستلاء على بلاد مصر كلها وعلى أراضيها كاملة، ولكن إرادة الرب قضت بعدم منح الصليبيين المزيد من أي شيء، كما ستسمع بعد وقت قصير.

٢٦٦— وبعدما دخل ملك فرنسا دمياط، ووجدها من دون مدافعين- كما أخبرتكم- لقد اكتشفوا أن البلاد مليئة تماماً بالسلع الكافية، وخاصة من الأطعمة، وبناء عليه نهب عامة الناس كل شيء، واستراحوا وتمتعوا لبعض الوقت.

٢٦٧— وعقد ملك فرنسا مع البارونات الآخرين اجتماعاً تشاوريا لمدة طويلة، ليقرروا كيف يمكنهم الذهاب للاستيلاء على بقية البلاد، وهكذا تكلموا كلاماً كثيراً حول الموضوع، أنا لايمكنني روايته كله، وفي النهاية قرروا القيام بغارة على المناطق المجاورة، وتحطيم المسلمين حيثما تمكنوا، وكانوا سينجحون لو أن الرب سمح لخطتهم بالتنفيذ.

لكنني سأدع الحديث عن ملك فرنسا، وعن حشده وأسطوله، والذين كانوا في دمياط، وسوف أخبركم حول الحرب التي وقعت في عكا بين البيازنة والجنويين، وبعد ذلك ربما نعود إلى مسألتنا.

☆☆☆ ☆☆☆ ☆☆☆

٢٦٨— (١) وفي سبيل تثبيت المعاهدة، أرسل البنادقة برجاسياً من عكا اسمه السير بيترو برايس(٢)، وقد عاد إلى عكا من البندقية،

١— هنا خرم كبير يغطي المدة من ١٢٤٩ حتى ١٢٥٨، وتستأنف الرواية هنا في منتصف الطريق أثناء الحديث عن حرب القديس سابا، التي تفجرت في عام ١٢٥٦، بين البنادقة والجنويين.

٢— كانت أسرة برايس أو بريسي أو بريزي، أسرة برجاسية من أسر البندقية المقيمة في عكا.

والسير لورنز كوباكوبيا(١) Lorenzo copacopia الذي كان قائد ثلاثة عشر غليوناً، وقد حملوا على غلايينهم علمي كل من بيزا والبندقية، وظلوا يحملانها على سفنهم لمدة طويلة من الزمن.

وحدث أن قام الأمير بوهيموند[السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس] بناء على تحريض من كونت يافا جون أوف إيبلين، ومقدم الداوية، الأخ توماس بيرارد Berard ، بمراسلة أخته الملكة باليسانس Palisance -التي كانت أرملة الملك هنري الأول السمين، والتي كان لديها ابن اسمه هوغيت Hughet من الملك هنري السمين، كان وريث نيابة ملك مملكة القدس- لإحضارها إلى عكا لمساعدة البيازنة والبنادقة ضد الجنويين.

٢٦٩— ومضت الحرب، والاستعدادات المحرب قدماً مع نشاط كبير، وكان في ذلك الوقت قنصل بيزي في عكا اسمه السير سوغر أوف لى سيتي Suger of la seete ، وقد كان رجلاً شجاعاً كثيراً، كثير المعارف حول الحرب، وصاحب تجربة كبيرة، وهو الذي وجه البرج البيزي وقواه، وحدث أنه كان في أحد الأيام على البرج البيزي ومعه كونت يافا، الذي كان اسمه جون أوف إيبلين، وكان الكونت غير مسلح تماماً.

وعلى برج الجنويين، الذي كان قريباً، كان في ذلك الحين أحد الرماة الممتازين، وكان بيده قوس عقار، وكان ذاهباً لرمي كونت يافا، ولكن واحداً من القنصلين الجنويين، واسمه أنسالدو سيبا Ansaldo ceba صدف أن كان هناك، فمنع السير جانت من الرمي، بسبب أن الهدنة كانت ما تزال قائمة، وروي هذا العمل الجيد من قبل القنصل إلى الكونت الذي أعطاه مكافأة كبيرة بعد الحرب، لأنه عمله فارساً، وأعطاه إقطاعاً في يافا لمدى الحياة يساوي خمسمائة بيزانت في العام، لكنه دخل في اضطراب كبير مع الجالية الجنوية حول هذا، لأنهم اعتقدوا بأن

١— لعل هذا الاسم مصحف صوابه: لورنزو تيبولو Lorenzo tiepolo .

الكونت فعل هذا بسبب خيانة ما اقترفها ضد الجالية، ولكن عندما اتضحت الحقيقة، اعتذر الجنويون، ومدحوا الذي فعله، لأنه تصرف بإخلاص جيد، ثم عاد إلى جنوى.

٢٧٠ — وكان لدى الجنويين عادة إرسال قنصلين إلى عكا في كل عام، وكانا في وقت هذه الحرب هما السير ليو غريمالدي Leo grimaldi ، والسير أنسالدو سيبا، الذي حدثكم عنه للتو.

وعندما شاهد لوردات عكا درجة الاستعدادات، عملوا جميعاً من علمانيين ورجال دين سواء جهداً كبيراً [لمنع الحرب]، واجتمعوا مع بعضهم في بيت كبير في المدينة عائد إلى صاحب صور السير فيليب أوف مونتفورت، وقد أراد الألمان في عكا التوسط من أجل اتفاقية فيما بينهم، وفي أثناء تبادل مختلف التعليقات قال السير لورنزو كوبا كوبا لقنصل الجنويين أنه لن يغادر من عكا حتى يأخذ معه إحدى الحجارة من أساسات برج الجنويين، وعليكم أن تعلموا أنه فعل تماماً الذي قال سيعمله، كما سوف تسمعون.

ولدى سماع السير ليو غريمالدي - الذي كان أحد القنصلين الجنويين - هذا الكلام، وضع يده على شبيه واستله وركض نحو السير لورنزو كوبا كوبا، واقتربا من قتل أحدهما الآخر، لكن لوردات عكا والداوية والاسبتارية فصلا بينهما، ومن تلك اللحظة بدأت الحرب فيما بينهم، التي كانت الأكثر دموية، فقد رموا على بعضهم بعضاً بجميع أنواع الآلات الكبيرة والصغيرة، وكانت هناك آلة رمت حجراً كبيراً جداً، بلغ وزنه مائة رطل، وكان لكل آلة اسمها الخاص، فلقد كان لدى الجنويين آلتين كبيرتين اسمها: Boverel و Vincheguerre وأخرى اسمها Peretin ، وكان لدى البنادقة واحدة كبيرة جداً تدعى Marquemose وقد فعلوا الكثير في إيذاء بعضهم بعضاً، ودمروا عدداً من البيوت، ومضت الحرب مستمرة لمدة أربعة عشر شهراً.

٢٧١- وفي وسط هذا كله قام الأمير بوهيموند السادس، أمير أنطاكية، وكونت طرابلس باستدعاء أخته الملكة بالبساس ملكة قبرص، إلى طرابلس، وجلبت ابنها هوغيت الوريث الشرعي لمملكة القدس، وكان هذا بناء على نصيحة كونت يافا، والأخ توماس بيرارد مقدم الداوية، ونجلها الأمير وابنها هوغيت إلى عكا، حيث قامت الملكة بناء على نصيحة أخيها الأمير، بجعل جميع الناس الذين تحت سيادتها يقومون بالتحرك إلى مساعدة- وبموجب الدفع- البيازنة والبنادقة ضد الجنويين، ومنعتهم منعاً باتاً من الوقوف إلى جانب الجنويين، ولكن كان هناك الناس الذين لم يتخلوا قط عن الوقوف إلى جانب الجنويين، وكانوا أناساً سوريين تابعين للنظام الإغريقي، وكانوا ينتمون إلى جمعية القديس جورج ليبيت لحم، وساعد الاستبارية أنفسهم الجنويين بكل قواهم، وجاء صاحب جبيل إلى عكا، وأحضر معه مائتي رامي مسيحي لمساعدة الجنويين، وكانوا أناساً من الفلاحين(ربما من الموارنة)، من جبال جبيل، وقد قتلوا كلهم فيما بعد بالحرب.

٢٧٢- وحدث في أحد الأيام أن قام الجنويين بالهجوم عبر طريق اسمه شارع الملكة(لأن بيتاً كان ملكاً للملكة أليس كان في ذلك الشارع) وعبروا إلى شارع آخر اسمه la carcaisserie حيث حوصروا عندما اعتلت الأصوات.

وبناء على هذا جاء أمير أنطاكية ووصل على حصان مدرع مع فرسان مسلحين كانوا برفقته، وبين هؤلاء، كان السير بيرتراند إيمريكو Bertrand emriaco صاحب جبيل، ابن اللورد هيوج، وأمر الأمير السير بيرتراند أن يتولى القيادة ضد الجنويين، وبناء عليه رجاه السير بيرتراند أن يعفيه، لأنه امتلك معاهدة معهم، لكن الأمير جعله يذهب شاء أم أبى.

وعندما مضى نحوهم، وضع سنان رمحه خلف سرجه قائلاً للجنويين عندما وصل إليهم:« أنا بيرتراند صاحب جبيل»، وبعد ذلك

كان الأمير منزعجاً جداً منه، بسبب هذا، وأظهر ذلك بوضوح تام، فيما بعد لصاحب جبل، كما سوف تسمع خطوة خطوة.

٢٧٣— وهذه الكراهية الشديدة التي حملها الأمير نحو الجنويين، لم تكن بسبب أي سوء تصرف قد حدث، لكن الأمير، ووالده وجده استولوا على الامتيازات التي هي حق للجنويين في طرابلس، وهي امتيازات حصلوا عليها لدى الاستيلاء على مدينة طرابلس، عندما ساعدوا الكونت ريمون صاحب طولوز، الذي استولى عليها، فقد كان الجنويون هناك مع غلايينهم، حسبما ورد في كتاب الاستيلاء، وهذا السبب، خاف الأمير أن يحقق الجنويون النصر في الحرب، فيشتبكوا معه بخلاف وصراع، سريع وقوي، لذلك استهدف إلحاق الأذى بهم:

٢٧٤— ومن الوقت الذي وصل فيه الأمير إلى عكا، كان وصفت لكم، كان جميع الناس ضدهم، ولم يعد بإمكان المؤن أن تصل إلى حيهم إلّا عن طريق مشفى القديس يوحنا، الذي كان له بابين، باب نحو القلعة الملكية Seignorie ، والثاني باتجاه حي الجنويين، ووصلتهم الإمدادات التي حصلوا عليها عن طريق المشفى.

٢٧٥— وأعان السير فيليب أوف مونتفورت صاحب صور وتبرون الجنويين بكل سبيل أمكنه، وقد أرسل كل من الإمدادات والسيرجاندية من مدينته صور إلى عكا، ووصل هؤلاء إليهم أيضاً من خلال مشفى القديس.

٢٧٦— وكان في حي الجنويين حوالي الثمانمائة رجل مسلح من جميع الأمم، من دون إحصاء النساء أو الأطفال، أو الخدم، أو الجرحى، الذين عانوا كثيراً.

٢٧٧— وكان لدى البنادقة عشرين غليوناً، كانوا قد وصلوا من البندقية، فيما عدا الثلاثة عشر الذين وصلوا في وقت أبكر.

٢٧٨— وقام الأمير وأخته الملكة باليسانس وابنها (ولي عهد قبرص) بمغادرة عكا وعادوا إلى طرابلس، ومن هناك عادت الملكة وابنها إلى قبرص.

٢٧٩— عندما حل عام ١٢٥٨ للمسيح، وصل إلى ميناء ليماسول ثمانية وأربعين غليوناً جنوياً، وأربعة سفن كبيرة، لدعم جيهم والجنويين في عكا، ثم ذهبت هذه الغلايين والسفن الكبيرة إلى صور، وهناك قاموا مع صاحب صور بإعداد ما ينبغي عمله بعد ذلك، وكان قبطانهم وأدميرالهم روسوديلا توركا Rosso della turca.

٢٨٠— وفي الوقت نفسه قرر صاحب صور مع الجنويين، أن على صاحب صور الذهاب إلى عكا مع جميع الخيالة والرجالة الذين يستطيع أن يجمعهم، وأن يتخذ موقعاً له في مكان يدعى La vigne neuve ، وهناك يستدعي مقدم الاسبتارية وقواته للالتحاق به في موقعه، وعندما يرون أن الغلايين الجنوية قد رجحت كفتها، كان عليهم الدخول إلى عكا والاستيلاء على الحيين التابعين للبيازنة، والبنادقة.

وحدث كما عزموا، فقد وصل صاحب صيدا إلى عكا، واتخذ موقعه، ووصل مقدم الاسبتارية والتحق به هناك.

٢٨١— وتركت الغلايين الجنوية صور، ووصلوا إلى خارج عكا، وكان هناك ثمانية وأربعين غليوناً وأربع سفن كبيرة، وكان على كل سفينة آلة حصار، ولو أنهم ضربوا على الفور، لحصلوا على نصر كامل، لأن غلايين البنادقة- التي كان هناك منها أربعين- لم تكن قد اجتمعت بعد، وكان سبب هذا أن البيازنة والبنادقة كانوا خائفين من الخروج وترك محلتهم، خشية أن يقوم الجنويون الذين كانوا على البر بمهاجمتهم، وإذا ما ركبوا غلايينهم، ونزل الجنويون الذين كانوا في البحر، إلى البر، سوف يخسرون كل شيء، ولقد كانوا في هذا الوضع في خوف عظيم

رحصر كبير، وتباحثوا حول الوضع مع كونت يافا، الذي نصحهم بالذهاب إلى مقدم الداوية الأخ توماس بيرارد، وكان مقدم الداوية قد ذهب للإقامة في مؤسسة الفرسان للقديس ألعازر، حتى يبتعد عن معركة آلات الحصار، التي كانت تقذف على بعضها بعضاً، لأن مؤسسة الداوية كانت قريبة جداً من حي البيازنة.

٢٨٢— وتحدث كونت يافا، وقنصل البيازنة، والنائب البندقي إلى المقدم حول شؤونهم، وحول الوضع الذي سمعتم وصفه، ووعدهم المقدم بأنه سوف يرسل إليهم عدداً كافياً من فرسان الداوية مع خيالة آخرين ورجالة، ليتولوا حراسة حاراتهم وبيوتهم، أثناء قيام المعركة في البحر. وقد فعل كما قال، وعلى الفور امتطى فرسان الداوية خيولهم المدرعة، ووصلوا مع التوركبلية والآخرين، وأعلامهم تخفق لحراسة حارتي البيازنة والبنادقة، وعند وصولهم اعتقد الجنويون الذين كانوا على الأرض، أنهم قدموا ضدهم، فاندفعوا وهم يصرخون، وقاموا بحراسة حارتهم.

٢٨٣— وقدم صاحب صور عبر البر من صور إلى عكا، جالباً معه ثمانين خيالاً وثلاثين ... من الملاحين من المناطق المجاورة، وأقام معسكراً في Vigne-neuve ... قرب عكا، ووصل إلى عنده مقدم الاسبتارية الأخ وليم أوف تشاتونوف خارجاً من عكا، وجالباً معه العدد الممكن من الاسبتارية والتوركبلية، ومكث هناك مع صاحب صيدا، وانتظر ليرى فيما إذا كانت الغلايين ستكون قادرة على تحقيق هدفها.

٢٨٤— عندما رأى البنادقة والبيازنة أن حاراتهم تحت الحراسة [من قبل الداوية] أعلنوا حول المدينة أن كل من يرغب بالخدمة معهم، ينبغي أن يصعد إلى ظهور غلايينهم للخدمة كملاحين، وسوف يحصلون على عشرة دنانير إسلامية للنهار، وتسعة دنانير لليلة، ونتيجة لذلك حصلوا على أعداد كبيرة من الرجال، وركبوا غلايينهم (التي عددها أربعين)

وجهزوا البوارج الأخرى، والسفن المسلحة وسفن الآلات(التي كان هناك منها أكثر من سبعين)، وكان على كل واحدة رماة قسي عقارة، وقد ألحق هؤلاء بالجنويين أضراراً واسعة وأذى عظيماً.

وعندما اجتمع حشد الغلايين والبوارج، أقلعوا ضد غلايين الجنويين، ومباشرة أرغموا الجنويين على الفرار، وكانت بعض الغلايين تراقب الغلايين الأخرى وهي تقاتل، وتم الاستيلاء على تسعة عشر غليوناً، وقتل ألف وسبعمائة إنسان أو أسروا، وكان هناك أناس واقفين على الجانب لإزالة دروعهم وخوذاتهم الحديد. وقليل منهم نجا، وتجمعوا مجدداً على الغلايين الأخرى، الذين جذفوا بشدة حتى يتمكنوا من الوصول إلى صور، وهربت خمسة غلايين أخرى. ثلاثة إلى حيفا، واثنان إلى عثليت، وأرسل البنادقة غلايينهم خلفهم فاستولوا عليهم. أي استولوا على أربعة وعشرين غليوناً جنوياً، وكان هناك لدى إحصاء القتلى والأسرى سبعمائة من المصابين- كما أخبرتكم- لأنه عندما قام الجنويون بعملية تفقد، وجدوا قليلاً جداً من الرجال، وبالنسبة للسفن الجنوية الأربع الكبيرة، إنه عندما شاهدت هذه السفن غلايينهم وقد لحقها الدمار، وهربت، أقلعوا وتوجهوا إلى صور.

٢٨٥— عندما شاهد صاحب صور، الذي كان في La vigne-neuve مع خياله ورجالته -كما أخبرتكم- ومقدم الاسبتارية وبعض فرسان الرهبان الذين كانوا معه(ظانين أن الجنويين لابد أن يكونوا قادرين على ربح اليوم والوصول إلى أهدافهم)، شاهدوا بأن الجنويين قد هزموا شعروا بإحباط كبير وغضبوا، وغادر صاحب صور وعاد إلى صور في بلاده، وبقي مقدم الاسبتارية هناك، وقد بقي هناك إلى أن أصيب بالمرض ومات، وانتخب فرسان رهبان الاسبتارية مقدماً آخر، وكان رجلاً حكيماً، اسمه هيوج ريفيل Hugh revel ، وهو الذي كان القائد الكبير.

ووفق هذه الطريقة- كما سمعتم- انهزمت الغلايين الجنوية، وقد حدث هذا لهم، لأنهم جندوا لومباردين كعساكر، وهم أناس لم يعرفوا شيئاً عن البحر، وقد فقدوا غلايين في أماكن أخرى- كما سمعتم- لكنهم هزموا بعد هذا البيازنة والبنادقة، كما ستعرف في هذا الكتاب، وكما يعرف كل واحد.

٢٨٦- وبعدما قام الجنويون، الذين كانوا يدافعون عن حارتهم لمدة طويلة جداً، وعانوا كثيراً، وصبروا طويلاً أمام نقص الإمدادات، إلى حد أن البيضة كان من الصعب توفرها لرجل مجروح ليأكلها، وبعدما شاهدوا غلايينهم وقد انهزمت، تخلوا عن حارتهم والتجأوا إلى المشفى، ثم إنهم ذهبوا للعيش في صور، وقام البيازنة والبنادقة بتدمير حارتهم وبرجهم، وجميع بيوتهم، باستثناء الكنيسة، وحمل السير لورنزو كوباً كوبياً حجراً من أساسات برج الجنويين، ونقله لدى عودته إلى البندقية، واستخدم البيازنة والبنادقة الأحجار الأخرى لبناء أسوار حول حارتهم.

٢٨٧- وحدث في هذا العام نفسه- بإرادة من الرب- أن مات جون أوف إيبلين صاحب أرسوف ونائب عكا.

٢٨٨- وفي الصيف التالي -بعد هذه الحادثة- سلح الجنويون عشرين غليوناً، وعينوا أدميرالين، كان أولهما بينيديتو زكاريا Benedetto Zacaria ، لكن لا أستطيع ذكر اسم الثاني(١)، وذهبت هذه الغلايين العشرين إلى صور، وسلح البنادقة أربعة وعشرين غليوناً وذهبوا إلى عكا، ومن عكا إلى صور، عندها خرجت الغلايين العشرون للجنويين إلى خارج صور، وتحاربت مع البنادقة وفق هذه الطريقة: قام السير بينيديتو زكاريا بالمحاربة مع عشرة غلايين، لكن الأدميرال الثاني انصرف من دون ضربة واحدة، وذهب عائداً إلى الميناء، وهكذا أخذ

١- ربما كان باسقويتو Pasquetto أو باسقوينومالوني Pasquino mallone أو مالون Mallon الذي سوف يقتل فيما بعد في مسينا، انظر الفقرة ٣٥٤- المقبلة.

أسير بينيديتو زكاريا أسيراً، وأعيد إلى البندقية حيث بقي بالسجن لبعض الوقت، وجعلته البنادقة يقسم أنه لن يخرج للقتال ضد قوات البنادقة ثانية، وجعلوه يعاني من جميع الأشياء البغيضة في السجن، وعلى هذه الصورة فقد الجنويون هذه الغلايين العشرة خارج صور.

٢٨٩ — والآن أنا سأخبركم بالمزيد عن سـوء الحظ الذي ألم بالجنويين، ففي الصيف التالي سلحوا ستة وعشرين غليوناً، وبعثوا بهم مع أوامر بإلحاق الأذى بالبنادقة حيثما وجدوهم، وكان أدميرالهم رجلاً اسمه بوربورين Borborin ، وقد كان من تراباني Trapani ، وكان رجلاً لا مبالياً إلى حد أن الإنسان يكاد يقول أنه عمل اتفاقاً مع البنادقة من أجل المال، لأنه ترك الرجال الذين كانوا على الغلايين ينزلون على البر عبر حدائق تراباني، وهكذا بقي على كل غليون أقل من ستين رجلاً، ثم ظهر ثمانية وعشرون غليوناً بندقياً، ونصبوا لهم كميناً في أحد الموانىء، واستولوا على جميع الستة والعشرين غليوناً الذين كانوا فارغين من الرجال، بسبب - كما سمعت - كان الرجال جميعاً على اليابسة، والذين كانوا في الغلايين، وجدوا أنفسهم عددهم قليلاً جداً، لذلك قفزوا إلى اليابسة، حتى أدميرالهم بوربورين وابنه كانا على اليابسة، وقد هربا من البلدة براً، وبهذه الطريقة تمت خسارة تلك الغلايين أيضاً.

٢٩٠ — ومـرة أخـرى، سلح الجنويـون ثمانية وعشرين غليـونـاً، ووضعوا عليهم أربعة أدميرالات، حملوا الأسماء التالية: فقد كان اسم الأول إينريكو دوغو Enrico dugo من أسرة سبينولا Spinola وكان اسم الثاني أودو فينتو Udo vento ، ودعي الآخر سيمون دي كلاريتيا Claritea ولا يمكنني ذكر اسم الرابع لكم.

ووصلت الثمانية والعشرون غليوناً المتقدمة الذكر إلى مكان يدعى Settepons ، وهناك اصطدموا بالبنادقة، الذين كانوا في ثمانية وعشرين غليـونـاً، وتحاربوا مـع بعضهم، وبالنهـايـة لحقت الهزيمـة

ووفق هذه الطريقة- كما سمعتم- انهزمت الغلايين الجنوية، وقد حدث هذا لهم، لأنهم جندوا لومبارديين كعساكر، وهم أناس لم يعرفوا شيئاً عن البحر، وقد فقدوا غلايين في أماكن أخرى- كما سمعتم- لكنهم هزموا بعد هذا البيازنة والبنادقة، كما ستعرف في هذا الكتاب، وكما يعرف كل واحد.

٢٨٦— وبعدما قام الجنويون، الذين كانوا يدافعون عن حارتهم لمدة طويلة جداً، وعانوا كثيراً، وصبروا طويلاً أمام نقص الإمدادات، إلى حد أن البيضة كان من الصعب توفرها لرجل مجروح لبأكلها، وبعدما شاهدوا غلاييهم وقد انهزمت، تخلوا عن حارتهم والتجأوا إلى المشفى، ثم إنهم ذهبوا للعيش في صور، وقام البيازنة والبنادقة بتدمير حارتهم وبرجهم، وجميع بيوتهم، باستثناء الكنيسة، وحمل السير لورنزو كوبا كوبياً حجراً من أساسات برج الجنويين، ونقله لدى عودته إلى البندقية، واستخدم البيازنة والبنادقة الأحجار الأخرى لبناء أسوار حول حارتهم.

٢٨٧— وحدث في هذا العام نفسه- بإرادة من الرب- أن مات جون أوف إيبلين صاحب أرسوف ونائب عكا.

٢٨٨— وفي الصيف التالي -بعد هذه الحادثة- سلح الجنويون عشرين غليوناً، وعينوا أميرالين، كان أولهما بينديتو زكاريا Benedetto Zacaria ، لكن لا أستطيع ذكر اسم الثاني(١)، وذهبت هذه الغلايين العشرين إلى صور، وسلح البنادقة أربعة وعشرين غليوناً وذهبوا إلى عكا، ومن عكا إلى صور، عندها خرجت الغلايين العشرون للجنويين إلى خارج صور، وتحاربت مع البنادقة وفق هذه الطريقة: قام السير بينديتو زكاريا بالمحاربة مع عشرة غلايين، لكن الأميرال الثاني انصرف من دون ضربة واحدة، وذهب عائداً إلى الميناء، وهكذا أخذ

١— ربما كان باسقويتو Pasquetto أو باسقوينومالوني Pasquino mallone أو مالون Mallon الذي سوف يقتل فيما بعد في مسيناء انظر الفقرة ٣٥٤— المقبلة.

أسير بينيديتو زكاريا أسيراً، وأعيد إلى البندقية حيث بقي بالسجن لبعض الوقت، وجعلته البندقية يقسم أنه لن يخرج للقتال ضد قوات البندقية ثانية، وجعلوه يعاني من جميع الأشياء البغيضة في السجن، وعلى هذه الصورة فقد الجنويون هذه الغلايين العشرة خارج صور.

٢٨٩- والآن أنا سأخبركم بالمزيد عن ســوء الحظ الذي ألم بالجنويين، ففي الصيف التالي سلحوا ستة وعشرين غليوناً، وبعثوا بهم مع أوامر بإلحاق الأذى بالبندقية حيثما وجدوهم، وكان أدميرالهم رجلاً اسمه بوربورين Borborin ، وقد كان من ترابانى Trapani ، وكان رجلاً لا مبالياً إلى حد أن الإنسان يكاد يقول أنه عمل اتفاقاً مع البندقية من أجل المال، لأنه ترك الرجال الذين كانوا على الغلايين ينزلون على البر عبر حـدائق ترابانى، وهكذا بقي على كل غليـون أقل من ستين رجلاً، ثم ظهر ثمانية وعشرون غليوناً بندقياً، ونصبوا لهم كميناً في أحد الموانئ، واستولوا على جميع الستة والعشرين غليوناً الذين كانوا فارغين من الرجال، بسبب- كما سمعت- كان الرجال جميعاً على اليابسة، والذين كـانوا في الغلايين، وجدوا أنفسهم عددهم قليلاً جداً، لذلك قفزوا إلى اليابسة، حتى أدميرالهم بوربورين وابنه كـانا على اليابسة، وقد هربا من البلدة براً، وبهذه الطريقة تمت خسارة تلك الغلايين أيضاً.

٢٩٠- ومـرة أخرى، سلح الجنويون ثمانية وعشرين غليـوناً، ووضعوا عليهم أربعة أدميرالات، حملوا الأسماء التالية: فقد كان اسم الأول إينريكو دوغــو Enrico dugo من أسرة سبينولا Spinola ، وكان اسم الثاني أودو فينتو Udo vento ، ودعي الآخر سيمون دي كلاريتيا Claritea ولا يمكنني ذكر اسم الرابع لكم.

ووصلت الثمانية والعشرون غليوناً المتقدمة الذكر إلى مكان يدعى Settepons ، وهناك اصطدموا بالبنادقة، الذين كانوا في ثمانية وعشرين غليـوناً، وتحاربوا مع بعضهم، وبالنهـاية لحقت الهزيمـة

بالجنويين، وتم فقدان ثلاثة عشر غليوناً، ونجا خمسة عشر، وقد قتل عدد كبير من الناس من على الجانبين بها في ذلك اثنان من الأدميرالات الجنويين الأربعة، وهما السير اينريكو دوغو، والسير أودو فينتو، ونجا سيمون دي كلاريتيا مع الأدميرال الآخر.

وبعدما عانى الجنويون من هذه المأساة، تركوا تسليح الأساطيل الحربية لمدة طويلة، مع انهم سلحوا عدداً قليلاً من السفن الكبيرة، وأنزل هؤلاء بأعدائهم أضراراً كبيرة جداً في أماكن متنوعة.

وعليكم عدم الاعتقاد بأن هذين الأسطولين الجنويين قد صنعا وتمت خسارتهما في العام نفسه، إنهم بالحري صنعوا في ثلاثة أعوام، وخلال ثلاثة فصول صيف، وأنه خلال ذلك الوقت وقعت أشياء كثيرة في الغرب وفي سورية، حسبما سوف يأتي الوصف فيما بعد.

٢٩١— وحدث أنه بعدما انتهت الحرب الجنوية نظر أمير أنطاكية وكونت طرابلس نظرة كراهية وبغضاء نحو[هنري] صاحب جبيل، ونحو السير بيرتراند الجبيلي وأسرتها، ولم يقم الأمير بمحاولة لإخفاء ذلك سواء بالكلام أو بالفعل، وبناء عليه عرف[هنري] صاحب جبيل والسير بيرتراند الجبيلي وأسرتها ذلك معرفة جيدة تماماً، وما كان بمكانهم التظاهر بأنهم لم يعرفوا، وكان سبب الكراهية هذه- كما أخبرتكم- هو أن صاحب جبيل كان قد أرسل مساعدات إلى الجنويين في عكا في سفينة كبيرة تدعى Poindor ، وهي سفينة ذات مائة مجذاف، وكان هو حتى شخصياً داخل حارة الجنويين في عكا لعدة أيام، ولهذا السبب أيضاً، قام السير بيرتراند الجبيلي بالمضي ضد الجنويين، ورمحه مسدد نحو الأمام، لكن سنانه حلف سرجه، كما سمعتم من قبل.

وعندما كان الأمير في هذه الحالة من التفكير -كما أخبرتكم- حدث أن تخاصم فرسان طرابلس مع الأمير، حول قضية تتعلق بالرومان (الايطاليين).

٢٩٢— وحدث عندئذ أن صاحب جبل، وصاحب البترون[وليم الأنطاكي] مع فرسان آخرين قد ثاروا ضد أمير أنطاكية، وغادروا طرابلس، وكان الرئيس بينهم بيرتراند الجبيلي، وكان بيرتراند هذا هو الذي تكلم في دمياط أمام ملك فرنسا، من أجل كرامة هذا الأمير كما أخبرتكم(١)، وكان فارساً صاحب حكم صائب، وكان شديداً، وقوياً مع ذاكرة حادة.

وقام هو الآن والخيالة الذين كانوا لديه من خلال تأييد اسبتارية القديس يوحنا، بالإغارة على المناطق في ذلك الجوار، وأنزلوا كثيراً من الأضرار بأراضي الأمير، وجعل هذا الأمير غاضباً، غير أنه لم يمتلك ما يكفي من الرجال لينزل إلى الميدان ضدهم، ودعم الداوية الأمير، تماماً مثلما دعم الاسبتارية الذين كانوا على الطرف الآخر، مع أنهم لم يظهروا ذلك علناً.

٢٩٣— وحدث في أحد الأيام أن السير بيرتراند الجبيلي هذا، وصل إلى خارج مدينة طرابلس، جالباً معه عدداً من الرجال على الخيول وعلى الأقدام، على الأقدام بسبب -كما أخبرتكم- كان القسم الأكبر من الفرسان قد ذهبوا، حيث كانوا في الخارج في ثورة ضده، ولكن عندما رأى الأمير أنه بات محاصراً، امتلأ بغضب وحنق شديد، وحشد جميع الرجال الذين أمكنه حشدهم، وخرج وتحارب معهم.

وفي النهاية لحقت الهزيمة بالأمير، وقد أدار ظهره وعاد إلى طرابلس بأفضل سبيل أمكنه، لكن بيرتراند رآه يذهب، فقام بمطاردته حتى التقى به عند أبواب المدينة، وأصاب سنان رمحه الأمير في كتفه، وجرح الأمير وهو يصرخ: «إن شجاعتك نذالة، ارجع ولا تنهزم».

٢٩٤— وذهب الأمير إلى داخل المدينة، ومضى بسبب جرحه في

١— لعله تحدث عن هذا في الأوراق المفقودة ما بين الفصلين ٢٦٧— ٢٦٨.

بجنويين، وتم فقدان ثلاثة عشر غليونا، ونجا خمسة عشر، وقد قتل عدد كبير من الناس من على الجانبين بما في ذلك اثنان من الأدميرالات الجنويين الأربعة، وهما السير اينريكو دوغو، والسير أودو فينتو، ونجا سيمون دي كلاريتيا مع الأدميرال الآخر.

وبعدما عانى الجنويون من هذه المأساة، تركوا تسليح الأساطيل الحربية لمدة طويلة، مع أنهم سلحوا عدداً قليلاً من السفن الكبيرة، وأنزل هؤلاء بأعدائهم أضراراً كبيرة جداً في أماكن متنوعة.

وعليكم عدم الاعتقاد بأن هذين الأسطولين الجنويين قد صنعا وتمت خسارتهما في العام نفسه، إنهم بالحري صنعوا في ثلاثة أعوام، وخلال ثلاثة فصول صيف، وأنه خلال ذلك الوقت وقعت أشياء كثيرة في الغرب وفي سورية، حسبما سوف يأتي الوصف فيها بعد.

٢٩١- وحدث أنه بعدما انتهت الحرب الجنوية نظر أمير أنطاكية وكونت طرابلس نظرة كراهية وبغضاء نحو[هنري] صاحب جبيل، ونحو السير بيرتراند الجبيلي وأسرتهما، ولم يقم الأمير بمحاولة لإخفاء ذلك سواء بالكلام أو بالفعل، وبناء عليه عرف[هنري] صاحب جبيل والسير بيرتراند الجبيلي وأسرتهما ذلك معرفة جيدة تماماً، وما كان بإمكانهم التظاهر بأنهم لم يعرفوا، وكان سبب الكراهية هذه- كما أخبرتكم- هو أن صاحب جبيل كان قد أرسل مساعدات إلى الجنويين في عكا في سفينة كبيرة تدعى Poindor ، وهي سفينة ذات مائة مجذاف، وكان هو حتى شخصياً داخل حارة الجنويين في عكا لعدة أيام، ولهذا السبب أيضاً، قام السير بيرتراند الجبيلي بالمضي ضد الجنويين، ورمحه مسدد نحو الأمام، لكن سنانه خلف سرجه، كما سمعتم من قبل.

وعندما كان الأمير في هذه الحالة من التفكير -كما أخبرتكم- حدث أن تخاصم فرسان طرابلس مع الأمير، حول قضية تتعلق بآل روماني (الإيطاليين).

٢٩٢— وحدث عندئذ أن صاحب جبيل، وصاحب البترون[وليم الأنطاكي] مع فرسان آخرين قد ثاروا ضد أمير أنطاكية، وغادروا طرابلس، وكان الرئيس بينهم بيرتراند الجبيلي، وكان بيرتراند هذا هو الذي تكلم في دمياط أمام ملك فرنسا، من أجل كرامة هذا الأمير كما أخبرتكم(١)، وكان فارساً صاحب حكم صائب، وكان شديداً، وقوياً مع ذاكرة حادة.

وقام هو الآن والخيالة الذين كانوا لديه من خلال تأييد اسبتارية القديس يوحنا، بالإغارة على المناطق في ذلك الجوار، وأنزلوا كثيراً من الأضرار بأراضي الأمير، وجعل هذا الأمير غاضباً، غير أنه لم يمتلك ما يكفي من الرجال لينزل إلى الميدان ضدهم، ودعم الداوية الأمير، تماماً مثلما دعم الاسبتارية الذين كانوا على الطرف الآخر، مع أنهم لم يظهروا ذلك علناً.

٢٩٣— وحدث في أحد الأيام أن السير بيرتراند الجبيلي هذا، وصل إلى خارج مدينة طرابلس، جالباً معه عدداً من الرجال على الخيول وعلى الأقدام، على الأقدام بسبب -كما أخبرتكم- كان القسم الأكبر من الفرسان قد ذهبوا، حيث كانوا في الخارج في ثورة ضده، ولكن عندما رأى الأمير أنه بات محاصراً، امتلأ بغضب وحنق شديد، وحشد جميع الرجال الذين أمكنه حشدهم، وخرج وحارب معهم.

وفي النهاية لحقت الهزيمة بالأمير، وقد أدار ظهره وعاد إلى طرابلس بأفضل سبيل أمكنه، لكن بيرتراند رآه يذهب، فقام بمطاردته حتى التقى به عند أبواب المدينة، وأصاب سنان رمحه الأمير في كتفه، وجرح الأمير وهو يصرخ:«إن شجاعتك نذالة، ارجع ولا تنهزم».

٢٩٤— وذهب الأمير إلى داخل المدينة، وبقي بسبب جرحه في

١— لعله تحدث عن هذا في الأوراق المفقودة ما بين الصفحتين ٢٦٧ — ٢٦٨.

الفراش لمدة طويلة، وفي الوقت الذي كان فيه يتعافى، فكر تفكيراً طويلاً، كيف يمكنه أن يرتب سرياً لإماته بيرتراند باستخدام الفلاحين من القرى، وقد فعل هذا بأن رتب قيام الفلاحين التابعين لبيرتراند بإحضار رأسه إليه، كما سوف أحدثكم.

٢٩٥— وحدث أن قام بيرتراند هذا، مرافقاً بفارس شاب، بالذهاب لتفقد واحدة من قراه، ولمعرفة دخلها، وعندما كان على طريقه إلى هذه القرية، وكان على منحدر صعب، مع ممر غير مضمون، وصل إلى جدار منخفض حول كرم، وكان وراء هذا الجدار ما بين عشرة فلاحين إلى اثني عشر مع قسي موتورة، وقد أطلقوا سهامهم عليه، وعند هذا حاول أن يستدير نحوهم، وفي أثناء استدارته على المنحدر المنزلق، سقط حصانه فوقه بطريقة أنه بات متمدداً على جنبه، وكان غير قادر على الوقوف على قدمية، وكان سيفه المجرد بيده، مع أنه لم يكن معه سلاح آخر، غير أنهم أطلقوا عليه عدداً كبيراً من النشاب، وعلى كل حال قتلوه، وقطعوا رأسه.

وأصيب الفارس الآخر الذي كان برفقته بعدد من السهام، هو وفرسه، غير أنه تمكن من الفرار، ووصل إلى سفح الجبل، لكن الفلاحين ركضوا خلفه وقطعوا رأسه أيضاً، ثم حمل الفلاحون رأس السير بيرتراند المذكور إلى الأمير في سلة مصنوعة من الأغصان، واغتبط تجاه هذا، ودفع لهم بشكل جيد.

٢٩٦— ورويت هذه الأخبار إلى الفرسان المتمردين، فأسفوا أسفاً شديداً، واعتراهم الخوف إلى حد أن ما من أحد كان بإمكانه طمأنتهم أو مواساتهم، وقام السير هيوج صاحب جبيل، والد بيرتراند بجمعهم، وقال بأنه سوف يأخذ مكان ابنه بالنسبة لهم، وحثهم على متابعة الحرب، وعدم إهمال القضية، لأن الوضع سوف يكون أسوأ إذا فعلوا، وقدم لهم حججاً كثيرة، لكنهم لم يريدوا الإصغاء إليه، وعملوا سلامهم

مع الأمير، وذهبوا عائدين إلى طرابلس، وفعلوا ذلك كلهم باستثناء صاحب جبيل، الذي انحصر داخل جبيل، وذهب[وليم الأنطاكي] صاحب البترون إلى عكا حيث عين بمثابة قهرمان لمملكة القدس، حسبما كانت، وقام السير جون الجبيلي، أخو السير هيوج بالذهاب أيضاً إلى عكا، وعين بمثابة مارشال مملكة القدس، وقد مات في عكا فيما بعد، وجلب السير هيوج، والد بيرتراند أبناء ابنه معه إلى عكا، وعاش في عكا، واتخذ لحية لنفسه، طوال بقية حياته، حداداً على ابنه.

والآن سأدع الحديث إليكم حول هذه الأشياء، وسوف أتحدث إليكم حول مسألة أخرى.

٢٩٧— وفي أثناء حدوث هذا كله جرى تعيين رجل فرنسي كبير يدعى السير غيوفري أوف سيرين Sergines نائباً لمملكة القدس في عكا، وحدث هذا بعد وفاة السير جون أوف إيبلين، صاحب أرسوف، الذي كان نائباً(١).

٢٩٨— كان اللورد غيوفري هذا رجل قضاء قوي جداً، فقد شنق في أيامه كثيراً من اللصوص والقتلة، ولم يكن قط ليوفر أحداً بسبب أسرة أو أعطيات قد تعطى إليه، أو بسبب صداقة أو أي شيء آخر، فبين كثيرين شنق فارساً اسمه جون رينير Renier الذي قتل أسقف فياغوستا، فقد انتزعه بالقوة، مع رجال مسلحين، من حارة البيازنة حيث كان قد التجأ، وقد سلمه البيازنة.

ولسوف أترك الآن الحديث حول هذا، وأحدثكم حول موضوع آخر.

٢٩٩— في عام ١٢٦٠ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، كان هناك سيد كبيراً جداً اسمه هولاكو، وكان مقدماً على جميع التتار، الذين كانوا على مقربة من مناطقنا، وكان له ثلاثة أخوة كان هو رابعهم، وقد كانوا

---

١ — مات جون في أواخر عام ١٢٥٨، وجرى تعيين غيوفري في أيار ١٢٥٩.

جميع أبناء الخان الكبير للتتار، وعندما مات الخان الكبير، تقاتل أبناؤه الأربعة الذين عاشوا بعده، حول اقتسام السيادة فيما بينهم أنفسهم، وجرى تقسيم حصصهم بالقرعة، لأن كثيراً من الناس كانوا غير قادرين على العيش مع بعضهم، وتم التقسيم إلى أربعة أقسام، وكان القسم الأول نحو إشراق الشمس، وقسم آخر نحو الغروب، وقسم وراء الجبال، وقسم من بعد سفر نصف يوم، وحدث أن قسم هولاكو قد وقع بالجزء منطلقنا، وامتلك الإخوة الآخرون أقسامهم، حيث ذهب كل واحد منهم إلى قسمه ليعيش، واستولى كل أخ- فيما عاد إليه- على قدر ما استطاع أن يستولي عليه وزاد من سيادته ومملكته.

٣٠٠— وكان هولاكو هذا الذي أخبرتكم عنه أكثر الناس شجاعة، وأكثر جرأة ومغامرة من أي واحد من إخوته، وقد استولى على أكثر، وفعل أفاعيل أكثر مما فعله أي واحد من إخوته، وهكذا لحسن حظه، توفر في قسمه أفضل الرجال المسلحين ممن بقيوا من جيش أبيه عند التقسيم، في حين اقتسم إخوته الثروة والرجال الذين تركهم أبوه.

٣٠١— واستولى هولاكو هذا على بغداد، وتبريز، وفارس، كما سأشرح لكم فيما بعد في هذا الكتاب، ثم تابع غزوه نحو سورية، وهزم واستولى على: حلب، وحارم، وحماة، ووصل إلى دمشق(وهي مدينة كبيرة جداً، مع كثير من السكان، وعدد كبير بساتين)واستولى عليها، وهذه المدن جميعها هي عائدة للمسلمين، وقد استولى عليهم من دون أن يقوموا بأي محاولة للدفاع عن أنفسهم، لأن التتار امتلكوا أكثر من مائة وعشرين ألف خيال.

٣٠٢— ووصل هيثوم الأول، ملك أرمينيا إلى عند هذا الحاكم الأعظم قوة، وصل إليه في بلاده قبل أن ينطلق هولاكو، وأصبح رجله، وبقوة اقترح وأشار عليه أن يجهز نفسه، للقدوم مع قوة عظيمة، كما سوف تسمع، وفعل ملك أرمينيا الجيد هذا، وأعد له، بسبب شرور المسلمين،

ومن خلال الجهود الطيبة للأمير بوهيموند السادس صاحب أنطاكية، الذي كان يعرف باسم الأمير الجميل، ذلك أنه كان صاحب حظوة كبيرة لدى السيد هولاكو، ولأن الأمير كان صهر ملك أرمينيا(١).

٣٠٣- التحق ملك أرمينيا وأمير أنطاكية بجيش التتار، وكانا موجودين أثناء الاستيلاء على دمشق، وعندما سقطت دمشق، قام الأمير صدوراً عن كراهيته للمسلمين واستخفافاً بهم، ولإهانتهم، فأمر بتطهير كنيسة جيلة جداً وتبخيرها، وكانت هذه الكنيسة من أيام المسيحيين الاغريق، أي من الوقت الذي قام فيه هرقل بتحصين دمشق، وكان المسلمون يعبدون محمداً(صل الله عليه وسلم) فيها، لكنها كانت بالأصل كنيسة للاغريق، ومع ذلك عمل قداساً فرنجياً جرى إنشاده فيها، وأمر بقرع النواقيس أثناء ذلك، وأما بالنسبة للمساجد الإسلامية الأخرى، حيث يتعبد المسلمون، فقد أمر بجعلها اصطبلات للأكاديش والحمير، ورش فيها وعلى جدرانها الخمور، ولوثهم بلحم الخنزير المملح والطازج، وحيثما كان قد أمر رجاله باقتراف عمل تدنيس واحد، عملوا عشرة.

وبعدما استولى هولاكو هذا على هذه المدن الذي ذكرتها، استدار وذهب عائداً إلى بلاده، وأعطى أيضاً هدايا فخمة إلى الأمير، واحتفى به في حضرته احتفاء صداقة.

وبقي واحد من كبار السادة التتار، واسمه كتبغا، في أراضي مملكة القدس، مع قوة كبيرة من التتار، وقد ذهب إلى صيداء، وأخذها بعامل المفاجأة، وتولى مقاومة هجومه صاحب صيداء السير يوليان، الذي كان على ظهر حصانه عند مدخل البوابة، يدافع عن المدخل بشجاعة كبيرة، مع عدد قليل من الرجال، حتى أن حصانه قتل تحته، وتمسك بالمدخل مدة طويلة، حتى أن عامة الناس توفر لديهم وقتاً طويلاً للتراجع مع

١- تزوج بوهيموند في عام ١٢٥٨ سيبلا ابنة هيثوم.

بعضهم إلى قلعتين واحدة على البر، والأخرى في البحر، وحدث شيء آخر مفيد ساعد عامة الناس، هو أن غليونين وصلا من صور، وهما على طريقهما إلى أرمينيا، وكانا تحت إمرة السير فرانسيسشينو غريمالدي Franceschino grimaldi ، ومرا بصيدا في ذلك اليوم، وقد حملا كثيراً من الناس، وحملوهم إلى جزيرة هي موجودة خارج صيدا، وقريبة جداً من قلعة البحر.

وفي النهاية صار صاحب صيدا غير قادر على صد الحملات التي قام بها التتار، الذين قتل وذبح الكثيرين منهم على الجسر أمام البوابة، فانسحب وذهب إلى داخل القلعة البرية، وتابع التتار هجومهم فاستولوا على المدينة، وأسروا عدداً من عامة الناس، حيث قتلوا بعضهم، وأخذوا الآخرين أسرى، وجاء استيلائهم على صيدا إلى حد أنهم دمروا أسوار المدينة، وهاجموا القلعة البرية، لكن من دون تحقيق نتيجة، ثم تركوا وغادروا، وفي ذلك العام باع يوليان صيدا إلى الداوية، لأنه لم يمتلك الموارد لترميم الأسوار التي تعرضت للدمار.

٣٠٤— وكان يوليان هذا فارساً باسلاً، وشجاعاً، ونشيطاً، ولايعرف الاستقرار ويفتقر إلى الرأي الصائب، مع جسد كبير، وأطراف، وبنية ضخمة، وعظام جيدة، وقد انخرط في شبق الجسد، وكان مقامراً نشطاً، ويتحاور بنفسه أثناء اللعب، وكان حفيد اللورد فيليب أوف مونتفورت صاحب صور وتيرون، ولحماقته عمل حرباً مع عمه، ووصل إلى خارج صور مع فرسان وتركبلية، ونهب المنطقة حول المدينة، ثم ذهب عائداً إلى صيدا.

غير أنني سأدع أخبارهم حول هذه القضية لأتحدث عن أشياء أخرى.

٣٠٥— وحدث في هذا العام أن قام فرسان دير فرسان الداوية في عكا، وصفد، وعثليت وشقيف أرنون، مع السير جون أوف إيبلين

صاحب بيروت وابن باليان أوف إيبلين(صاحب بيروت الذي انتزع صور من اللومبارد)، وجون صاحب جبيل، مارشال مملكة القدس وكثير من الفرسان، قاموا بالخروج من عكا، لتدمير معسكر كبير للأتراك قرب طبرية، وقد هزموا بشكل رهيب، وكان بين الذين أسروا السير جون أوف إيبلين صاحب بيروت، وجون صاحب جبيل مارشال المملكة، وقائد الداوية، الأخ متى سوفاجيه Sauvage ، وعدد كبير آخر من فرسان عكا، وكثير من السيرجاندية، من كل من الخيالة والرجالة، قد قتلوا أو أسروا، وفقد الداوية جميع تجهيزاتهم، ونجا الأخ ستيفن أوف سايسي Saisy مارشال الداوية، وقد قيل عنه بأنه نفذ قتاله ضد الأتراك بشكل ضعيف جداً، واستدار على عقبيه دون أن يوجه ضربة، وذلك إما لأن شجاعته قد خذلته، أو فعل ذلك عن طواعية، بسبب(كما قالوا) أنه حمل مشاعر سيئة نحو صاحب بيروت، وقد حرض بغيرة حمقاء حول امرأة من منطقته، ومهما كانت القضية، أمره مقدم الداوية بالعودة إلى الغرب، وجرده من ملابسه الرسمية، وبقي في إدارة مجلس الكرادلة الرومان حتى أيام غريغوري أوف بياسينزا Piacenza (غريغوري العاشر ١٢٧١—١٢٧٤م)[الذي كان موجوداً في عكا عندما انتخب بابا]، فقد وصل الأخ ستيفن أوف سايسي ليجده في عكا، ثم— شكرا للبابا— استرد اللباس الرسمي للمنظمة، وذهب إلى ما وراء البحار مع البابا.

٣٠٦— وكان صاحب بيروت قد أسر من قبل الأتراك— كما سمعتم— ومثل ذلك كان الحال بالنسبة للراهب وليم أوف بيجو(الذي أصبح فيما بعد مقدم الداوية) وثيوبولد غودين(الذي أصبح فيما بعد قائد الداوية في البلاد لمدة طويلة) وفارس راهب آخر.

٣٠٧—وتم التباحث حول دفع فدية صاحب بيروت مع بعض الآخرين معه، وأطلق سراحه مقابل عشرين ألف دينار إسلامي، وكان

الذين أطلق سراحهم هو والسيرجون صاحب جبيل، ومارشال مملكة القدس، وجيمس فيدال Vidal مع فرسان آخرين، وأطلق سراح الراهب الفارس وليم بيجو من قبل أصدقائه، وذلك مع واحد من رفاقه، والراهب الفارس تيوبولد غودين Gaudin مع ثلاثة عشر فارس راهب آخر، ولم يمكن العثور على المزيد أحياء.

وسوف أدع الآن الحديث حول هذه القضية، التي هناك المزيد للقول حولها، وسوف أخبركم حول المسلمين في مصر.

٣٠٨ـ بعدما استولى التتار على حلب، وحارم، وحماة، وحمص، وانتزعوهم من المسلمين، ثم استولوا على صيدا وانتزعوها من الصليبيين- كما سمعتم- انزعج سلطان مصر واستثير كثيراً، فحشد قدر ما وجده من الخيالة والرجالة، ومضى من القاهرة ووصل إلى مملكة القدس، وأرسل رسائل إلى عكا يطلب من الصليبيين السماح له بالعبور خلال أراضيهم حتى يتمكن من الزحف ضد التتار، وأعطاه الصليبيون موافقتهم عن طواعية، بسبب أن الصليبيين كانوا غاضبين من التتار، بسبب الدمار الذي ألحقوه بصيدا.

وهكذا وصل السلطان إلى خارج عكا مع جميع قواته، وعسكر في السهل الذي كان قريباً جداً من مدينة عكا، وقد دخلوا إلى المدينة لإنعاش أنفسهم، وكان بين الذين دخلوا أمير كبير اسمه بيبرس، الذي أصبح فيما بعد سلطاناً، وأنزل كميات هائلة من الأضرار بالصليبيين، كما سوف تسمعون فيما بعد، وبسبب أن عدد المسلمين الذين دخلوا إلى المدينة كان كبيراً جداً، بات سكان عكا خائفين من أنهم سوف يغدرون بهم، ويطردونهم منها بالقوة و لم تقع.

٣٠٩ـ وبحث الصليبيون عقد اتفاقية مع المسلمين، يبيعهم المسلمون بموجبها أية مطايا يمكن أن يأخذوها من التتار مقابل سعر

محدد، واتفقوا عليه فيما بينهم، لكن كما حدث فيما بعد، ما أن رأى المسلمون، حتى لم يقوموا بتنفيذ مثل هذا الشيء.

٣١٠— وتلقى السلطان خبراً من جواسيسه بأن التتار كانوا منتشرين باتساع عبر المنطقة، ولذلك غادر سهل عكا، وزحف ضدهم وعين هذا الأمير نفسه قائداً على جيشه، أي أن تكون على طليعة هذه القوات، وكان بيبرس مملوكه، قد اشتراه بماله. وقد حمل قوس بندق السلطان arc de mot . ولهذا السبب عرف باسم البندقداري، لأن بين المسلمين عنت عبارة arc de mot قوس البندق

وكان بيبرس هذا شديداً جداً وشجاعاً، وكان هو الأول بالزحف ضد التتار، ونال منهم نيلاً شديداً، وسحقهم بقسوة وقتل كثيراً منهم وتجمع المغول، لكن وقت ذلك وصل السلطان ضدهم مع جيشه الكبير، وكانت المعركة فيما بينهم حادة جداً، وكانت حملة المسلمين عظيمة إلى حد أن التتار كانوا غير قادرين على الصمود ضدها، وأرغموا على الفرار، ولاقى قائدهم كتبغا حتفه في المعركة، ومن الذين انهزموا من النازلة المفجعة، جرى قتل الكثيرين من قبل الفلاحين المحليين من أهل القرى، وأما الذين تمكنوا من إعادة تجميع صفوفهم، فقد ذهبوا إلى أرمينيا حيث وجدوا الأمان.

ووقعت هذه المعركة في اليوم الثالث من أيلول، في أيام الذكر، فوق سهول طبرية.

٣١١— بعد هذه المعركة التي سمعت عنها، استعد سلطان القاهرة للعودة إلى مصر وسط أبهة عظيمة وفرح كبير، لكن هذا لم يدم طويلاً، لأنه وهو على طريق العـــودة إلى مصر، قتل الأمير بيبرس السلطان بموافقة من الأمراء الآخرين (الذين كانوا من حزبه الموثوقين) وقام هو وبعض الأمـــراء الذين كـانوا متعـاونين معـه، بالانطلاق على القوى، وقصـدوا القاهـرة، ودخلوا إلى قلعة القـاهرة، وهناك وجدوا الشخص

الذي كان آمراً للقلعة، والذي عرف باسم الأتابك، وكان اسمه فارس الدين أقطاي [المستعرب]، وكان حكيماً ومسلماً متقدماً بالسن، كما كان واحداً من الذين كانوا عقلاء في سبيل الدنيا، وجعل بيبرس هذا أقطاي يعرف كيف مات السلطان على الطريق، وأنه لايعرف أحداً بين المسلمين أعقل منه وأكثر جدارة وفضلاً، ولذلك ينبغي أن يتولى السلطنة، وبناء عليه سحب سيفه وأراد أن يضعه بيده، وفق طريقة التنصيب عند المسلمين، ولكن الأتابك كان عاقلاً، فلم يرغب بأخذ السيف، وقال بأنه سوف يكون من الأفضل منح السلطنة إليه، وهذا خير من منحها إلى أي شخص آخر يعرفه في الدنيا كلها، لأنه امتلك شجاعة عظيمة لانظير لها وقوة وقدرة، ورد عليه بيبرس قائلاً: «بما أنه يبدو بالنسبة إليك أنني صالح لأن أكون سلطاناً، وحيث أنك عملت سلطاناً آخر يدعى [الملك المظفر، وعندما صار بيبرس سلطاناً اتخذ لنفسه اسم] الملك الظاهر، الذي تعني ترجمته» الملك المرئي» (فقد كان لدى السلاطين عادة دعوة أنفسهم بالاسم الذي يرغبون به بدلاً عن اسمهم الأصيل).

وهكذا عمل سلطاناً، وتدبر إعلان ذلك خلال جميع أرجاء البلاد، وتقاطر جميع أفراد الجيش الإسلامي، واحتشدوا أميراً بعد أمير، ثم وصلوا إلى السلطان الجديد لتأدية قسم الولاء له، وإظهار الاحترام له.

٣١٢- وفي عام ١٢٦١ لتجسيد يسوع المسيح، مات البابا الاسكندر الرابع، وجرى انتخاب البابا أوربان الرابع، الذي كان البطريرك في القدس، بعده، وألغى هذا البابا منحة البابا الاسكندر لدير القديس لعازر في بيت عنيا، وجبل الطور لمشفى القديس يوحنا.

٣١٣- وماتت في العام نفسه الملكة باليسانس، وقد كانت زوجة هنري ملك قبرص، وأم هيو وريث عرش قبرص، وقد انتقلت وماتت في اليوم السابع والعشرين من أيلول.

٣١٤— وعمل في هذا العام نفسه هيوج أوف لوزنغنان نائباً لـ[illegible] قبرص، وهو كان ابن هنري ابن الأمير[بوهيموند الرابع] والسيد[illegible] إيزابيلا، أخت الملك هنري ملك قبرص.

٣١٥— وحدث في العام نفسه، في الخامس والعشرين من تموز أ[illegible] تمكن الإغريق من انتزاع القسطنطينية من اللاتين، وجعل باليولوغوس نفسه امبراطوراً، متخذاً لنفسه اسم قسطنطين(١).

٣١٦— وفي عام ١٢٦٢ للتجسيد، قام بيبرس سلطان مصر، الذي اتخذ اسم الملك الظاهر، بالذهاب لحصار أنطاكية، لكن ملك أرمينيا الذي كان في زيارة للتتار، قام بتحريضهم للقدوم لمساعدة أنطاكية، فرفع المسلمون الحصار عن أنطاكية، وذهبوا عائدين إلى مصر.

٣١٧— وفي العام نفسه، أي العام ١٢٦٢ لتجسيد المسيح، حاصر شارل كونت أوف آنجو، وأخو ملك فرنسا، مرسيليا، واستسلم الذين كانوا في داخل المدينة لجبروته، وأصبح هو سيد المدينة، وعين واحداً لإقامة العدالة في البلاد باسمه.

٣١٨— وفي العام ١٢٦٣ لتجسيد المسيح، أرسل بيبرس، الذي كان هو السلطان الجديد، رسلاً إلى الصليبيين في عكا، قائلاً بأنه رغب بمبادلة الأسرى الصليبيين الذين لديه بالأسرى المسلمين الذين عند الصليبيين، شرط أن يكون اثنين من المسلمين مقابل واحد من الصليبيين.

وعقد الصليبيون اجتماعاً تشاورياً حول هذه القضية، وبدا الأمر بالنسبة إليهم جيداً، وترتيباً مفيداً، لكن الداوية والاسبتارية رفضوا الموافقة على ذلك، قائلين بأن أسراهم قد جلبوا لهم مرابح كبيرة، بما أنهم جميعاً حرفيين، وستكون النفقات عالية جداً لاستئجار رجال

(١)— كذا وهو وهم، حيث أنه الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوغوس، امبراطور نيقية من ١٢٥٨ إلى ١٢٦١، ثم امبراطور بيزنطة من ١٢٦١ حتى ١٢٨٢.

تحرير غير آخرين، ولذلك لم يرغبوا بالموافقة على هذا، ومع أن ما قالوه كان صحيحاً، لكن توجب عليهم عمل ذلك التبادل، من أجل الرب، ولتحرير الأسرى الصليبيين الفقراء.

٣١٩— وعمل كونت يافا جون أوف إيلين، مبادلة لأسراه مع السلطان، وعقد السلطان هدنة معه، وترك أرضه بسلام وهدوء، لكنه بات مغضباً كثيراً للصليبيين الآخرين بسبب هذه الاتفاقية، وجعل هذا واضحاً تماماً بعد ذلك بوقت قصير، لأنه وصل إلى خارج عكا في الثالث عشر من نيسان من العام نفسه

٣٢٠— وفي اليوم الخامس عشر من نيسان زحف حتى أبواب مدينة عكا، وبذلك باتت المدينة في خطر عظيم، وهنا أصيب نائب عكا السير غيوفري أوف سيرين بجراحة بوساطة نشابات، وذلك مثلما حدث لعدد آخر من الفرسان والسيرجاندية، وجرى قتل عدد آخر مباشرة.

وفي العام نفسه وصلت إلى عكا إيزابيلا زوجة هنري صاحب الإمارة، وأخت الملك هنري الأول السابق، ملك قبرص، وطالب زوجها بمنصب نائب مملكة القدس، وبولاية شعب المملكة، ولم يرغبوا بإعطائه ذلك، لأن الوريث الشرعي لم يكن حاضراً، ومع ذلك قبلوه بمثابة نائب.

ووصل إلى عكا في العام نفسه، في الخامس والعشرين من أيلول، وليم، النائب البابوي، وبطريرك القدس، ومدير أسقفية عكا، وهو الذي كان أسقف أغين Agen ، وعاد إلى روما النائب البابوي توماس أوف لينتيو Lentino.

والآن سأدع الحديث إليكم حول هذه الأشياء، وسوف أخبركم حول مسألة أخرى.

٣٢١—في عام ١٢٦٤ للمسيح، قام الجنويون في جنوى بتسليح

واحد وعشرين غليوناً، مع ملاحين جمعوا من أهل المدينة، ومن على طول الساحل، وعبئوا كادميرال وقبطان رجلاً عظيماً من جنوى، اسمه السير سيمون غريلو Grilo ، وقد كان عاقلاً، وصاحب معرفة، وبارعاً كثيراً في الحرب، وعندما غادرت هذه القوة جنوى، قبل بأن الذين كانوا من الفئة المعارضة. قاموا - مع أنهم كانوا جنويين - بإعلام البنادقة حول الغلايين، وأخبروهم عن الحد التي خرج بها جنويون وذهبوا، ولذلك سلح البنادقة على الفور خمسين غليوناً، من أجل السعي خلف الغلايين الجنويين، لكن أنا سوف أخبركم عن الخطة التي استخدمها سيمون غريلو هذا أثناء رحلته.

٣٢٢—لقد غادر جنوى مع غلاياته الواحد والعشرين، ووصل إلى صقلية. ونشرهم هناك وكأنه ذاهب إلى صور في سورية، حتى أن بعض التجار الجنويين دفعوا إلى الاعتقاد أنه ذاهب إلى سورية، لكن الذي عزم عليه، لم يخبر به أحداً، وقد غادر صقلية ووصل إلى فم الخليج عند النهاية الجنوبية لبحر الأدرياتيكي]، وهناك أخبر جميع الرجال الذين كانوا على ظهر السفن الكبيرة التي كانت هنالك، بأنه ذاهب إلى صور، ثم إنه بعدما أعلن بصوت مرتفع في كل مكان بأنه ذاهب إلى صور، استدار ومضى حتى رسا في جزيرة مالطا، وترك سفينة كبيرة متخفية عند فم خليج البندقية، للمحافظة على المراقبة

وعندما كان في مالطا، قام البنادقة الذين سلحوا خمسين غليوناً- كما أخبرتكم- وأبحروا إلى خارج خليجهم، فوجدوا هذه السفن الكبيرة التي واجهتها الغلايين الجنوية، وقد أخبرهم هؤلاء، بأن الجنويين قد ذهبوا إلى صور، وبناء على هذا التأكيد، أرسلت غلايين البنادقة سفينة كبيرة إلى البندقية، لإخبار رجال قافلة التجار، بأنهم ينبغي أن يقلعوا برحلتهم، طالما بات مؤكداً بأن الغلايين الجنوية قد ذهبت إلى صور، وأنهم هم ذاهبون خلفهم، وعندما تسلم التجار هذه الأخبار، أقلعوا

بقافلتهم من البندقية، وبدأوا رحلتهم، ومضت غلايين البنادقة الخمسين مباشرة نحو صور.

لكن دعوني أعود للحديث حول سيمون غريلو والغلايين الجنوية عند مالطا، فعندما شاهدت السفينة الكبيرة التي تركها للمراقبة، البنادقة يمضون إلى خارج الخليج، وصلت إلى مالطا وأخبرت سيمون غريلو، فغادر على الفور ذلك المكان، ودخل إلى خليج البندقية، وفي صباح جيل وصل وأسطوله إلى مواجهة قافلة تجار البنادقة، التي تألفت من اثنتين وعشرين بارجة كبيرة، وسفينة شراعية كبيرة اسمها Roccafortis.

وما أن رآهم البنادقة حتى أدركوا أنهم خدعوا، وتجمعوا كلهم على السفينة الشراعية الكبيرة Roccafortis ، ولقد تجمعوا هم أنفسهم مع أكثر سلعهم قيمة، وعند هذا استولى الجنويون على جميع بوارجهم، ونهبوهم من كل شيء رغبوا به، ثم أشعلوا النار في جميع البوارج، وحاولوا دفع إحدى البوارج المشتعلة نحو السفينة الشراعية Roccafortis ، ولكن الريح كانت قوية فأقلعت السفينة الشراعية، وذهبت عائدة إلى البندقية.

وعاد سيمون غريلو إلى جنوى، وهناك- مع أنه أفلح- تعرض للمحاكمة، لأنه لم يذهب إلى سورية، حسبما أمر أن يفعل.

وسأدع الآن الحديث عن سيمون غريلو، وسوف أخبركم حول الخمسين غليون بندقي، الذين ذهبوا خلف سيمون غريلو، كما سمعتم.

وفي صباح جيل، عند فجر اليوم، وصلوا إلى صور، وظهروا فجأة أمام المدينة، وكادوا أن يستولوا عليها(لولا أنهم منعوا) لأن معظم رجال صور كانوا ما يزالون نائمين، ومع ذلك خرج رجال صور، وسلحوا أنفسهم.

وامتلك الجنويون الذين كانوا في صور قنصلاً اسمه ميليان أوف

ـــاربنو Melian of marino ، كان قاهماً للحرب، وقد أقام بناء جيداً، وأخذ البنادقة بعض أكبر بوارجهم الواسعة، وعملوا من قطع من عوارض الشراع جسراً، بربطها ببعضها إحداهما بالأخرى، وعلوا عند النقطة العليا من الجسر قمة مستديرة للقتال مغطاة بالجلود مثل عش الغراب، ووضعوا رجالاً في الداخل، ونصبوا العوارض نحو الأعلى، ثم وصلت الغلايين إلى جوار سور المدينة، إلى مكان ما بين برج السلسلة وبرج القديسة كاترين، وجلبوا هذه القمة القتالية الشدة معهم، وبذلك صار الرجال الذين كانوا في داخلها فوق السور، حتى تمكنوا من رمي الحراب والحجارة على الرجال الذين كانوا على السور، وبذلك ما من أحد تجرأ بالبقاء على السـور في ذلك المكان، ووضعوا المدافعين في خطر عظيم.

وصدف أن كان القنصل الجنوي، السير ميليان ماربنو في ذلك الآن نفسه، ورماه رجل كان في القمة المقاتلة بحربة فأصابة في الرأس، فطر الخوذة البيزية، ولولا أنه كان مرتدياً طاقية من اللباد، لكان قد ... وشاهد كثير من الناس هذه الضربة.

وعند هذا أخذ القنصل والجنويون صواري من الغلايين ومن البن الكبيرة، وربطوهم مع بعضهم على السـور، وعملوا قمة قتالية مثل القمة البندقية المغطاة بالجلود التي مثل عش الغراب، ورفعوها بق الصواري، وصارت هذه القمة أعلى من قمة البنادقة، لذلك لم رجال البنادقة داخل قمتهم يتجرأون على إظهار أنفسهم لا في القتـ ولا في الرمي، فتركوا السور، وعادوا إلى غلايينهم.

ووصلت سبعة غـلايين من غـلايين البنادقة الأخـرى من ... ولذلك أرسل صاحب صور سيرجاندية، ورماة مسلمين وفلاحين المنطقة المحيطة بصور، وجاء بعض الناس حتى مع أصدقائه من ... لمساعدته، ولذلك غادر البنادقة، وذهبوا إلى عكا، وهناك ...

بالحقيقة حول كيف استولت الغلايين الجنوية تحت قيادة سيمون غريلو على قافلة تجار البنادقة.

٣٢٣— مات في العام نفسه البابا أوربان الرابع، وعمل المعلم غي ..، وكان هو الذي كان أسقف سابينا Sabina، ورئيس أساقفة نربونة، وقد اتخذ لنفسه اسم كليمنت الرابع.

٣٢٤—وفي هذا العام، الذي هو عام ١٢٦٤ للمسيح مات جون أوف إيبلين صاحب بيروت، وترك من بعده ابنين، ومات في عكا هيوج وريث قيسارية.

٣٢٥—وفي هذا العام، حارب ملك قشتالة المسلمين أصحاب غرناطة بين قرطبة وأشبيلية، وقتل أربعة آلاف فارس من دون إحصاء الرجالة الذين كانوا كثيرين.

٣٢٦— وفي هذا العام نفسه، مات في الأرض المقدسة في عكا السير أولفر أوف تيرمس Termes ، وقد كان رجلاً عظيماً من أسبانيا، شجاعاً وبارعاً باستخدام السلاح.

٣٢٧—في هذا العام عمل البابا شارل، كونت أنجو وبروفانس، وأخو الملك لويس التاسع ملك فرنسا، رئيساً للكنيسة(١).

٣٢٨— في العام ١٢٦٥ قدم سلطان مصر بيبرس، الذي اتخذ لنفسه اسم الملك الظاهر، من القاهرة واستولى على قيسارية وأرسوف، وذلك في اليوم السابع من آذار، ثم حاصر قلعة أرسوف، التي كانت ملكاً لمشفى قديس يوحنا بحق الشراء، ذلك أنهم اشتروها من صاحبها السالف الس باليان أوف إيبلين، وكانت القلعة مزودة بشكل جيد بالجنود وبأشياء أخرى، ولكن السلطان استولى عليها بالقوة بوساطة آلات

١- حقيقة عمله رئيساً لروما في ١٢—أيلول ١٢٦٨.

الحصار والنقب، واستمر الحصار من اليوم الخامس عشر لآذار حتى اليوم الأخير من نيسان عندما استولى على المدينة. وأخذ من داخلها أكثر من ألف فارس ديني وعلماني وسيرجاندي مسلح، وشوهدت علامة واضحة في عكا، مثل سيف بطول رمح وعرض كف. جاءت من الشرق، وبدت وهي تضرب برج كنيسة الصليب المقدس في عكا، ووصل هيوج أوف لوزنغنان، الذي كان النائب في قبرص، لمساعدة عكا، جالباً معه مضرلاً جيداً من الغلايين والمراكب الأخرى، ومائة وثلاثين فارساً وسيرجندياً، وعدداً كبيراً من التابعين الخيالة.

لكنني سأدع الآن الحديث إليكم حول هذا، ولسوف أخبركم حول شيء وقع فيما وراء البحار.

٣٢٩- في هذا العام نفسه -١٢٦٥- حدث أن رجلاً كبيراً اسمه سيمون دي مونتفورت، وكان في انكلترا، وكان أيضاً قد اتخذ أخت ملك انكلترا زوجة له (منها حصل على عدد من الأبناء)، كما كان إيرل غلوستر، حدث أن نشبت بينه وبين ملك انكلترا حرباً كبيرة، حسبما سأصف الآن لكم.

٣٣٠- والذي حدث هو أن ملك انكلترا هذا، لم يبق لديه شيئاً لم يعطه ويتنازل عنه، فغالباً ما جاء إليه أناس أجانب من مختلف الأقطار، حيث استقبلهم واحتفى بهم ومنحهم كل شيء، ومع أنه كان يستطيع أن يفعل هذه الأشياء كلها كصاحب سيادة، كان معظم فرسان انكلترا غاضبين كثيراً تجاه ذلك، وقد بحثوا الأمر فيما بينهم أنفسهم، وقدموا في النهاية إلى الملك وأخبروه بلطف أن عليه التوقف عن استقبال أناس أجانب في البلاد.

وبسبب أنهم عملوا مطالبهم بطريقة ودودة، ولأنهم أظهروا كثيراً من الحجج أن هذا سيكون نافعاً لهم ومفيداً للبلاد، وافق الملك على التماساتهم، ووعد بحضورهم جميعاً، أنه سوف يتوقف عن إعطاء إقطاع أو أرض إلى أي واحد في الدنيا، إلا بموافقة رجاله، وبعث خلف الإيرل سيمون دي مونتفورت، وأراده أن يكون رئيس رجاله في هذا الشأن، لكن سيمون عمل اعتذارات كثيرة، ولم يرغب بأخذ هذا الدور، ولم يشجع الملك كثيراً إلى أن أرغمه الملك على الموافقة على ذلك، وأقسم على الأناجيل، وقال سيمون بأنه سوف يحافظ على قسمه بشكل جيد، بما أن الملك جعله يقسم، لأنه لايستطيع التصرف ضد قسمه.

وبقيت الأمور على هذه الصورة لوقت طويل، وبالتدريج أخفق الملك في الحفاظ على وعوده لرجاله، وبناء عليه سأل الفرسان الإيرل سيمون دي مونتفورت أن يكون قائدهم في هذه الأزمة، تماشياً مع

اليمين الذي أداه، ومن أجل أن يكون صادقاً في يمينه، وذهب الإ
سيمون إلى مساعدة فرسان انكلترا.

وعندما حصل ملك انكلترا على خبر عن هذا، اجتمع للتشاور
أخيه الإيرل رتشارد (الذي كان يدعى باسم ملك ألمانيا)، ومع
الذي كان اسمه إدوارد (والذي قد نما الآن ليصير فارساً جيداً وكبير
وذلك من أجل اعتقال إيرل مونتفورت وبعض الإيرلات الآخر
والإقطاعيين المهمين، ووقتها سوف يأتي واحد آخر لتسلم القيادة، إ
قبل أن يضعوا خطتهم موضع التنفيذ، غادر الإيرل سيمون
مونتفورت مع الآخرين، وتركوا المدينة حيث كان الملك موجو
وحشدوا قوة ضده.

وعندما رآهم الملك زاحفين ضده، خرج لمواجهتهم مع عدد
من الرجال استطاع أن يحشدهم، لكن كان هناك عدداً أكبر بكثير
الرجال إلى جانب الإيرل، ولم تستغرق المعركة وقتاً طويلاً، وفي ال
انهزم الملك مع مؤيديه، وهناك مات عدد كبير من على الجانبين، و
الملك مع ابنه اللورد إدوارد في الأسر، وكـــــذلك أخي الم
رتشارد (الذي كان يدعى باسم ملك ألمانيا)، وبعض الفرسان الآخر
ونجا كثيرون من المعركة، واستحوذوا على قلاع الملك وحص
واحتفظوا بهم.

٣٣١— وهكذا بات ملك انكلترا وابنه اللورد إدوارد في
الإيرل سيمون دي مونتفورت أوف غلوستر، ولأنهما كانا قريبين
إلى الكونتسة، زوجة إيرل سيمون، فقد وسع عليهما في السجن
بوضعا تحت شروط قاسية، وذهب اللورد إدوارد الذي كان فارساً
للركوب كل يوم مع الإيرل، وعندما رأى أن الإيرل قد وثق به،
للحصول على حصان سريع وقوي متماسك، والذي حصل له ع
أهداه إياه، ومـا أن استحوذ على هذا الحصان، وركبه فتبرهنت

حضارته، حتى أمر رجاله—الفرسان من حزبه— بالقدوم إلى مكان
محدد قريب من القلعة حيث كان، وكان عليهم لدى الوصول إلى
هناك، إعلامه على الفور مسلحين، وممتطين بشكل جيد على خيولهم،
لكنهم كانوا من دون أية حاشية، وقد أمضوا الليل في ذلك المكان،
وكانوا على الفور قد أعلموا اللورد إدوارد بوجودهم هناك، بوساطة
خادم، وشارات مرتبة من قبل.

٣٣٢—وعند الفجر ركب الإيرل سيمون دي مونتفورت خارجاً
كما هو معتاد، وركب اللورد إدوارد على حصانه هذا، وكان معه، وبدأ
يعدو مسرعاً مبتعداً نحو اليمين ونحو اليسار، وكان في كل مرة يذهب
بعيداً عن الطريق المأخوذ من قبل الإيرل، وعندما بات على مسافة
جيدة، أقلع بسرعة قائلاً: «وداعاً، يا إيرل أوف مونتفورت» ومضى
نحو المكان الذي كان فيه الفرسان كامنين بالانتظار، وانطلقوا على الفور
ينشدوه، وذهب الإيرل ورجاله خلفه، لكن لم يتمكنوا من اللحاق به،
وعندما شاهدوا الفرسان ينبعثون من الكمين، أداروا ظهورهم عائدين،
وأخذ الفرسان اللورد إدوارد بعيداً، وبذلك صار حراً كما سمعتم.

٣٣٣—وحشد اللورد إدوارد قدر ما استطاع من الرجال، من كل
من الخيالة والرجالة، وزحف ضد سيمون دي مونتفورت، وعندما صار
قريباً، أرسل أمامه عدداً قليلاً من الرجال على ظهور الخيول، يحملون
أعلاماً مع رنوك دي مونتفورت

٣٣٤—وأخبر الإيرل سيمون ولديه، اللذان كانا في قلعة أخرى،
كيف هرب اللورد إدوارد من سجنه، وكيف كان يحشد كثيراً من
الرجال ليزحف ضده، وأمرهما بالقدوم لمساعدته، ولهذا السبب عندما
رأى الإيرل سيمون اقتراب رجال اللورد إدوارد، وهم يحملون أعلام
دي مونتفورت خرج لاستضافتهم، ومع أنه كان هو ورجاله مسلحين، لم
يكونوا منظمين، لأنهم لم يتخذوا تحذيراً ضد هذه الخدعة، ولو أنه خرج

في تعبئة عسكرية، لم تسر الأمور بصورة سيئة بالنسبة له، لأنه كان فارساً جيداً، جريئاً وشجاعاً، ولكن الذي حدث أنه عندما كان بالخارج، مع جزء فقط من قوته، وجد نفسه قد خدع- كما سمعتم- لأن رجال إدوارد الذين كانوا يسيرون في الطليعة، ألقوا أعلام دي مونتفورت على الأرض، ورفعوا رايات اللورد إدوارد، وهاجم إيرل سيمون دي مونتفورت ورجاله، والتحم القتال، وجاء بعد ذلك إدوارد، واندفع إلى وسط الصفوف، وكانت المعركة حادة جداً، وقتل عدد كبير من الرجال من على الطرفين، وفي الأخير حلت الهزيمة بكل من الإيرل سيمون ورجاله، وأخذ الإيرل أسيراً وهو حي.

وما أن خرج اللورد إدوارد من القتال حتى طلب المشورة من ابن عمته، الذي كان اسمه هنري أوف ألين Almain ، والذي كان ابن خال ولدي الإيرل سيمون، حيث كان الأولاد أبناء أختين(١)، ونصحه اللورد هنري، أنه إذا أراد السلام ونهاية الحرب، عليه أن يقطع رأس سيمون وأن يقول بأنه قتل في المعركة، لأن الإنسان لا يريد أن يحمل عار قتله بعدما أسره، وبناء على قام اللورد إدوارد في تلك الليلة بقطع رأس الإيرل سيمون دي مونتفورت، وذلك تنفيذاً لنصيحة اللورد هنري أوف ألين وبعدما قطعه رماه في الميدان بين أجساد الموتى الآخرين، وعليك أن تعرف أنه قتل في المعركة كثير من الفرسان، مع رجال آخرين كان بعضهم إيرلات وبارونات، ولذلك ضعفت البلاد كثيراً في المحصلات.

٣٣٥— وبعد هذه المعركة المميتة جرى تدمير جميع ممتلكات الإيرل سيمون دي مونتفورت وكذلك ما عاد لحزبه، وجردوا من كل أملاكهم وأطلقوا سراح ملك انكلترا، وأخيه ملك ألمانيا، مع الآخرين الذين كانوا في السجن.

١— كان هنري أوف ألين ابن الإيرل رتشارد أوف كورنوول Cornwall، أخو الملك هنري الثالث، وأبناء عمته كانا ابني سيمون وزوجته اليانور، أخت هنري ورتشارد.

٣٣٦—وعندما كان الملك في سالسبري اعتقل خصومه، فقتل بعضهم، واحتفظ بآخرين في السجن حيث ماتوا من الجوع، والمرض، أو من الأوضاع القاسية.

٣٣٧—والآن سوف أخبركم بالذي حدث بعد هذه الحرب، فقد وصل الرجل الكبير اللورد هنري أوف ألمين إلى بلدة اسمها فيتربو Viterbo ، وهو على طريقه إلى روما حتى يعمل امبراطوراً لألمانيا، وهناك في كنيسة في فيتربو، عندما كان يسمع قداساً، وصل غي دي مونتفورت، ابن الإيرل سيمون دي مونتفورت، الذي حدثتكم عنه، إلى فيتربو، ودخل إلى الكنيسة، وطعن هنري أوف ألمين، فخرق جسده مباشرة بخنجر، انتقاماً لأن هنري هو الذي نصح بإعدام أبيه، كما سمعتم، ثم غادر، وذهب إلى توسكاني Tuscany.

٣٣٨—وكان غي دي مونتفورت هذا متزوجاً من ابنة الكونت روسو Rosso [ألدو براندينى Aldobrandini] أوف توسكاني، وكان قد جلب معه خمسين من فرسان سيده مع خيالة آخرين لتنفيذ هذه الفعلة، وحرمه البابا كنسياً لبعض الوقت، ثم جرى تحليله، وعليك أن تعرف أن هنري أوف ألمين كان ابن خالته الأول، فقد كانا ابنا أختين، كما أخبرتكم من قبل(١)، ولكن الآن سوف أتوقف عن إخباركم حول هذا، وأخبركم حول حادثة أخرى.

٣٣٩—وحدث في العام المذكور، أي عام ١٢٦٥ لتجسد المسيح، أن رجلاً مقدماً من مراتب كبار بارونات فرنسا، هو كونت نافار Nevers ، وصل إلى الأرض المقدسة، في سورية لخدمة الرب، ووصل معه كونت نانتويل Nanteuil والسير آلارت أوف فاليري Alart of valery وستيفن فارساً فرنسياً، ولقد قضت إرادة مولانا بوجوب وفاة هذا الإنسان الجليل، كونت نافار، في عكاء، واشترطت وصيته بوجوب إعطاء

---

(١)- مرة أخرى، لم يكونا.

كل شيء وجد عائداً إليه، سواء أكان مالاً أو تجهيزات، إلى الفقراء، وبناء في سبيل الرب، ذلك أنه عرف بأن الرب عمل معجزات من أجله، لأن أية أشخاص مرضى لمسوا تراثه كانوا يشفون على الفور من أمراضهم.

والآن سوف أدع الحديث إليكم حول هـذا، لأخبركم حول حادثة أخرى عظيمة حدثت في هذا العام، عام ١٢٦٥ للمسيح.

٣٤٠— وصل إلى روما شارل كونت أوف أنجو، وبروفانس، أخو الملك لويس التاسع ملك فرنسا (الذي استولى على دمياط) جالباً معه ألف من الفرسان الفرنسيين، وقد أعطي تاج مملكة صقلية، بناء على أوامر البابا كليمنت الرابع، وذهب بعد هـذا خلف مانفرد، الذي كان كونت صقلية، والـذي كنت قد أخبرتكم عنه من قبل، بأنه كـان ابن الامبراطور فردريك الثاني، وأنه كـان قد ولد قبل زواج أبيه من أمه (الذي حدث عندما كانت على باب الموت، وذلك من أجل منحه الشرعية).

٣٤١— عندما سمع مانفرد بأن شارل قد جرى تتويجه على مملكة، وأنه كـان قادماً ضده، حصل على مـا يكفي من الرجـال، إما بوساطة المال، أو من خلال الصداقة، حتى يحشد قوة كبيرة من الخيالة والرجالة وقد تجمع حوله بشكل خاص المسلمون من المنصورة Lucera، وقد اعتمد كلياً على قوته، ولم تكن لـديه رغبة بمصالحة نفسه مع الكنيسة، مع نتيجة أنه ذهب إلى القتال وهو محروم كنسياً، وبمثابة متمرد ضد الكنيسة.

وعليكم أن تعرفـوا أن الناس الذين يمارسـون الكهـانة والتنجيم والذين عاد إليهم، أخبروه أنهم وجدوا في هواتفهم وكهاناتهم، أنه ينبغي أن يمـوت في القتـال على ميدان الورود، ولسبب الخوف هذا تجنب القتـال مع الملك شـارل كلما استطاع، ولهذا السبب تجنبه إلى أن لم يعد قـادراً على أن يفعل ذلك، فقـد دخل الملك شـارل إلى أراضيه، وتحر-

مانفرد مبتعداً عنه بعض المسافة أمامه. والذي حدث أن الملك شارل أخذ عدة خيارات حول ما سيقدم عليه، وتحرك ضد مانفرد عبر طريق آخر، ولم يعرف مانفرد شيئاً حول هذه الحركة. وأمضى النهار بطوله ظاناً بأن الملك شارل كان خلفه.

ولكن في الصباح، عند إشراق الشمس، توقف الجيشان وباتا أمام بعضهم بعضاً. وعندما رأى مانفرد هذا لم يرغب بالانسحاب، خشية اعتراض قواته وضربها على الطريق، وهكذا توقف مانفرد هناك، وسأل عن اسم المكان، فأخبروه بأن اسمه كان القديس غيرمين لي أغويلير Germain Laguilier . وسأل عن الميدان الذي كانت فيه قواته. فقالوا بأن اسمه كان «ميدان الورود»، فانزعج مانفرد كثيراً لدى سماعه هذا، وبات خائفاً من النبوءة. ومع ذلك رفع شجاعته، وشد من عزيمته، واستعد للقتال.

وأعد الملك شارل رجاله المسلحين، وباتوا مستعدين للدخول في القتال، وأمر بإنشاد قداس، ثم تحرك للقتال ضد مانفرد. ودخل مانفرد إلى القتال وهو محروم كنسياً، وكان هذا أمراً خطيراً لإقدام عليه، ولهذا السبب أخفقت جهوده.

وكان لدى الملك شارل ألف من النخبة، من الفرسان الفرنسيين المدربين والجيدي النظام، وكان لديه سيرجاندية خيالة وتابعين وقوات بطانة، وقوات رديفة أخرى، وصل تعدادهم إلى ما لايقل عن ألف، وكان لديه أعداداً كبيرة جداً من السيرجاندية الرجالة. وكان مع مانفرد جميع قواته هناك، خمسة آلاف خيال أو أكثر، وأعداد كبيرة جداً من الرجالة، وبذلك بدأ القتال بشروط متساوية للطرفين، وكانت هناك ضربات شديدة، ومنازلات يداً بيد من على جميع الجهات، وكان من غير الممكن أن تخبر هناك، من الذي سوف ترجح كفته.

ثم حدث أن مانفرد كان متخذاً موقعاً على جانب تلة مع أربعين فارساً من حوله، وبالصدفة أصاب سهم مربع الرأس من قوس عقار، أصاب يد الرجل الذي كان يحمل راية مانفرد أمامه، وجرحت الشابة يده، وسقطت الراية على الأرض، وظهر الأمر للفرنسيين أنه قد أصيب من قبل رجاله، فصرخوا بصوت مرتفع: إلى الأمام، إلى الأمام، اليوم هو يومنا، واندفع الملك شارل والقسم الأفضل من قوته، نحو الأمام، وبذلك غدا مانفرد غير قادر على الثبات أمامهم، ووقعت قواته باضطراب، منه كانوا غير قادرين على التعافي.

٣٤٢— وقتل في هذه المعركة كثير من الرجال (حوالي الألف من الخيالة والرجالة)، ووجدوا الملك مانفرد ميتاً، ولذلك استسلم جميع رجال صقلية، وإمارة أبوليا وكالبريا إلى الملك شارل(١).

٣٤٣— وأسر الملك شارل زوجة الملك مانفرد، وأولاده وابنته غير المتزوجة، احتفظ بهم في السجن في إحدى القلاع.

٣٤٤— وكان للملك مانفرد ابنة أخرى تدعى كونستانس، قد تزوجت من الملك بطرس ملك أراغون، وكان لها ابنان يدعى جيمس، وهو الذي صار ملك أراغون فيما بعد، وولد آخر يدعى فريدريك، عنه سوف أتحدث إليكم فيما بعد، عندما يحين الوقت.

٣٤٥— مع عام ١٢٦٦ للمسيح، كان بيبرس هو السلطان ليس فقط لمصر، بل لجميع المسلمين، لأنه في أيامه لم يكن هنالك سلطان آخر غيره في أي بلد من بلاد المسلمين، وكاد جميع العالم غير المسيحي تحت سلطانه.

٣٤٦— ووصل السلطان إلى خارج عكا، حيث مكث ثمانية أيام من حزيران، ثم ذهب إلى صفد، وكانت صفد قلعة الداوية، وكانت تقع

---

(١) — [illegible]

جميلة وحصينة جداً، قائمة في الجبال على بعد سفر يوم من عكا)، وقد أرسل إلى الرجال الذين كانوا في القلعة هدية، حسب عادة المسلمين، غير أن الرجال الذين كانوا في القلعة استخدموا المجانيق لرمي الهدايا وإعادتها، وهذا جعل السلطان غاضباً كثيراً، فأعد على الفور آلات حصار، وقد هاجموا القلعة، وقام بعدة حملات عليها خلال العشرين من تموز، وذلك عندما استولى عليها، ولسوف أخبركم كيف استولى عليها.

٣٤٧— عندما استولى رجال السلطان على التحصينات الأولى للقلعة، عانوا من إصابات ثقيلة، لأن الذين كانوا في الداخل كانوا جنوداً جيدين: فرساناً وسيرجاندية، وخشي السلطان من أنه لن يكون قادراً على الاستيلاء عليها بالقوة من دون فقدانه لعدد كبير من رجاله، فأوقف الهجوم، وأمر بالمناداة بصوت مرتفع والإعلان: أنه يمكن لجميع السريان(من سيرجاندية ورماة) الخروج من القلعة بأمان منه، وقد فعل هذا لإظهار عدم اتفاق بين الفرنجة والسريان، لأن الفرنجة سوف يتهمون السريان بأنهم خونة، وبذلك سوف يكون هناك صراع فيما بينهم.

ثم هاجمهم السلطان بشدة، ولأن الذين كانوا في الداخل قد فقدوا خطوط الدفاع الأولى ضعفوا ضعفاً شديداً، وكانوا على خلاف شديد فيما بينهم، ولم يكن بإمكانهم تلقي أي عون من أي مكان، لأن القلعة كانت محاطة من قبل المسلمين من جميع الجهات، ولذلك نادوا إلى المسلمين بإيقاف القتال، لأنهم يريدون إرسال رسول إليهم، وجرى إعلام السلطان بهذا، فعلق الهجوم، وعقد الذين كانوا في القلعة اجتماعاً وقرروا أن يرسلوا سرجاندي داوي راهب إلى السلطان، كان اسمه الراهب ليوكاسالير Leo casalier ، المسؤول عن إدارة إقطاعية صفد، وكان بارعاً في التحدث بلغة المسلمين، وقد كلفوه بطلب الأمان لنفسه إلى الفرنجة، أي مثل الأمان الذي منحه السلطان إلى السريان، من خلال الإعلان الذي نودي به.

وذهب ليو هذا، ووصل إلى السلطان، وأعطاه الرسالة، وأعطاه جواباً جيداً بالعلن، لكنه تحدث بعد ذلك على انفراد مع الراهب ليو هذا، وأخبره بأنه كان غاضباً من الرجال الذين في القلعة، الذين رمَوا إليه معيدين هديته، وقتلوا عدداً كبيراً من رجاله، وأنه يرى إعدامهم جميعاً، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية هو عازم على تقدير الأمان على يد أمير كان يشبهه، ثم يجعلهم بعد ذلك طعمة لسيفه، وإنه إذا ما رغب ليو بالتعاون معه وتسهيل هذا العمل، فإن السلطان سوف يعطيه جميع الأشياء الممتازة، لكنه إذا رفض، فهو عندما سيستولي على القلعة، سوف يقتله، لكن بشكل شنيع خاص.

وعندما سمع الراهب ليو السلطان ارتعب رعباً شديداً، فوافق على أن يعمل كما رغب، وعاد إلى القلعة وأخبرهم بأن السلطان صدق على منح الأمان إلى كل واحد، وأن السلطان نفسه سوف يقسم لهم على مرأى منهم، فكان هناك سرور عارم بين الذين كانوا في القلعة على هذا.

وعندما حل الصباح التالي، أرسل السلطان الأمير الذي يشبهه، وجعله يذهب إلى أمام القلعة، مع جميع الأبهة العائدة إليه شخصياً، وعندما رآه الذين كانوا في القلعة، ظنوه أنه وهو السلطان، وشعروا بثقة تامة وكبيرة، لكنهم كانوا قد خدعوا وغدر بهم.

وأقسم الأمير على منحهم أمان جيد ومضمون إلى أن يصلوا إلى عكا، وهكذا خرجوا من القلعة مع تجهيزاتهم محملة على البغال، وكانوا جاهزين للذهاب على الفور إلى عكا، ذلك أنه لم يكن هناك طريق من صفد إلى عكا يستغرق أقل من سفر يوم واحد، وأخبرهم السلطان أن عليهم الاستراحة تلك الليلة، وأنه في الصباح سوف يرسلهم إلى عكا، وقد أرغموا على فعل هذا.

وفي الصباح تدبر اعتقالهم جميعاً، واقتيدوا إلى مسافة ما عن صفد، إلى

رابية صغيرة على بعد حوالي نصف فرسخ، وهناك جرى إعدامهم بقطع رؤوسهم، ثم أمر بعمل جدار من حولهم، وعظامهم ورؤوسهم ما يزال بالإمكان رؤيتها، وقد قيل - وهذا أمر مؤكد- بأن نوراً من السماء قد أشع فوق أجسادهم مراراً كثيرة، وقد رأى هذا النور بعض المسلمين وبعض المسيحيين، وكان بينهم اثنان من الفرنسيسكان، اللذان أبقياهم ثابتين متمسكين بالإيمان، بالوعظ إليهم، الوعظ الذي كان مفيداً جداً لنفوسهم.

وبالنسبة للراهب ليو الكاسالير، الذي اقترف هذه الخيانة خوفاً من الموت، فقد ارتد وأصبح مسلماً.

والآن سوف أخبركم عن شيء آخر، فعله السلطان.

٣٤٨ـ عندما استولى السلطان على قلعة صفد، كما سمعتم الآن، غادر وذهب إلى مملكة أرمينيا، التي تمتلك مدخلاً ضيقاً جداً، ومحروساً حراسة جيدة، ومع ذلك شق طريقه بالقوة، وجال مدمراً خلال المنطقة كلها، ناهباً ومخرباً كثيراً من القرى، وآخذاً عامة الناس أسرى، وكان ملك أرمينيا غائباً، كان قد ذهب لزيارة التتار، وترك وراءه ابنيه، اللذان كان اسم الأول منهما طوروس، واسم الثاني ليون، وقتل السلطان طوروس، وأخذ ليون حياً، وأحضره معه عندما عاد إلى القاهرة، مع كثير من الناس العظماء والعاديين من رجال المملكة.

٣٤٩ـ عندما جاء شهر آب، قدم إلى عكا السير هيوج أوف لوزنغنان، نائب مملكة قبرص، جالباً معه جماعة جيدة من الجنود، الفرسان والآخرين، وبعدما وصل، قام هو والداوية، والاسبتارية، والألمان(فرسان التيوتون)، والفرسان الفرنسيون، مع عدد كبير من الخيالة والرجالة، قاموا بالخروج للإغارة نحو طبريا، وعلى طول طريقهم دمروا كثيراً من الأماكن المسلمة، ثم انتشر النفير في جميع أرجاء البلاد، ولذلك كمن أتراك صفد، وأتراك المناطق من حولها، لهم عند الرويس Caroublier

في سهل عكا، وقد انقضوا على طلائع قواتنا، الذين لنهمهم للنهب، كانوا على ما يقارب ثلاثة فراسخ أمام الآخرين، وضربوهم(يعني أن تقول: ضربوا الاسبتارية، والألمان، والفرسان الفرنسيين من مجموعة السير غيوفري أوف سيرين Sergines مع آخرين) ضربة شديدة، وقتلوا منهم خمسمائة رجل أو أكثر، من الرجالة والخيالة سواء، ونجا كثير منهم بالفرار، لكن فلاحي البلاد، الذين كانوا جميعاً من المسلمين، فاجأوهم عند الليل من دون حراسة، وهم سكارى، فقتلوهم من أجل دروعهم وملابسهم، وهذه كانت محصلة الغارة الصليبية.

وفي هذا العام، في شهر كانون الأول، مات رجل عظيم، يدعى اللورد جون أوف إيبلين، كونت يافا، وكنت قد تحدثت لكم عنه في مكان آخر من قبل.

٣٥٠— عندما حل عام ١٢٦٧ لتجسيد المسيح، وصل السلطان بيبرس، سلطان مصر، إلى خارج عكا، مع جيشه كله، في الثاني من أيار، حاملاً رايات من رايات الداوية والاسبتارية، وفاجأ عامة فقراء الناس في سهل عكا، الذين كانوا قد خرجوا للعمل في الحقول، وزحف نحو أبواب المدينة، وقتل أكثر من خمسمائة من عامة الناس، الذين كان قد أسرهم، وأخرج مصارين كل واحد منهم من أجسادهم، وسلخ فروات رؤوسهم حتى ما تحت آذانهم، وحملهم إلى صفد، حيث نظم الجماجم في خيط، وعلق الخيط حول برج صفد، وقد بقيت هذه الرؤوس هناك، طوال ما بقي الخيط دون انقطاع.

وعاد في اليوم التالي إلى صفد، وظهر في اليوم السادس عشر خارج عكا ثانية وجلب البوهان Buhohan(?) إلى جوار رابية كانوا يدعونها تورون Toron صلاح الدين، وبعث بأكثر من ثلاثة آلاف خيال نشرهم عبر سهل عكا، وعند ذلك خرج رجال عكا وهم مسلحين، وقرعوا الناقوس، حتى يقدم كل واحد.

وفي ذلك الحين كان في عكا لوردين كبيرين، وكانا أخوين، قدما إلى عكا، وكانا ولدين طبيعيين للملك جيمس الأسن، ملك أراغون، وقد ركبا خارج عكا، وكان الداوية والاسبتارية على تلة صغيرة مقابل عكا، على بعد قليل من مسافة رمية قوس عقار، عن الأسوار، وقد شاهدوا الثلاثة آلاف مسلم وقد انتشروا أمامها، والسلطان جالس في كمين أمام تورون صلاح الدين، كما أخبرتكم، ولم تكن لديهم أدنى إشارة، ولذلك أراد هذان السيدان، ولدا ملك أراغون، كما شرحت لكم، أن ينقضا على المسلمين، وضغطوا بعض الشيء على الداوية والاسبتارية، وتكلموا إليهم بتبجح كبير، لكن الفرسان الرهبان تجاهلوهما، لأنهم لو هزموا لضاعت المدينة، كما سأريكم خطوة خطوة.

٣٥١— أما والمسلمون وقد اصطفوا هكذا في الصباح الباكر، كما أخبرتكم، دعوني أخبركم عن سوء الحظ الذي ألم بالصليبيين، فقد كان معنا من بلاد ما وراء البحر رجل كبير من فرنسا اسمه السير روبرت كرسكوي Creseques ، وكان قد خرج في الليلة الماضية، هو والسير أولفر أوف تيرمي Termes مع فرسان آخرين وتوركبلية، من أجل مهاجمة بعض القرى التي كانت بأيدي المسلمين، ولقد كان هناك حوالي المائة وثلاثين فارساً من دون تعداد التابعين، وشنوا الغارة حول قلعة عرفت باسم مونت فورت Montfort [القرين] الألمان.

ففي اللحظة التي كان المسلمون فيها في السهل، والسلطان ناصباً للكمين، كما أخبرتكم، عاد السير روبرت كرسكوي، والسير أولفر أوف تيرمي من غارتهما، وأثناء عودتهما وقبيل وصولهما أثارا سحابة من الغبار، رآها المسلمون، فركبوا ضدهما، ووقفوا بين رجالنا الذين كانوا على التلة الصغيرة، وبين الذين كانوا واصلين، وعندما اقترب الفريقان من بعضهما بعضاً، عرفوا بعضهم البعض، وقال السير أولفر للسير روبرت: إن لدى المسلمين كثيراً من الرجال، وسيكون من الأفضل تجنب القتال، لأن السير

أولفر عرف تماماً، أنه من الممكن الوصول بسهولة إلى داخل مدينة عكا، عن طريق البساتين خارج باب الموباس Maupas.

لكن السير روبرت أجاب بأنه قدم من عبر البحر من أجل أن يموت في البلاد المقدسة، وأنه ذاهب إلى القتال مهما كانت النتيجة، وهكذا بعث واحداً من أبنائه الذين اصطحبهم السير روبرت معه، لأن الصبي كان طفلاً، بعثه مع السير أولفر، مع سبعة أو ثمانية آخرين، وأخذوا طريقاً خلال البساتين، ووصلوا إلى عكا.

وفي الوقت نفسه اقتربت الفئتان من بعضها بعضاً، وهكذا بات أمام السير روبرت فقط أن يحمل على المسلمين، الذين كان عددهم حوالي الثلاثة آلاف، ولم يتجرأ المسلمون على القيام بالحركة الأولى ضد رجالنا، مع أن عددهم كان حوالي المائتين فقط، ولم يتأخر السير روبرت، بل قام هو وجماعته بالحملة بأنفسهم على المسلمين، الذين فتحوا الطريق أمامهم، وقد عبروا من خلالهم، وأخذوا الطريق نحو عكا، وعندما كانوا آخذين طريقهم عائدين نحو عكا، جاء المسلمون من خلفهم، وهاجموا فارساً فرنسياً هو السير بلدوين أوف سينت جورج، أخي السير هنري أوف غوني Guines ، وقد قتلوا فرسه، وبناء عليه استدار السير روبرت وحمل على المسلمين.... عدداً، ودافعوا عن أنفسهم لمدة طويلة، إلى حد أن المسلمين كانوا غير قادرين على قهرهم، وهكذا صرخ أخيراً بعض المسلمين إلى الآخرين، بأنه يجب عليهم الرمي على"مخزن الشعير"، حيث قصدوا بذلك محاولة قتل الخيول، وقالوا هذا بصورة رمزية، لذلك لم يستطع أي من الفرنجة فهمها، وبناء عليه بدأ المسلمون جميعاً بالهجوم، وقتلوا الخيول، وبذلك انتهت المعركة بسرعة، لأنه عندما أصبح رجالنا على الأقدام، صاروا بمثابة قتلى، وفي النهاية سحق الذين كانوا على جانبنا، وقتل أكثر من أربعمائة منهم، وذلك إذا ما أحصيت التابعين بينهم(الذين وقع بعضهم بالأسر)،

وكان من بين الأسرى، الذين كان عددهم صغيراً حفيدين للسير أولفر تيرمي، ماتا فيا بعد في سجن في مصر، وفارس كاتالوني آخر يدعى كورديت Cordate.

وعندما أسر الأخير، وضعوه في بيت في قرية دون صفد، كانت له نافذة مفتوحة على دكة، وكان هناك حاجز خشبي عبر النافذة، وكان سقف هذا البيت منخفضاً، ولم يكن عالياً كثيراً، بل كان بالحري منخفضاً مثل بيوت الفلاحين، وكان كورديت فارساً رشيقاً جداً ونبيهاً، وهذا الذي أنقذه، لأنه تسلق بسهولة إلى النافذة، وأمسك بالحاجز، وترك نفسه فارتمى فوق الدكة(التي كانت معمولة من طين)، ونزل من على الدكة، وانطلق نحو عكا، ملتزماً السير في الحقول، مبتعداً عن الطريق الرئيسي ومتجنباً له، مسترشداً بوساطة النجوم، ومع الفجر كان في عكا، ووصل إلى أمام البطريرك والقادة الآخرين، وحدثهم بالذي وقع، كما حدثتكم، وأخبرهم أنه لو قام الرجال العكاويون الذين كانوا على الرابية الصغيرة، بمهاجمة المسلمين، لضاعت البلاد كلها، لأن السلطان كان هناك مع خمسة عشر ألف فارس من النخبة، كل واحد منهم كان على مطية مدرعة، ولقد أدركوا أنه لو قام الرجال العكاويون بالتحرك ضد المسلمين في السهل، لقام السلطان من الكمين بالوصول على الفور، والتوجه نحو المدينة.

٣٥٢ــ وخرج رجال عكا إلى الخارج بحثاً عن جثث الصليبيين الموتى، لكنهم كانوا بلا رؤوس، لأن المسلمين قطعوا رؤوس جميع الذين قتلوا في المعركة، لذلك كان من الصعب بالنسبة إلى أي واحد التمكن من التعرف عليه، حتى من قبل الأقرباء، من خلال ملامح الجسد.

٣٥٣ــ وبعد مضي عدة أيام، رجع السلطان من صفد إلى عكا، فدمر الطواحين، وأبراج البساتين، وقطع الحدائق والكروم التي كانت حول عكا، وعمل كثيراً جداً من الأذى، غير أنني أريد أن أوجز هذه

المسائل في سورية، بإخباركم أنه في أيامه، حتى الساعة التي نتحدث عنها، استولى على قلعة حصن الأكراد وانتزعها من الاسبتارية، وعلى جبل عكار، وأخذ أماكن أخرى سأحدثكم عنها فيما بعد، ولكنني أريد أن أدع الحديث عن هذه الأشياء الآن، من أجل إخباركم حول حوادث أخرى وقعت في هذا العام [١٢٦٧].

٣٥٤- حدث أن الجنويين، الذين امتلكوا رغبة شديدة بالانتقام من أعدائهم البيازنة والبنادقة، أرادوا القيام بمحاولة جديدة للانتقام من أعدائهم، فسلحوا ثمانية وعشرين غليوناً في جنوى، وعينوا لوتشيتو غريمالدي Luchetto grimaldi عليهم بمثابة أدميرال، وكان معه في صحبته رجلان كانا حكيمين، وخبيرين في قضايا الملاحة، وهما: السير باسكويتو مالوني Pasquetto Mallone ، وبابانو مالوني Papano mallone ، وقد وصلوا من دون توقع إلى عكا في اليوم السادس عشر من آب، في هذا العام، عام ١٢٦٧ للمسيح، ودخلوا إلى ميناء عكا، وأحرقوا سفينتين بيزيتين في المرسى، ووضعوا شعارهم على برج الذبان، ومكثوا في الميناء لمدة اثني عشر يوماً، وفي هذه الأثناء، غادر لوتشيتو غريمالدي، آخذاً معه خمسة عشر غليوناً احتاجوا إلى إعادة تجهيز وصيانة، وذهب إلى صور، وترك ثلاثة عشر غليوناً في ميناء عكا، وترك في مكانه باسكويتومالوني، مع بابانو مالوني، مسؤولين عن القيادة.

وعندما كان الأدميرال الجنوي في صور، وصل البنادقة إلى عكا، مع ثمانية وعشرين غليوناً، جرى تسليحهم في البندقية، وفاجأوا الثلاثة عشر غليوناً جنوياً، لكن عندما رأى الجنويون البنادقة غادروا وذهبوا إلى الخارج للتصدي لهم، وذلك في سبيل امتلاكهم مساحة كافية للمناورة وللنجاة، لأنهم لو أمسكوا في الميناء، لوقعوا بالأسر، ثم إنهم عندما خرجوا فعلوا ذلك بطريقة أنه ما من أحد منهم فقد، فقد نفذوا مباشرة بين البنادقة، وعبروا من خلالهم، وصاروا على الجانب الآخر،

وهكذا تمكن البنادقة من حجز خمسة غلايين مع رجالهم(الذين قتلوا) وتابعت الغلايين الثمانية الأخرى إبحارها إلى صور، والتحقت بالغلايين الأخرى الذين كانوا قيد الصيانة في ميناء صور، وذلك باستثناء ثلاثة غلايين ذهبوا إلى صيدا، للتحادث مع مقدم الداوية، وكان الأدميرال لوشنير معهم، وقد أرسلوا أخباراً له، فقام على الفور بالاستدارة عائداً لأنه لم يكن قد ذهب بعيداً) في إطار برجي، وعلى الفور، وفي تلك الليلة بالذات، غادروا صور، وعادوا إلى جنوى، ووصل البنادقة إلى خارج صور، مع غلايينهم الثمانية والعشرين، ظانين أنهم سيجدون الغلايين الجنوية هناك، وعندما لم يجدوهم، ذهبوا عائدين إلى عكا ومن هناك إلى البندقية، وعقدت هدنة لمدة ثلاثة أعوام بين جنوى والبندقية، وجددوا الهدنة كل ثلاثة أعوام، لأن الجنويين أرادوا هدنة قصيرة، وكانت نيتهم الانتقام لأنفسهم، الأمر الذي فعلوه، ولسوف تسمعون كيف، في هذا الكتاب.

٣٥٥- وحدث في شهر تشرين الثاني، لهذا العام (١٢٦٧) أن هيوج الثاني، وريث مملكة قبرص، وابن الملك هنري الأول السمين، والملكة باليسانس، قد عبر من هذا الجيل الحالي، وفي يوم عيد الميلاد، عُمل هيوج أوف لوزنغنان ملكاً بعده، من قبل البطريرك وليم الأيجي Agen ، الذي ذهب إلى زيارة كنائس قبرص، وكان الملك الجديد ابن العمة الأول للملك هيوج الثاني الذي توفي، حيث كان ابن أخت الملك المتوفى، وكان هناك هيوج آخر، ابن أخت أخرى والكونت ولتر أوف برين، الذي مات في سجن إسلامي، حسبما أخبرتكم من قبل(١)، وامتلك كونت هيوج أوف برين هذا الادعاء بمملكة قبرص، لكنه لم يفعل شيئاً حول ذلك، وغادر البلاد، وذهب إلى ماوراء البحار، وأخذ الملك هيوج أوف لوزنغنان التاج، واستحوذ عليه بناء على قرار المحكمة.

١- في الأوراق الضائعة والحاوية لأخبار ١٢٤٩-١٢٥٨ كما تقدم أعلاه.

٣٥٦- في هذا العام نفسه(١٢٦٧) حل الملك لويس ملك فرنسا مع ابنه الصليب من أجل القدوم إلى سورية، ومثله فعل الملك شارل صاحب أنجو، و(ثيوبولد الخامس) ملك نافار، واللورد إدوارد(ابن ملك انكلترا) وأخوه، وعدد كبير آخر من البارونات من ألمانيا وانكلترا وأسبانيا، ثم إنهم ذهبوا إلى تونس، كما سوف تسمعون فيما بعد.

٣٥٧- في العام ١٢٦٨ للمسيح، مات البابا كليمنت الرابع، وعمل غريغوري العاشر أوف بياسينزا Piancenza، الذي كان رئيس شمامسة لييج، بابا(١)، وكان في اليوم الذي انتخب فيه في مدينة عكا، ثم جلب بعد ذلك إلى روما.

٣٥٨- وحدث في هذا العام أن كونرادين ابن الملك كونراد، وابنة دوق النمسا في ألمانيا، قد سمع كيف أن الملك شارل هزم وقتل عمه الملك مانفرد، فحشد قوة كبيرة من الخيالة والرجالة، حتى يتمكن من الزحف ضد الملك شارل، وكان هذا كله بناء على تحريض من البيازنة، حتى أن الكونت جيرارد صاحب بيزا، قدم شخصياً إلى ألمانيا، وصاحبه إلى المعركة، ومثل ذلك فعل رجل كبير من جنوى، هو أخو ألبيرتو سبينولو Alberto spinolo ، الذي كان قائد الجنويين في أحد الأيام، وغادر كونرادين هذا ألمانيا، وزحف ضد الملك شارل، وجلب خاله(الذي كان دوق النمسا) مع بارونات ألمان آخرين معه.

٣٥٩- وحشد الملك شارل رجاله، وزحف للتصدي له، وعندما واجه أحدهما الآخر، قاما بتعبئة كتائبهم وأفواجهم كما ينبغي، وضرب رجال كونرادين أولاً، وحملوا إلى وسط رجال الملك شارل بشدة متناهية، حتى أنهم دفعوهم إلى بين خيامهم، وفي الوقت الذي كان فيه رجال الملك شارل يدافعون عن أنفسهم بين خيامهم، كان الملك شارل على هضبة جيدة الاتساع، مع فوج كبير من خيرة الفرسان الذين كانوا

١- في الحقيقة جرى انتخابه في ١٢٧١، بعد فراغ لمدة ثلاثة أعوام.

نبيه، وكان معه فارس فرنسي اسمه السير آلارت أوف فاليري Alart of valery ، وكان فارساً شجاعاً، وشديداً، وصاحب شهرة كبيرة، وخبرة عظيمة في فن الحرب.

وعندما رأى الملك شارل رجاله وقد دفعوا إلى ما بين خيامهم، كان شديد الانزعاج والقلق، وسأل السير آلارت أوف فاليري، عما إذا كانت هناك أية قلعة، يمكنه الالتجاء إليها، إذا اقتضى الأمر، وأجابه السير آلارت، بأنه كانت هناك باريس، ولايعرف سواها، وأنه كان يفكر بأخذ طرق أخرى.

ثم جاء إليه غلام وقال: «فكر بإعطاء بعض الاهتمام لتقديم المساعدة إلى رجالك، الذين هم في وضع سيء»!.

ورد الملك شارل عليه: «لابأس، إن الجيدين، والأقوياء، والشجعان سوف يبقون هناك من أجلنا، مثلما تتطاير القشور في الهواء، وتبقى حبوب القمح».

وهو يتفوه بهذه الكلمات شاهد السير آلارت أوف فاليري رجال كونرادين وهم خارجين من المعسكر، محملين بالأقمشة التي كانوا يقتلونها، فقال للملك شارل: «الآن هو الوقت يا مولاي، ساعد رجالك، ودمر أعداءك»!.

٣٦٠- ونزل الملك شارل ونخبة الفرسان الذين كانوا معه إلى الميدان، مستريحين، نشيطين، وانقضوا على رجال كونرادين، فوجدوهم متعبين ومنهكين، وكان بعضهم مثقلاً بالأقمشة والتجهيزات التي كانوا قد نهبوها من المعسكر، وكانوا جميعاً متفرقين، وقد ضغطوا عليهم أولاً بأسنة الرماح، ثم بالسيوف العريضة، ولذلك كانت المعركة مميتة جداً، فقد جرى قتل عدد كبير من الرجال.

وفي النهاية هرب كونرادين، وخاله دوق النمسا، والكونت جيرارد

صاحب بيزا، وجنوياً من أصل رفيع اسمه توماسو سبينولا Tommaso spinola الذي كان قائد الجنويين، فلقد هرب هؤلاء الأربعة من القتال وذهبوا نازلين نحو البحر، إلى داخل كهف، وقد مكثوا هناك لمدة يومين من دون أي شيء يأكلوه، ثم عبر بهم مركب صيد، وخرج توماسو سبينولا وتحدث إلى الصيادين، قائلاً بأن يريد أن يأخذوه مع الفرسان الثلاثة الآخرين، الذين نجوا من المعركة، ويحملوهم معهم، ويأخذوهم إلى مكان آمن، وهم سوف يدفعون لهم مبلغاً كبيراً، وعندما سمعوه يعطيهم أسبابه هذه، وافقوا على أن يفعلوا كما طلب، وباعوهم خبزاً أكلوه، وفي الوقت نفسه ذهب واحد من الذين كانوا في المركب إلى نابلس، وحكى ما حدث للذين كانوا في البلاط، فأرسلوا رجالاً اعتقلوهم، وأعادوهم إلى نابلس، وعندما وصلوا إلى هناك، أخذهم الملك شارل إلى المحكمة، حيث جرت إدانتهم من قبل القضاة، فقطعت رؤوسهم.

٣٦١— وقطع رأس كونرادين أولاً، ثم خاله دوق النمسا، وقالوا بأنه رفض عمل اعترافه، عندما كان يائساً، متفوهاً بجميع الأشياء الشريرة التي أمكنه التفكير بها، صدوراً عن اليأس، وبعد هذا جرى قطع رأس الكونت جيرارد صاحب بيزاء أما بالنسبة للسير توماسو سبينولا، فقد قلعت عيناه، وبترت يداه معاً وأنفه، ثم تركوه يذهب.

٣٦٢— كان كونرادين هذا الذي أنا أتحدث عنه ابن الملك كونراد، الذي كان بدوره ابن الامبراطور فردريك الثاني، وملكة القدس، التي قمت بوصفها ثم شرحت زواجها من الامبراطور، ووصلت إليه مملكة القدس من خلال أم أبيه، وعندما مات، كما سمعتم، وكان من دون ورثة، عادت مملكة القدس إلى خط أم أبيه.

٣٦٣— ووصلت أخبار موته، وانتصار الملك شارل في المعركة إلى عكا، وبناء على ذلك عمل شعب عكا احتفالاً عظيماً، وأوقدوا نيران الأفراح، التي استمرت عدة أيام، وكانوا يحتفلون بموت الذي كان

ينبغي أن يكون سيدهم، لكن الاحتفال لم يكن فيه أية شماتة، بل جاء لهنئة الكنيسة المقدسة، ومن أجل الملك شارل، الذي كان المدافع عن الكنيسة المقدسة ورئيساً لها، وكان هناك سبباً آخر، هو أن الرب أرادهم أن يظهروا بهذا، مـوافقتهم على حـرمان ورثة الامبراطـور وولديه: كونراد، ومانفرد، اللذان كانا مضطهـدين للكنيسة المقدسة أثناء حياتها، واللذان ماتا وهما محرومان كنسياً.

والآن إنني أريد أن أدع إخبـاركم حـول هذا الموضوع، وسـوف أخبركم بالذي حدث في بلاد سورية في هذا العام(١٢٦٨).

٣٦٤— خرج هذا السلطان، الذي تحدثت عنه في أماكن أخرى، والذي دعي باسم الملك الظاهر، ولكن دعي بالعـادة باسم بيبرس، خرج من القـاهرة، ووصـل إلى يافـا، في بلاد الصليبيين، وقد استولى عليها في الثامن من آذار، بالخيانة، وأثناء الهدنة، وقتل كثيراً من عامة الناس، وترك الآخرين يذهبون إلى عكا مع مقتنياتهم، وأعطاهم أماناً، وأخذ آثار رأس القـديس جورج، وحمله بعيداً، وأحرق جسد القـديسة كريستين، الذي كان جون أسقف تروي Troyes قد تركه في يافا.

٣٦٥— ومن هناك ذهب السلطان إلى قلعة شقيف أرنون، التي كانت عائدة إلى الداوية، واستولى عليها بالقوة في اليوم الخامس عشر من نيسان، وذهب بعد هذا إلى أنطاكية، وحاصرها، وقد أظهرت دفـاعاً ضعيفاً، فاستولى عليها في التـاسع عشر من نيـسان، وعندما جرى الاستيلاء على المدينة، قتل فيهـا أكثر من سبعة عشر ألفـاً من السكان الذين كـانوا بداخلها، ووقع بـالأسر أكثر من مائة ألف إنسان، ما بين رجال لاهوت وعلمانيين: نسـاء ورجالاً، وتخلى الداوية عند ذلك عن اثنتين من القـلاع كانتا قـريبتين وهما: بغراس، وروج دي روسل Roussel ، وهجروا أيضاً منطقة أرسوز Porbonel ، قرب تخوم أرمينيا.

٣٦٦— وفي الوقت نفسه رتب السلطان إطلاق سراح رجل مسلم

كبير اسمه شمس الدين سنقر الأشقر، الذي كان مأسوراً عند التتار، وقد أطلق سراحه، ووصل إلى القاهرة، مقايضة مع ليون ابن ملك أرمينيا.

٣٦٧— في هذا العام نفسه(١٢٦٨) عمل باليان دي إيبلين، صاحب أرسوف نائباً لمملكة القدس.

٣٦٨— وكان في العام ١٢٦٩ هناك زلزال كبير في أرمينيا، دمر خمس قلاع، وثلاثة أديرة مسيحية، واثنتي عشرة قرية، ومات السير غيوفري أوف سيرين الذي كان كافل مملكة القدس، وقائد رجال ملك فرنسا، وكان موته في الحادي عشر من نيسان.

وإنني أريد الآن أن أشرح قضية أخرى، حدثت في العام نفسه.

٣٦٩— وحدث أنه عندما شاهد الملك هيوج الثالث صاحب قبرص، الذي كان ابن هنري ابن الأمير، والذي اتخذ اسم هيوج لوزنغان من أمه(التي من خلالها وصلت إليه مملكة قبرص) شاهد أن كونرادين كان قد مات، قام بتتويج نفسه ملكاً على القدس في صور، وكان كونرادين وهيوج أبناء خالة، لأن كونراد الذي كان ابن الامبراطور فردريك الثاني ووالد كونرادين، وأم هيوج أوف لوزنغان، ملك قبرص أبناء خالة، ولذا من أختين، من خلالها جاء الحق بمملكة القدس.

وحدث الآن أن الملك هيوج الثالث، الذي أنا أتحدث إليكم عنه، كانت له خالة، أخت أم أمه، وهي سيدة دعيت باسم الآنسة ماريا، لأنها لم يكن لها زوج، وكان عمرها في ذلك الحين أكثر من أربعين عاماً، وتحدث هذه الآنسة ماريا حق الملك هيوج في مملكة القدس، وقالت بأنها كانت هي الأقرب درجة للحق بمملكة القدس من الملك هيوج الثالث صاحب قبرص، وحاول فيليب أوف مونتفورت[القرين]والداوية والاسبتارية مع رجال دين آخرين حل هذه المشكلة، وكانوا غير قادرين على فعل ذلك، وذهبت الآنسة إلى منظمة الداوية، ثم ذهبت إلى ماوراء

البحار، حيث ترافعت بقضيتها أمام البابا، وعند حلول يوم تتويج الملك على مملكة القدس، وصل رجل دين مرافق بكاتب عدل إلى الكنيسة وصرخ رافعاً صوته بحضور جميع الناس، بأنه يعترض على تتويج الملك، وذلك حسبما كان الأمر قد صدر إليه أن يفعل، ثم هرب من حضرة الناس الموجودين، وليس معروفاً الذي نتج عنه.

وسوف أخبركم أكثر حول الآنسة ماريا، مرة أخرى، لأنني أريد الآن أن أتحدث عن شيء آخر.

٣٧٠—استحوذ فيليب أوف مونتفورت[القرين] على صور، بمثابة منحة من الملك هنري الأول، ملك قبرص، ولم تكن هذه المنحة مضمونة، لأن كونراد كان حياً، وكان فيليب خائفاً من أن يطالب الملك هيوج باسترداد صور، ولذلك رتب بأن يعطي الملك هيوج أخته إلى جون أوف مونتفورت، ابن فيليب أوف مونتفورت، وثبت الملك هيوج إعطاء مدينة صور إلى جون أوف مونتفورت، بطريقة أنه إذا ما حصلت زوجته على ولد، سوف تبقى مدينة صور في حوزتها وورثتها، وإذا كان جون أوف مونتفورت والسيدة غير محظوظين، بأن لن يكون لها أولاد أبداً، عندها سوف تعود مدينة صور إلى الملك هيوج أو إلى ورثته، وفي هذه الحالة يتوجب على الملك هيوج، أو ورثته، إعطاء مائة وخمسين ألف دينار إسلامي إلى ورثة جون أوف مونتفورت، لتغطية النفقات الكبيرة التي دفعتها من أجل تحصين المدينة وترميمها.

وهكذا تمت الموافقة على الزواج، وذهب جون أوف مونتفورت إلى قبرص، وخطب أخت الملك وتزوجها، وكان هناك احتفال كبير جداً، من النوع الذي ينبغي عمله في مثل ذلك العرس الكبير، وجلبها جون أوف مونتفورت إلى صور، ورافقها الملك وشيعها حتى فياغوستا، وجهز ثلاثة غلايين لمرافقتها مع غليون من صور يدعى Panfile ، ووصلا إلى صور، حيث أقاما احتفالاً كبيراً.

٣٧١— وعندما تزوجت هذه السيدة، كانت فتاة ذات أصل رفيع في الرابعة والعشرين من عمرها، وكانت الأكثر لطفاً بين السيدات والفتيات على هذا الجانب من البحر في أيامها، وخاصة وجهها، وأنا أعرف جيداً عما أتكلم عنه، لأنني رأيتها كل الوقت، بما أنني كنت واحداً من أربعة غلمان، خدمناها في ذلك العام نفسه، و كانت حقاً سيدة جيدة، وكانت الأكثر حكمة وكرماً، وكانت هي ومولاي زوجها، قد أحبا أحدهما الآخر كثيراً، وصارت فيما بعد بدينة، ومن دون عقل تماماً وبلا منطق، وأصبحت تشبه، والدها، الذي كان بديناً كثيراً، وصار مولاي صاحب صور يعاني كثيراً من مشاكل في الأمعاء وفي قدميه ويديه، كثيراً إلى حد أنه بات عاجزاً تماماً، مع أنه كان فارساً رائعاً جداً، الأكثر لطفاً، وحكمة وإنسانية، وكان فارساً مصقولاً، وكان له أخ كان اسمه همفري أوف مونتفورت، وكان فارساً ممتازاً وعظيماً، ولم يكن له نظيراً في أيامه، وقد تزوج ابنة جون أوف إيبلين، صاحب بيروت، الذي كان له أخت أسن منه، كانت هي سيدة بيروت.

لكنني سوف أدع الحديث عن هؤلاء الناس الآن، ولسوف أخبركم عن قضية أخرى وقعت في عام التجسيد [١٢٦٩] المذكور، من أجل مسايرة سياق روايتي بشكل موائم.

٣٧٢— أنتم تعلمون بأنني ذكرت لكم كيف أن ملكي فرنسا ونافار، وأولاد ملك فرنسا، والملك شارل، واللورد إدوارد(ابن ملك انكلترا) مع أخيه وكونتات آخرين وبارونات من انكلترا، وألمانيا واسبانيا، قد حملوا الصليب من أجل القدوم إلى أرض سورية المقدسة.

ولقد احتشدوا جميعاً، وقرروا الاستيلاء على تونس، التي هي مدينة إسلامية كبيرة، وقد جمعوا قوة بحرية كبيرة، وذهبوا إلى تونس، تماماً كما رتبوا، ونزلوا إلى اليابسة من دون أية معارضة، وكان معهم حوالي تسعة عشر ألف خيال مع بعضهم، وأعداد كبيرة جداً من الرجالة، أما بالنسبة

للقوى البحرية فقد كان معهم أسطولاً كبيراً، وعدداً كبيراً من الرجال حيث كان من بين هؤلاء سبع عشرة ألف جنوي مع أسطولهم كله، لأن الجنويين عزموا على استرداد حقوقهم في عكا.

٣٧٣ - عندما كان الحشد هكذا أمام تونس، وضعهم المسلمون في مأزق صعب وسببوا لهم كثيراً من الاضطراب والإزعاج، فقد أغار المسلمون عليهم، عندما هبت الرياح العالية، وجاء الغبار بقوة هائلة فوق رجالنا، حتى أنهم لم يعد أحدهم يرى الآخر، وعملوا خندقاً بين رجالنا وبينهم، حتى لايتمكن الإنسان من الوصول إليهم، ولذلك أطلق رجالنا النشاب من القسي العقارة عليهم، فقتلوا بها بعض الأعداء، لكن عليك أن تعرف أنه كان هناك الكثير جداً من الأعداء، لذلك لم يكن ممكناً إنجاز شيء منهم من هذا النوع، وكان هذا بسبب أن الرب الذي يعرف جميع الأشياء، ويأمر بها، رأى بأن رجالنا انحرفوا وضلوا عن خدمته في الأرض المقدسة، وذهبوا إلى حيث لم تكن هناك حاجة كبيرة، ولذلك نادراً ما أراد مساعدتهم، مع نتيجة أن مرضاً كبيراً دخل إلى الجيش، وإلى درجة أن كثيراً من الرجال ماتوا، وكان من بين الموتى، الملك الصالح لويس التاسع ملك فرنسا، وملك نافار(١)، وجون تريستان Tristan (ابن ملك فرنسا المتقدم ذكره) وعدد كبير من البارونات والفرسان الآخرين، وكانت أعدادهم كبيرة جداً بالنسبة لي حتى أذكرهم، ويعرف الذين بقوا أحياء تمام المعرفة بأن مهمتهم قد أخفقت.

وبينما كان الصليبيون في الوضع الذي توليت وصفه إليكم، وحسبما يرضي الرب، بعث سلطان تونس إلى الملك شارل، لعمل معاهدة، ورأى الملك شارل أنه غير قادر على الذهاب إلى أي مكان، ولذلك عملا اتفاقاً فيما بينهما، وعد السلطان بموجب ذلك أن يسلم جزية

١ - مات فيما بعد.

محددة كل عـام إلى الملك شـارل، وقـدم لهم ضمانات وافقوا عليهـا، وأعطاهم مبلغاً من المال مساوياً للنفقات التي أنفقوها على الجيش.

وبعد هذا أنا أريد أن أحكي لكم عن واقعة أخرى وقعت في سورية.

٣٧٤— في عام ١٢٧٠ للمسيح أراد بيبرس سلطان مصر أن يثير، وأن يوجـد بعض البلبلة بين الصليبيين، فهـو قـد عـرف تمام المعـرفة أن السـير فيليب أوف مونتفورت، صاحب صور، كان سيداً عاقلاً جداً، وأن ما من شيء يعمل في سورية بين الصليبيين من دون توجيهه، وعلاوة على ذلك عـرف بأن فيليب أرسل رسـائل ورسلاً إلى ملـوك وسادة مـا وراء البحار ليثيرهم حتى يقدموا إلى هنا، ولذلك أراد السلطان أن يقتله، ولهذا أخذ بعض المسلمين الذين يعرفون باسم الحشيشية، وألبسهم على شكل رجال مسلحين، وبعث بهم إلى صور، وأمرهم بقتل صاحب صور هذا، وكـذلك صاحب صيدا، وهو الذي باع صيداً إلى الداوية، وكان حفيد صاحب صور، لأن صاحب صيدا هذا على الرغم من أنه كان رجلاً متهاوناً، وأساء إدارة أموره، لقد كـان مع ذلك حكيماً جداً، وبارعاً، وفهيماً في المسائل العسكرية، وكان شجاعاً، وشديداً، وكبيراً، وقوياً، ولهذا السبب أراد السلطان قتله أيضاً.

ووصل هذان الحشيشيان إلى صور على ظهر فرس، يحملان أسلحة تركية، ويلبسان حزامين من الفضـة، على شاكلة الرجـال المسلحين المسلمين، وقـد توجها مباشرة إلى صاحب صـور، وسألاه من أجل أن يعمدهما، وقام صاحب صور الذي لم يكن محترساً تجاه مثل هذه الأشياء، بأخذهما للتعميد، وأخذ أولهما اسمه، وبات يدعى فيليب، وتولى صاحب صيدا تعميد الرجل الآخر، وصار عرابه، وأخذ اسم يوليان، واحتفظ بهما صاحب صور، في خدمته معاً كتوركبلية، ووثق بهما صاحب صور كثيراً، ومع ذلك قيل لصاحب صور بأنه ينبغي أن يكون محترساً، لأن السلطان يريد قتله، وقد أرسل حشيشية لقتله، وعلى هذا رد صاحب صور بأنه لم

بعد صاحب صور، بل إن ابنه هو صاحبها، ولذلك لم يكن لدى السلطان من سبب من أجل قتله، ومع ذلك طلب من نائبه التقصي ومراقبة الناس الأجانب الذين وصلوا إلى صور، لكنه لم يقم بأية محاولة لحماية نفسه من هذين الاثنين، اللذين احتفظ بهما في مسكنه.

وحدث الآن أن هذين الحشيشيين صارا صديقين جيدين مع سرياني ساحلي، كان يخدم صاحب صور كفراش، يعني أن نقول أنه كان يكنس القصر والساحة وينظفهما ويغسلها ويعتني بالخيم عندما يكون ذلك ضرورياً، وجاء هذا الفراش في أحد الأيام ليأكل مع الحشيشيين، عندما كانا في مقر إقامتهما، وذهب أحدهما إلى السوق لشراء خبز، في حين كان الآخر في المطبخ، وأخذ هذا الفراش سهماً من جعبتهما، وكان في الجعبة خنجر مسموم، ملفوف بقماش، وبهذا أدرك أنهما كانا حشيشيين.

وعندما كانوا مع بعضهم جالسين إلى المائدة، أراد الفراش أن يعلم منهما كل ما يتعلق بالخنجر الذي وجده، وعندما رأيا أنهما قد كشفا، اعترفا بمؤامرتهما إليه، وأخبراه أنهما يريدان قتل صاحبي صور وصيدا من أجل السلطان، ووعداه بإعطائه مائة دينار قديم في يوم الأحد إذا حافظ على هدوئه.

وكان اليوم آنذاك يوم الخميس، وفكر بعد ذلك هذان الحشيشيان في نفسيهما، وأنهما لم يعطيا المائة دينار إلى الفراش في يوم الأحد، فلسوف يخونهما، وقررا الإسراع باقتراف فعلتهما في يوم الأحد المقبل.

وعند هذه النقطة، غادر صاحب صيدا ليسافر إلى بيروت، وبناء عليه ذهب الأول من الحشيشيين الذي كان ابن المعمودية لصاحب صيدا، إلى بيروت، من أجل أن يقتل صاحب صيدا، وبقي الآخر في صور، وربما أن يقوم الأول في يوم الأحد بتنفيذ مهمته في صور، والثاني في بيروت، أي أن يعملا كل شيء في اليوم نفسه، وحافظ الفراش غير المخلص على

سرية القضية من أجل أن يحصل على المائة دينار، التي وعدها بها، ولم يقل شيئاً للورد أو النائب، مثل خائن.

وعندما جاء يوم الأحد، وصل الحشيشي إلى الساحة في الصباح الباكر، وذهب نحو بيعة اللورد، ووجد هناك السير فيليب أوف مونتفورت عند الدخول إلى بيعته، واقفاً على قدميه، وهو يتحادث مع واحد من برجاسيته، ووصل الحشيشي إليه وحياه، وبناء عليه أخبره اللورد بأنه كان مسيحياً جيداً، وعمل عملاً جيداً بالقدوم لسماع القداس، وأعطاه مالاً للتوزيع، لأن قداساً آخر، كان قد بدأ من أجل ابنه الشاب، السير جون أوف مونتفورت، وكان الوقت قد حل آنذاك لتوزيع الأعطيات.

وأخذ الحشيشي المال، وخرج لإعطائه، ورأى وقتها أنه لايوجد أحد في البيعة باستثناء اللورد الشاب، وفارس آخر، يدعى وليم بيكويني Picquigny ، فبدا له أنه يستطيع أن ينفذ فعلته الشريرة، ولدى الخروج من البيعة، ركض نحو اللورد القديم، السير فيليب أوف مونتفورت وطعنه في صدره بالخنجر، وبسبب أن اللورد القديم كان في تلك اللحظة ينقل واحداً من خواتمه من اصبعه إلى اليد الأخرى، خرق في الضربة الأولى يده التي كانت على صدره، وترك الخنجر فيه، ووضع يده على سيفه ومضى عائداً إلى البيعة ليقتل اللورد الآخر.

لكنه عندما ضرب اللورد القديم، صدر عن الضربة صوت مرتفع، جعلت اللورد الشاب، الذي كان في البيعة يقرأ في كتابه، يلتفت ليرى ما الذي يحدث، وعندما شاهد الحشيشي قادماً مع سيف مجرد في يده، اندفع اللورد الشاب نحو المذبح، ورمى الحشيشي السيف محاولاً أن يضربه على منضدة المذبح، لكنه أخطأه، وانغرس السيف بقوة إلى حد أنه لم يكن بإمكانه سحبه، وقدم وقتها السير وليم بيكويني وأمسك بالحشيشي من الخلف، وأخبر اللورد الشاب بأنه يمكنه الخروج، وخرج اللورد الشاب،

وأمسك الحشيشي بيد من شعره، وحاول أن يسحب السيف باليد الأخرى، أثناء محاولته ذلك أصيب اصبعان من يده بجراحة.

عند هذه النقطة خرج لورد أوف مونتفورت القديم من مدخل بيته، وهو يمشي ببطء على قدميه، ووقع على مقعد حجري خارج مدخل ناعت، ورفعه الذين تكلموا إليه، وأيقظوا السيرجاندية وأنذروهم، فجاءوا على الفور، واندفعوا نحو اللورد القديم، الذي قال لهم: «اذهبوا وساعدوا ابني في البيعة، لأن مسلماً يحاول قتله».

وركض كل واحد إلى البيعة، وعلى الفور قتلوا الحشيشي، وأنقذوا صاحب صور الشاب، الذي وصل إلى عند أبيه، وفتح أبوه عيناه، ورآه سليماً معافى، فرفع يديه نحو السماء، شاكراً الرب دون أن يقول أي شيء زيادة، فقد غادرته روحه، ومات، وكان الحشيشي قد مات، مثله تماماً، وسحبوه وشنقوه، وأرسلوا على الفور قارباً بالبحر إلى بيروت، وتوركبليا بالبر، لإخبار صاحب صيدا، حتى يكون محترساً ضد الحشيشي الآخر، ولكي يعتقله، لكن ما أن سمع الحشيشي الآخر بهذا، حتى امتطى ظهر حصانه وهرب إلى عند المسلمين، فسلم، لأنه كانت هناك مسافة قصيرة بين المسلمين والصليبيين.

وعندما رأى الفراش الخائن الذي حدث، حاول الذهاب والابتعاد حتى لايعرف أحد بالذي فعله، وجرى التنبه إلى هذا عندما طلبوه، واعتقل واستجوب، وعذب، وقد اعترف بالذي علمه حول المؤامرة، وبناء عليه اقتلع لسانه من تحت ذقنه، وقطعوا يده اليمنى، وسحلوه وشنقوه.

وجرى دفن صاحب صور في الكنيسة الأم في صور، وهي المعروفة باسم كنيسة الصليب المقدس، وقد كان موته خسارة كبيرة للمسيحية.

والآن سأدع الحديث عنه، الذي روحه مع الرب، وسوف أخبركم حول قضية أخرى.

٣٧٥— في هذا العام نفسه، عندما رأت الآنسة ماريا(خالة الملك هيوج الثالث أوف لوزنغنان) بأن حفيدها، الملك هيوج، عمل ملكاً، وجرى تتويجه على مملكة القدس، كما أخبرتكم، وبعدما أعلنت عن معارضتها من خلال رجل دين وكاتب عدل، حسبما أوضحت لكم أعلاه، غادرت عكا، وذهبت إلى بلاط روما، وقدمت شكوى ضد الملك هيوج إلى البابا، وكان البابا في تلك الأثناء هو غريغوري العاشر.

واستمع البابا ومحكمته إلى القضية، ولكن عندما كانت إجراءات المسألة مستمرة، قابلت الآنسة ماريا المذكورة الملك شارل، وتناقشت معه، ورتبت أن تعطيه مطلبها وقضيتها، وعندما ساعدها الملك شارل حيثما استطاع، وعندما جرى تقدير القضية بشكل صحيح، وجاء الوقت لإصدار قرار الحكم، حكم البابا ومحكمته بأن الآنسة ماريا تمتلك حقاً أكثر في وراثة مملكة القدس، مما فعله الملك هيوج، وثبت البابا ومحكمته منحة الآنسة ماريا، التي قدمتها إلى الملك شارل، بتنازلها له عن حقوقها بمملكة القدس، التي كانت تطالب بها، وأعطى الملك شارل إلى ماريا مبلغاً من المال كل عام، فرضه لها على موارد أراضيه في فرنسا، مع أنه بعد بعض الوقت عينه لها من موارد أراضي أبوليا.

٣٧٦— في عام ١٢٧١ لتجسيد المسيح، وفي الثامن عشر من شباط، حاصر السلطان بيبرس سلطان القاهرة، قلعة حصن الأكراد، التي كانت بحوزة فرسان مشفى القديس يوحنا للقدس، وقد استولى عليها بناء على شروط صلح، في الثامن من نيسان مبقياً على حياة الفرسان.

وفي اليوم التاسع من أيار من العام نفسه، وصل اللورد إدوارد ابن ملك انكلترا إلى عكا، وقد واجه عاصفة كبيرة في البحر أثناء سفره، وكانت من الشدة بمكان أن الماء تدفق على سفينته وضربها، حتى كاد أن يغرق، وقد جلب زوجته معه، وجاء كونت بريتاني أيضاً، وفي أيلول وصل أيضاً إلى عكا السير ادموند، أخو اللورد إدوارد.

وأمسك الحشيشي بيـد من شعـره، وحـاول أن يسحب السيف باليـد الآخرى، وأثناء محاولته ذلك أصيب اصبعان من يده بجراحة.

عند هذه النقطة خرج لورد أوف مـونتفورت القـديم من مـدخل بيعتـه، وهو يمشي ببطء على قدميـه، ووقع على مقعـد حجري خـارج مـدخل قـاعتـه، ورفعـه الذين تكلمـوا إليـه، وأيقظوا السيرجـانـدية وأندروهم، فجاءوا على الفور، واندفعوا نحو اللورد القديم، الذي قال لهم: «اذهبوا وساعدوا ابني في البيعة، لأن مسلماً يحاول قتله».

وركض كل واحـد إلى البيعـة، وعلى الفـور قتلوا الحشيشي، وأنقـذوا صاحب صور الشـاب، الذي وصل إلى عند أبيه، وفتح أبوه عيناه، ورآه سليماً معافى، فرفع يديه نحو السماء، شاكراً الرب دون أن يقول أي شيء زيادة، فقد غـادرته روحه، ومات، وكان الحشيشي قد مـات، مثله تماماً، وسحبـوه وشنقـوه، وأرسلوا على الفـور قـارباً بالبحـر إلى بيروت، وتوركبلياً بالبر، لإخبار صـاحب صيـدا، حتى يكون محترسـاً ضـد الحشيشي الآخـر، ولكي يعتقله، لكن ما أن سمع الحشيشي الآخر بهذا، حتى امتطى ظهر حصـانه وهرب إلى عند المسلمين، فـلم، لأنه كـانت هناك مسافة قصيرة بين المسلمين والصليبيين.

وعندمـا رأى الفراش الخائن الذي حـدث، حـاول الذهاب والابتعـاد حتى لايعرف أحـد بالذي فعله، وجـرى التنبـه إلى هذا عنـدمـا طلبـوه، واعتقل واستجوب، وعذب، وقد اعترف بالذي علمه حول المؤامرة، وبناء عليه اقتلع لسانه من تحت ذقنه، وقطعوا يده اليمنى، وسحلوه وشنقوه.

وجرى دفن صـاحب صور في الكنيسة الأم في صور، وهي المعـروفة باسم كنيسة الصليب المقدس، وقد كان موته خسارة كبيرة للمسيحية.

والآن سأدع الحديث عنه، الذي روحـه مع الرب، وسـوف أخبركم حول قضية أخرى.

٣٧٥— في هذا العام نفسه، عندما رأت الآنسة ماريا (خالة الملك هيوج الثالث أوف لوزنغنان) بأن حفيدها، الملك هيوج، عمل لـ... وجرى تتويجه على مملكة القدس، كما أخبرتكم، وبعدما أعلنت معارضتها من خلال رجل دين وكاتب عدل، حسبما أوضحت أعلاه، غادرت عكا، وذهبت إلى بلاط روما، وقدمت شكوى ضد الملك هيوج إلى البابا، وكان البابا في تلك الأثناء هو غريغوري العاشر.

واستمع البابا ومحكمته إلى القضية، ولكن عندما كانت إجراءات المسألة مستمرة، قابلت الآنسة ماريا المذكورة الملك شارل، وتناقشت معه، ورتبت أن تعطيه مطلبها وقضيتها، وعندها ساعدها الملك شارل حيثما استطاع، وعندما جرى تقدير القضية بشكل صحيح، وجاء الوقت لإصدار قرار الحكم، حكم البابا ومحكمته بأن الآنسة ماريا تمتلك حقاً أكثر في وراثة مملكة القدس، مما فعله الملك هيوج، وثبت البابا ومحكمته منحة الآنسة ماريا، التي قدمتها إلى الملك شارل، بتنازلها له عن حقوقها بمملكة القدس، التي كانت تطالب بها، وأعطى الملك شارل إلى ماريا مبلغاً من المال كل عام، فرضه لها على موارد أراضيه في فرنسا، ثم إنه بعد بعض الوقت عينه لها من موارد أراضي أبوليا.

٣٧٦— في عام ١٢٧١ لتجسيد المسيح، وفي الثامن عشر من شباط حاصر السلطان بيبرس سلطان القاهرة، قلعة حصن الأكراد التي كانت بحوذة فرسان مشفى القديس يوحنا للقدس، وقد استولى عليها بناء على شروط صلح، في الثامن من نيسان مبقياً على حياة الفرسان.

وفي اليوم التاسع من أيار من العام نفسه، وصل اللورد إدوارد بن ملك انكلترا إلى عكا، وقد واجه عاصفة كبيرة في البحر أثناء سفره، وكانت من الشدة بمكان أن الماء تدفق على سفينته وضربها، حتى كاد أن يغرق، وقد جلب زوجته معه، وجاء كونت بريتاني أيضاً، وفي إثره وصل أيضاً إلى عكا السير ادموند، أخو اللورد إدوارد.

وفي هذا العام نفسه حاصر بيبرس، سلطان القاهرة قلعة جبل عكار، التي كانت عائدة إلى أمير أنطاكية، وقد استولى عليها بناء على شروط مصالحة.

٣٧٧— وسوف أحدثكم عن واقعة أخرى وقعت في هذا العام نفسه.

سلح سلطان القاهرة أحد عشر غليوناً إسلامياً، وبعث بهم لإلحاق الضرر بقبرص، وعندما وصلوا إلى مياه ليماسول، غرقوا جميعاً وتحطموا، نتيجة لخطأ القبطان، وبإرادة الرب، وليس لسبب آخر، لأن كل من الريح والبحر كانا هادئين تماماً، وقد أخذوا جميعاً كعبيد، مع أن غليونين نجوا، وعادا إلى الاسكندرية، ولولا أن الأمور أخذت هذا الشكل، لتمكنوا من تدمير ليماسول وأماكن أخرى في قبرص.

٣٧٨— في هذا العام حاصر السلطان مونتفورت الألمان، وكانت هذه قلعة كبيرة قوية جداً من عكا، واستولى عليها في الثاني عشر من حزيران، بناء على شروط حفظ حياتهم، وفي السادس عشر من تموز وجه الرجال إلى عكا، وتركهم يذهبون، وفي هذا اليوم كان أهل عكا مستنفرين تماماً وكلهم حامل لسلاحه، وجاهزين للدفاع عن بلادهم، ثم إن اللورد إدوارد شاهد جيش السلطان وقوته العظيمة، وقد عرف جيداً أنه لا يمتلك ما يكفي من الرجال لمحاربة السلطان بهم، ولذلك لم يتجرأ أحد من الصليبيين على الخروج ضده، وغادر السلطان في اليوم التالي، وذهب عائداً إلى القاهرة.

٣٧٩—ثم ركب اللورد إدوارد للغارة، وذهب لمهاجمة قرية غنية تدعى القديس جورج، التي هي على بعد حوالي الثلاثة فراسخ عن عكا، وذهب الداوية والاسبتارية معه، ومثل ذلك فعل الرجال الآخرون من عكا، وكان هذا عند نهاية شهر تموز، عندما كانت الدنيا حارة جداً، ولقد دمروا القرية، وقتلوا عدداً كبيراً جداً من المسلمين، وربحوا كثيراً من الأسلاب، لكن عدداً من رجالنا ماتوا هناك، بسبب

العسل من النحل وأشياء أخرى أكلوها، وذلك حسبما اعتاد الرجالة أن يفعلوا، وكذلك ماتوا على الطريق من الحر، ومن الإنهاك، ومن الطعام الساخن الذي كانوا قد أكلوه.

٣٨٠— قدم الملك هيوج ملك القدس وقبرص، من قبرص إلى عكا، وقدم تشريفاً كبيراً إلى اللورد إدوارد، وكان هناك تفاهماً عظيماً بينهما، وقدم أيضاً بوهيموند السادس، أمير أنطاكية وكونت طرابلس، وابن العم الأول للملك هيوج أوف لوزنغنان (ولدا من أخوين)، لكنه أقام وقتاً قصيراً في عكا، ثم غادر، وذهب إلى طرابلس في بلاده.

٣٨١—في الرابع والعشرين من تشرين الثاني من ذلك العام، خرج اللورد إدوارد، والملك هيوج، وفرسان قبرص وعكا، مع الداوية والاسبتارية، لمهاجمة حصن يدعى قاقون، موجود في أراضي قيسارية، على بعد اثني عشر فرسخاً أو أكثر عن عكا، وقد ألحقوا أضراراً كثيرة بالمسلمين واستولوا على مخيمين للتركمان، وقتلوا كثيراً من المسلمين، واستولوا على كثير من الحيوانات من صغير وكبير، حوالي الاثني عشر ألفاً منهم، وحاصروا بعض المسلمين داخل برج قاقون، وكان برجاً حصيناً جداً، محاطاً بخندق مليء بالماء، وقد اقتربوا من الاستيلاء عليه، لكن رجالنا خافوا من أن يتأخروا كثيراً، لأن صوت الإنذار مضى عبر البلاد، وكان المسلمون سيحتشدون مع جميع المناطق، لذلك غادر رجالنا، وعادوا إلى عكا مع منهوباتهم، وهم سليمين معافين.

٣٨٢— والآن سوف أخبركم بالذي حدث إلى اللورد إدوارد.

لقد حدث أن رجلاً مسلحاً مسلماً قدم لكي يعمد في عكا، وأن يدخله اللورد إدوارد في المسيحية وأن يحتفظ به في أماكن إقامته، وخدم هذا الرجل اللورد إدوارد بشكل أنه كان يذهب فيتجسس على المسلمين، ليعرف أين يمكن إلحاق الضرر بهم، وأدى هذه الخدمة

مراراً، فمن خلال عمله ذهب رجالنا إلى القديس جورج وقاقون، ونتيجة لذلك وثق به اللورد إدوارد كثيراً إلى درجة أنه أعطى أوامر بأنه مسموح له التكلم إليه في أي وقت من النهار أو الليل.

وهكذا حدث أنه جاء في إحدى الليالي إلى غرفة اللورد إدوارد، حيث كان نائماً مع الملكة، وجلب معه مترجماً، وأعلن أنه قد جاء للتو من التجسس، وأنه يريد الحديث إلى اللورد إدوارد، وبناء عليه فتح اللورد إدوارد قاعته إليه، وكان مرتدياً قميصاً داخلياً وسراويل، وقابله المسلم وطعنه على وركه بخنجر، محدثاً جرحاً عميقاً وخطيراً، وشعر اللورد إدوارد أنه قد أصيب، فضرب المسلم ضربة بقبضة يده على جبينه، أوقعته على الأرض وهو فاقد للشعور لبعض الوقت، ثم التقط اللورد إدوارد خنجراً من على المنضدة التي كانت في القاعة، وطعن بها المسلم في الرأس وقتله.

وارتفع صوت الإنذار خلال الحاشية كلها، ورأى رجال البطانة بأن مولاهم مجروحاً، وارتفع الصراخ في جميع مدينة عكا، وبناء عليه اجتمع السادة مع بعضهم، واستدعوا جميع الأطباء والعبيد، الذين خيطوا جرحه، وسحبوا السم.

وتعافى بنعمة الرب بشكل جيد، وغادر في الثاني والعشرين من أيلول، وذهب عائداً إلى بلاده عبر البحر.

٣٨٣- وعندما حل عام ١٢٧٣ لتجسيد المسيح، مات الراهب توماس بيرارد، مقدم الداوية، وعمل الراهب وليم بيجو مقدماً، وكان من أكثر الناس نبالة، قريباً من ملك فرنسا، وكان ذا قلب عظيم، وصاحب كرم كبير في جميع أنواع القضايا، وكان محسناً كثيراً، ولهذه الأسباب كان واسع الشهرة، وكان الداوية في أيامه محترمين كثيراً، ومخشيا جانبهم، وفي الوقت الذي عمل فيه مقدماً كان القائد في أبوليا،

وقد مكث فيها وراء البحار لمدة عامين، يقوم بزيارات تفقدية لمقرات الداوية في ممالك: فرنسا، وانكلترا، واسبانيا، وقد جمع ثورة كبيرة، ثم جاء إلى عكا.

٣٨٤— في العام ١٢٧٤، وفي شهر أيار، عقد البابا مجمعاً في ليون على الرون، وفي ذلك الوقت جرى إلغاء رهبانيات: رهبنة الكيس Sack ، والرهبنة الرسولية، ورهبنات أخرى.

٣٨٥— وفي عام ١٢٧٥ للمسيح، مات الأمير بوهيموند السادس(الذي يدعونه الأمير الأشقر) وعمل ابنه الذي كان أيضاً يدعى بوهيموند أميراً، وقد كان هو آخر أمراء أنطاكية وكونتات طرابلس، وكانت له أخت كانت في أبوليا، وقد تزوجت من السير نارجوت الثالث أوف توسي Narjot of toucy أدميرال أبوليا، وكانت أمه أخت ملك أرمينيا.

ولهذا السبب كان بوهيموند السابع صغيراً جداً، وجلبت أمه أسقفاً إلى طرابلس الذي كان أسقف طرطوس ونائب بطريرك أنطاكية، وكان قد ولد في أنطاكية، ودعي بارتلميو، وقد كان رجل كنيسة عظيم، وكان الفرسان يمقتون بعمق حكمهم من قبل رجال الدين، لكنهم تحملوا ذلك، ولم يظهروا عدم رضاهم.

وأنا لن أقول شيئاً زيادة حول هذه القضية، بل بالحري سوف أخبركم حول مسألة أخرى.

٣٨٦— في عام ١٢٧٦، في اليوم السادس والعشرين من شهر آذار، خرج بيبرس سلطان القاهرة، مع جميع جيشه من القاهرة، ومضى إلى أرمينيا حيث تجول هناك، ودمر أشياء وعرض كل واحد تصدى له على حد السيف.

٣٨٧— ووصل في هذا العام نفسه السير وليم أوف روزيلون

إلى عكا في شهر تشرين أول، جالباً معه خيالة ورجالة Roussillon من عند ملك فرنسا، بحكم أنه كان قائداً لهم.

٣٨٨- وفي هذا العام نفسه مات البابا غريغوري العاشر، وعمل أنوسنت الخامس بابا، وفي العام نفسه، في اليوم الثامن والعشرين من حزيران، غرق السير هنري، ابن الأمير (والد الملك هيوج الثالث، ملك القدس وقبرص) خارج صور، حيث كان قادماً على ظهر سفينة كانت عائدة للفرسان التيوتون، وذاهباً إلى طرابلس، فقد اصطدمت السفينة بصخرة وتحطمت، وسحب السير هنري من البحر، وحمل إلى صور إلى عند ابنته، صاحبة صور (زوجة جون أوف مونتفورت، صاحب صور وتبرون)، وقد دفنوه داخل مشفى القديس يوحنا.

٣٨٩- ومات كذلك في العام نفسه، البابا أنوسنت الخامس، وأدريان الخامس عمل بابا، وقد مات في العام نفسه[١٨-آب ١٢٧٦].

لكن إنني أريد أن أخبركم حول خصام شديد وقع في سورية، كذلك في هذا العام نفسه.

٣٩٠- لقد سمعتم كيف أن الأميرة، أم الطفل الرضيع صاحب أنطاكية، قد جلبت إلى المدينة أسقف طرطوس، وجعلته حاكماً لطرابلس، وكان الآن هناك، خلال هذا الوقت صاحب لجبيل يدعى غي، كان ابن أخت صاحب بيروت، جون أوف إيبلين الشاب، الذي كان ميتاً، وبناء عليه كان صاحب جبيل يدعى غي أوف إيبلين، مع أنه انحدر من أسرة من مدينة جنوى، يعرف نسبها باسم امبرايكو Embriaco وكان جداه: وليم امبرايكو، الذي كان صاحب جبيل، وأخت الأمير، وبسبب أن هذا الأمير وأخته، كانا منحدرين من أسرة بو Baux ، الذين حملوا نجمة على دروعهم، حمل جميع سادة جبيل، وذريتهم أيضاً نجمة على دروعهم.

٣٩١- وامتلك صاحب جبيل هذا حباً عظيماً للأمير ١لجديد، وكان متزوجاً من الخالة الأولى للأمير [مرغريت] ابنة صاحب بوليان (الذي هو ميت الآن)، وكان صاحب جبيل هذا رجلاً بعيد الحدود، مع حضور عظيم، وكان ضخماً، مع أطراف كبيرة، أبيض، وأزرق العينين، ولون رائع، وشجاعاً، وشديداً، لكنه كان إلى التشدد والعناد، وكان له أخوين، كان أولها فارساً واسمه جولبر كان أيضاً فارساً رائعاً، وكان الآخر غلاماً اسمه بلدوين.

وحدث الآن أن طلب صاحب جبيل وجوب أن يعطي الأمير فتاة لأخيه جون، وامتلكت الفتاة إقطاعاً كبيراً، من خلال أبيها هيوج سلمان، ومنحه الأمير إياها، لكن أسقف طرطوس الذين لديه حفيدين خاصين به، أراد الفتاة لواحد من حفيديه، وضغط الأمير ليمنحها له، وعندما لاحظ صاحب جبيل هذا، مضى على وأنجز زواج الفتاة المذكورة من أخيه.

ولهذا السبب بات الأمير والأسقف غاضبين منه غضباً شديداً، وغادر صاحب جبيل مع أخيه طرابلس، وذهبا إلى جبيل، ثم صاحب جبيل إلى عكا، حيث صار فارساً مدنياً ملتحقاً بالداوية، هو ومقدم الداوية الراهب الفارس وليم أوف بيجو صديقين له، ووعده المقدم بالعون حينها يستطيع.

وبناء عليه عاد صاحب جبيل إلى جبيل، وأقام يتمتع بالإقطاع والإيجارات التي حصل عليها أخوه بالزواج، ولم يكن الأمير راضياً بالتساهل مع هذا الوضع، وهكذا كان هناك صراعاً بينهما، وقد امتلكا الآن فرصة جديدة، لممارسة الكراهية الشديدة الماضية بينهما.

٣٩٢- وحدث أن جاء صاحب جبيل مع قوة، واستولى على أخيه بالقوة، حتى يصبح متملكاً لهم، وتجاه هذا وعنده أصبح حانقاً كثيراً، ودعاه للمثول أمام المحكمة، ورداً على ذلك ذهب صاحب

جبيل إلى عكا، تحدث إلى مقدم الداوية، الذي أعطاه ثلاثين راهباً داوياً جلبهم معه إلى جبيل، ثم أثار حرباً معلنة ضد الأمير، وتسبب في أضرار جسيمة لأراضيه، ولذلك قام الأمير بتدمير بيت الداوية في طرابلس، واستأصل أحراش الداوية التي تعرف باسم Moncucu.

وعندما سمع مقدم الداوية بهذا، سلح غلايين وسفناً أخرى، وذهب إلى جبيل، فأخذ معه عدداً كبيراً من الفرسان الرهبان، ثم ذهب من جبيل إلى طرابلس، وحاصرها لعدد من الأيام، حيث لم يتجرأ أحد خلال ذلك الوقت على الخروج ضده، لا من خيالة ولا من رجالة، بل بالحري حرسوا أسوار المدينة، وهكذا غادر المقدم مع رجاله وعاد إلى جبيل، وعلى طريقه، قام المقدم بتدمير قرية كبيرة اسمها Chastelet عند البترون، ثم ذهب الداوية وحاصروا [قلعة إيمبرت] نفين Nephin ، وكانت قلعة حصينة على البحر[بين جبلة وطرابلس]، ملكاً لأمير طرابلس، وحدث في أحد الأيام أن تمكن اثني عشر فارساً داوياً، وفارساً علمانياً يدعى بولص أوف لى تفاحة Tffaha ، من شق طريقهم بالقوة، وهم على ظهور الخيل إلى داخل بوابة إيمبرت، لكن السيرجاندية الذين كانوا فوق البوابة، تمكنوا بالقوة من إغلاقها، وبذلك جرى حبس الذين دخلوا، وعندما باتوا داخل أسوار القلعة، رفضوا الاستسلام إلا على شروط الإبقاء على حياتهم، وهكذا تم أسرهم، ووضعوا في السجن، ثم أرسلوا فيما بعد إلى طرابلس، فاحتفظ الأمير بهم في سجنه في بلاطه.

٣٩٣—وترك المقدم جبيل وذهب إلى عكا، مخلفاً ثلاثين فارساً راهباً مع قائدهم الذي كان اسمه الفارس الراهب ماسي غولارت Mase goulart ، مع صاحب جبيل، وإثر هذا حشد الأمير جيشاً من الخيالة والرجالة، وقدم لمحاصرة جبيل، ولكن عندما كان بين البترون وبوي دي كونستابل Puy de conestable تلقى أخباراً، بأن رجال جبيل قد خرجوا، وبناء عليه نصح الأمير بأن عليه عدم

الذهاب شخصياً، فعاد من ذلك المكان إلى طرابلس، وأرسل رجاله ضد رجال جبيل، وكان عدد الذين خرجوا من جبيل ثلاثين فارساً راهباً، وفرساناً، وغلماناً، وتوركبلية، أي كان هناك مائة خيال من دون تعداد التابعين والرجالة، ومن طرابلس كان هناك أكثر من مائتي فارس، مع عدد كبير من الرجالة والتابعين.

وقد تحاربوا مع بعضهم بعضاً، وفي النهاية لحقت الهزيمة بالذين جاءوا من طرابلس، وكانت هزيمة سيئة، ووقع بالأمر ريموند الأخ النغل للأمير، وكذلك السير مانسيل حفيد أسقف طرطوس، الذي أصيب بضربتي سيف في جسده، وفقد السير روجر أوف لى كولي Colee ، ومثله حدث للسير وليم ترابوك Trabuc ابن مارشال طرابلس، ومن الآخرين الذين قتلوا أو أسروا، أنا لا يمكنني ذكر الأسماء، وقتل السير باليان، صاحب صيدا، الذي هو ابن السير يوليان، وأخو زوجة صاحب جبيل، وابن عم أول للأمير، فقد مات خنقاً، بعدما ترجل من على ظهر حصانه، وأثناء إزالته لدروعه، فقد التصقت فتحة واقية رقبته، ووجد رأسه داخل الواقية، فمات هكذا والدم يسيل من أنفه.

وعقدت بعد هذه المعركة هدنة عام واحد بين الأمير وصاحب جبيل.

٣٩٤—في عام ١٢٧٧ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، عمل يوحنا الحادي والعشرين بابا، وقد مات في اليوم الثاني عشر من أيار، وعمل نيقولا الثالث بابا في [٢٥] شهر تشرين ثاني، في يوم عيد القديسة كاترين.

٣٩٥—وحدث في هذا العام نفسه أن بيبرس، سلطان القاهرة، ذهب إلى التتار، وتحارب معهم، فانهزم هزيمة قاسية، حيث فقد معظم رجاله ثم عاد إلى القاهرة(١).

---

١ — وهم المؤلف هنا وأخطأ، فقد قاد بيبرس في عام ١٢٧٧ حملة إلى آسيا الصغرى، حيث هـ المغول، وأعلن عنه سلطاناً على الروم، لكن الاستيلاء على آسيا الصغرى لم يكن دائماً، فقد مات بيبرس في دمشق في ٣٠ حزيران.

٣٩٦ـ في عام ١٢٧٨ للمسيح، وفي شهر تموز، غادر الملك هيوج الثالث، ملك القدس وقبرص، عكا، وتخلى عن السيادة، تاركاً إياهم من دون حكومة، وأرسل رسالة إلى البابا قائلاً بأنه كان غير قادر على حكم البلاد أية مدة أطول، بسبب سلوك الداوية والاسبتارية، وذهب عائداً إلى قبرص، وكان هذا نوعاً من أنواع التظاهر، لأنه سمع بأن خالته الآنسة ماريا(التي تحدثه من أجل مملكة القدس)كانت في البلاط البابوي، وأنها أعطت مطالبتها إلى الملك شارل أوف أنجو، وأن الملك شارل قد بعث الكونت روجر أوف سينت سيفرينو Severino إلى عكا كممثل له، حتى يستولي على المملكة، ولم يرغب الملك هيوج أن يجده الكونت في عكا.

٣٩٧ـ وبعدما عاد الملك إلى قبرص بعث السير باليان صاحب أرسوف كنائب له يحل محله.

٣٩٨ـ في هذا العام، في شهر أيلول، وصل كونت أوف سينت سيفرينو، وكونت ماريسكو Marsico إلى عكا في ستة غلايين، عاملاً نيابة عن الملك شارل ولصالحه، وحمل معه رسائل من البابا ومن الملك شارل، ومن الآنسة ماريا، بأنها قد أعطيت مملكة القدس بموجب مرسوم من بلاط روما، وأنها أعطت حقوقها إلى الملك شارل، وأنه هو الآن ملك القدس ومولاهم.

وقرئت الرسائل على مسمع من جميع الناس، وخرج باليان أوف إيبلين صاحب أرسوف من القلعة، وتخلى عن النيابة، واحتل الكونت روجر القلعة وسكن هناك، وصنع الكونت تظاهرة كبيرة بأنه ذاهب إلى صور، غير أن جماعة البنادقة أرادوا الذهاب أيضاً من أجل تأمين حقوقهم، التي كانت موضع خلاف، لكن السير جون أوف مونتفورت [القرين]، صاحب صور وتيرون، قام بترتيب الأمور وتسويتها، على أساس ذلك ذهب النائب البندقي ألبيرتو موروسيني Alberto morosini

إلى قلعة إيمبيرت Casal imbert وعمل اتفاقاً معه، واسترد الخفوق البندقية كما كانت في صور.

٣٩٩— في العام ١٢٧٩ لتجسيد المسيح، عندما انتهت الهدنة فيما بين الداوية وأمير أنطاكية، وطرابلس، سلح مقدم الداوية ثلاثة عشر غليونا، وأرسلهم إلى جبيل، ووصل عدد من الرهبان الفرسان إلى الساحل، وقاموا بتحصين قرية تابعة للأمير اسمها دوم Dome ، وتحاربوا مع فرسان الأمير، وهزموهم، وقتل عدد من الرجال، ثم وصلت غلايين الداوية إلى خارج طرابلس، حيث حدث أنهم واجهوا مناخاً سيئاً، فغرق ثلاثة منهم قرب نفين، لكن رجال الداوية وجبيل، الذين كانوا محاصرون نفين، أنقذوا الرجال الذين كانوا في الغلايين.

٤٠٠— وبعد هذا، سلح الأمير خمسة عشر غليوناً، وأرسلهم إلى صيدا، وكانت مدينة تابعة للداوية، ونهبوا ودمروا جزيرة كانت خارجها، وأسروا عدداً من الداوية مع أناس من بطانتهم، وعادوا إلى طرابلس مع جميع منهوباتهم.

٤٠١— وصل في هذا العام(١٢٧٩) الملك هيوج الثالث، ملك القدس وقبرص إلى صور، جالباً معه عدداً كبيراً من الخيالة والرجالة، مفكراً باسترداد عكا، لكنه كان غير قادر على الذهاب إلى أي مكان، لأن مقدم الداوية كان ضده، ولذلك عاد إلى قبرص، حيث دمر مقر الداوية في ليماسول وصادر جميع ممتلكاتهم في قبرص.

٤٠٢— وفي هذا العام نفسه[١٢٧٩] مات مقدم الاسبتارية الراهب الفارس هيوج ريفيل، وعمل نيقولا لورني Lorgneمقدماً، وقد ذهب إلى طرابلس، وعقد صلحاً فيما بين الأمير والداوية، في اليوم السادس عشر من تموز.

لكنني سوف أحدثكم عن أشياء ممتازة حدثت للعالم المسيحي.

٤٠٣- وقام في هذا العام نفسه[١٢٧٩] في نهاية تشرين أول مجموعة من الاسبتارية من المرقب، قاموا بغارة ضد المسلمين في الخارج، وقد ألحقوا بهم الكثير من الأضرار والأذى، لأنهم وجدوا بلاداً جيدة التجهيز، وحصلوا على أعداد كبيرة من الحيوانات، ومنهوبات أخرى، وعندما كانوا عائدين إلى المرقب عبروا منطقة القصر الأبيض Chastel blanc ، حيث كان هناك مخيان للتركمان مع كثير من الأتراك من القاهرة وقد حشدوا ما يقارب الخمسة آلاف فارس، مع أعداد كبيرة من الرجالة، وطارد هؤلاء الاسبتارية، حتى مرقبة بسرعة كبيرة، وعند هذا انعطف الاسبتارية ضدهم، مع أنهم أنفسهم امتلكوا مائتي خيال، وهزموا المسلمين، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وجمعوا أسلاباً كثيرة، وعادوا إلى المرقب، وبرحمة الرب، فقدوا سيرجندي اسبتاري واحد فقط.

٤٠٤- وحدث في هذا العام نفسه [١٢٧٩] أن قاد بيبرس سلطان القاهرة جيشاً كبيراً، وزحف ضد التتار، ومضى بعيداً إلى أن وصل إلى المياه البارده، وعبر النهر، وفق الطريقة التالية، فقد قال لأمرائه:«على الذين يحبونني اتباعي»، ودخل النهر على ظهر حصانه على مرأى من كل واحد، وعبر من خلال المياه الجارية إلى الجانب الآخر، ولدى مشاهدة الآخرين لهذا نزلوا إلى الماء وعبروا، وغرق عدد كبير من الرجال والخيول، حتى أن الأحياء عبروا فوق الموتى، وقد وجدوا جسوراً مبنية كان التتار قد عملوها من أجل عبورهم، وهؤلاء لم يكونوا في المكان، لأن سلطانهم وضعهم في مكان، وجعل قواته تعبر، ثم سار لمدة يومين، وفاجأ مع قواته في اليوم الثالث معسكر التتار، وكان فيه عشرين ألفاً منهم، كلهم أخذوا على حين غرة، وانقض المسلمون عليهم، وقتلوا القسم الأكبر منهم، ونهبوا المعسكر كله، ثم إنهم انسحبوا وعبروا فوق الجسور، ثم دمروها، وذهبوا بعد هذا إلى دمشق، حيث وقع بيبرس فجأة مريضاً، ومات، ولقد قيل أنه سمم، وعمل ابنه الذي اسمه السعيد سلطاناً من بعده.

٤٠٥ — كان في بلاد المسلمين أميراً كبيراً اسمه قلاوون، وكان حـ
وكـان بيبرس السلطان الذي مـات يعتمـد كثيراً على نصيحته، وكـ
لقلاوون ابنة كـان قد أعطاها زوجة إلى السلطان الجديد السعيد، ن
الذي حدث أن السعيد مات خلال يومين في القاهرة، وحمل جثمانه
دمشق، حيث دفن إلى جانب قبر أبيه بيبرس، وعمل هذا الأمير الـ
قلاوون سلطاناً، وأخذ صبياً كـاناً أخا للسعيد وابنا لبيبرس، كان بـ
خضراً، وأرسله إلى المنفى في القسطنطينية، وقتل السعيد هـذا من
خاله، أخو أمه، الذي يدعى بيدرا، وكان أراد أن يكون سلطاناً(١).

٤٠٦ — وفي هذا العام نفسه لتجسيد المسيح، كان هناك حدثاً ذا
وقع للصليبيين الذين كانوا في قلعة المرقب، التي كانت ملكاً إلى مـ
القديس يوحنا في القدس، وهو أن تقول بأن المسلمين من المنطقـ
حولهم تجمعوا من كل جانب، وقد بلغ عددهم حوالي ستة آلاف
الخيالة مع كثير من الرجالة، وقدموا عازمين على حصار قلعة المر،
وقد هاجموا القلعة، ونهبوا جميع المنطقة، وعملوا كل الأذى الذي
يمكنهم عمله.

وبناء عليه قام رهبان فرسان الاسبتارية الذين كانوا داخل ـة
المرقب بالخروج ضدهم، واشتبكوا بالقتال مع الجيش الإسـ،
وأظهروا براعة في استخدام السلاح، إلى حد أنهم تمكنوا بمعونة ـ
من إلحاق الهزيمة بالمسلمين، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وربحوا كثير
المطايا ومن الحيوانات الأخرى، مع تجهيزات وأشياء أخرى، وعلينا أن
تعرف، أنه كـان في هذا الجيش كثيراً من الأتراك، ورجالاً متمين
وقساة في القتال، كانوا قد وصلوا إلى القلعة، وكان الآخرون
التركمان والمسلمين، وامتلك الاسبتارية ستمائة فارس فقط، ومعك
فقدوا اثني عشر سيرجندياً، مع راهب فارس واحد.

١- لا يمكن الاعتماد على هذه المادة، ومن المتوجب العودة إلى كل من عقد الجمان وبقية المصادر المـ

٤٠٧ — في عام ١٢٨١ لتجسيد المسيح، قدم التتار خارجين من بلادهم، ووصلوا إلى المياه الباردة في حشد كبير جداً، وأغاروا خلال بلاد حلب، وحماه، وحمص، وتوقفوا هناك، وألحقوا ضرراً كبيراً جداً بالمسلمين، وقتلوا كثيراً منهم، وكان ملك أرمينية معهم، كما كان معهم بعض الفرسان الفرنجة من سورية.

٤٠٨ — وعندما سمع السلطان الملك المنصور بهذه الأخبار، حشد جميع الخيالة والرجالة الذين كانوا لديه، وكانوا من الكثرة بمكان أنهم بلغوا ثمانين ألف خيال، وحوالي المائة ألف على الأقدام، وخرج من القاهرة، وذهب إلى حمص، وهناك تواجه مع التتار، وتحارب معهم في اليوم الخامس عشر من أيلول، خارج حمص، وكان اسم قائد التتار منغو تمور، وكان أخاً لأباقا، الخان الكبير للتتار.

والذي حدث هو أن المسلمين نزلت بهم ضربة قاسية، وفقدوا كثيراً من رجالهم، وقد دفعوا إلى الخلف وهزموا، حتى أن منغو اعتقد أنهم انهزموا هزيمة ساحقة، وفكر أنه ربح تمام الربح، فانسحب، لكن المسلمين تجمعوا من جديد، وانقضوا على التتار وهزموهم، وصار منغو في وضع سيء جداً بلغ حداً أنه أرغم على الهزيمة، وتخلى عن الميدان، وأدار ملك أرمينيا ظهره ومضى، لكن عند الدخول إلى أرمينية، انقض التركمان عليه، وقتلوا عدداً كبيراً جداً من رجاله إلى حد أن ثلاثين فقط من الفرسان قد بقوا معه عندما وصل إلى أرمينية.

٤٠٩ — وفي العام ١٢٨٢ لمولانا يسوع المسيح، سلح غي أوف إيبلين، صاحب جبيل غليوناً وسفينتين كبيرتين، واستأجر سيرجندية، كانوا كلهم جنوية تقريباً، لأنه امتلك ثقة كبيرة بهم، وكان هو نفسه واحداً منهم، وغادر جبيل في اليوم الثاني عشر من كانون الثاني، عند الليل، جالباً معه أخوين، وواحداً من أبناء عمه وهو وليم بورسيليت جبيل مع بعض الفرسان الآخرين، وخمسة وعشرين سيرجندياً خيالة،

وقرابة الأربعمائة من الرجالة، وقد وصل إلى طرابلس، وجاء وصوله إلى الساحل، إلى ما بين دير الداوية، ودير الدومينيكان، وعسكر كل من رجالته وخيالته فيما بينهما، ثم تدبر إغراق الغليون مع الكبرى من السفينتين الكبيرتين، وترك الصغيرة سليمة.

ثم إنه ذهب إلى مقر الداوية، وسأل عن قائدهم الراهب الفارس ريديكرر Reddecoeur لكنه لم يكن هناك فانزعج غي كثيراً، فغادر وتوجه نحو مسكن الأمير، وأرسل فارساً هو بطرس أوف لي تفاحة ليجلب بعض الأشياء من الغليون كان بحاجة إليها، لكن بطرس هذا ركب الـ Columbet مع أربع رايات وهرب إلى بيروت.

وكان صاحب جبيل في مسكن الأمير، عندما رأى أن الأشياء من الغليون لم تصل، وأن الناس في مسكن الأمير كانوا مدركين لوجوده، لذلك كانوا يخرجون متسلحين، لأن صوت الإنذار قد ارتفع، ففقد شجاعته كلها، وغادر، وذهب إلى مشفى القديس يوحنا، الذي كان مجاوراً لسور البلدة، وكان فيه بابا كان منه سيكون قادراً على المغادرة، لكنه أخطأ وعوضاً عن ذلك دخل إلى البرج، وكان رجاله معه.

٤١٠— واستيقظ الأمير الذي كان نائماً، وسلح نفسه، ووصل إلى مقر الاسبتارية مع رجاله، وحاصر البرج وصاحب جبيل وفرسانه، وعند هذا عطف قائد الاسبتارية على غي وعمل وفاقاً بينهم قضى بأن يمضي صاحب جبيل خمسة أعوام في سجن الأمير مع اثنين من إخوته وجميع رجاله، وأنه بعد مضي الخمسة أعوام ينبغي تحريره وإعادته إلى بلاده، وأقسم الأمير له حول هذا على إنجيل الرب المقدس، ولكن ما أن أصبحوا في يد الأمير وتحت سلطانه، حتى أقدم على اقتلاع أعين جميع الجنويين والأجانب، ثم إنه امتلك نوايا أكثر سوءاً نحو الذين هم من جبيل، لأنهم كانوا رجاله، لأنهم قد حشدوا أنفسهم وزحفوا ضده بالقوة، وبعث الأمير بصاحب جبيل وأخويه وابن عمهما وليم الجبيلي، وأندري

أوف كـلابيري Clapiere إلى إيميرت، ووضعهم هناك في خندق. وسوره عليهم، وأغلقه عليهم وهم في داخله، وقد ماتوا من الجوع.

٤١١— وانتشرت أخبار هذا بشكل واسع، وبناء عليه قام مـولاي جـون أوف مونفورت، صاحب صور وتبرون، بالركوب مباشرة مع رجاله، ووصل إلى بيروت، وأرسل غليوناً جنوياً- كـان في صور تحت إمرة بابانو مالوني Papano mallone- إلى جبيل ففي الليلة نفسها التي وصل فيها صاحب صور إلى بيروت، وكـان يستعد لعقد اجتماع للتشاور حـول كيف يمكنه الدفاع عن جبيل أضاءت النيران من مـواقد النيران احتفالاً بالمدينة، التي سقطت لرجال الأمير، وباتت مشاهدة على أسوارها، ولدى مشاهدة رجال الغليون هذا، عندما باتوا قريبين من البلدة، ولدى سماعهم الأصوات العالية بمدح الأمير، عادوا إلى صور، وقد ذلك فعل مولاي صاحب صور حيث رجع إلى صور.

٤١٢— وأقام البيازنة في عكا حفلة كبيرة بسبب اعتقال صاحب جبيل، وأناروا جهم وبيوتهم، واحتفلوا بالطبول والزمور والأبواق مع أنواع كثيرة من الآلات، وعملوا احتفالات رقص وشرب، مع جميع أنواع الأعمال الاحتفالية الأخرى، وقد ألبسوا رجلاً ثوباً ثميناً وجميلاً، مع حزام من الفضة، وسيف من الفضة، وأجلسوه في دكة حيث مثّل دور الأمير، وكـان هناك سيرجندية من حوله، وأخـذوا رجلاً آخر حجمه كبيراً وألبسوه ثوباً ووضعـوا عليه عباءة مبطنة بفرو ثمين، وجعلوه يمثل دور صاحب جبيل، وجعلوا السيرجـانـدية يأخـذونه ويحضرونه إلى أمام الأمير، حيث خر على ركبتيه أمامه، وقال الأمير له: «غي أوف إيبلين، هل تعرفني؟ أو لست أنا الأمير، مولاك؟»، وقد أجابه: « نعم يا مولاي»، ثم قال الأمير له: «سوف أجعلك تموت ميتة خائن»، وقد كرروا هذا ثلاث مرات أو أربع مرات خلال تلك الليلة.

٤١٣— خلال تلك الليلة التي كان البيازنة يحتفلون فيها، كان السير

توماسو سبينولا Tommaso spinola وهو رجل جنوي كبير من أسرة جنوية كبيرة- في عكا لقضاء بعض الأعمال، وكان مقيماً في مشفى القديس يوحنا، وقد رأى الاحتفالات التي كان البيازنة مقيمين لها، لأجل ما حدث لصاحب جبيل، فامتلأ بالكراهية، فأقسم ووعد أنه عندما سيعود إلى جنوى، سوف ينزل بهم من الأضرار بقدر ما يستطيع، وعلينا أن نعرف أنه فعل ذلك، وجاء ذلك أيضاً بسبب أنه هو الذي عمل معظم الإثارة وحرك الجنويين ضد بيزا، ولذلك عانى البيازنة من كثير من الأضرار، كما سوف تسمعون حول ذلك فيما بعد، ولقد كان هو أول من أنزل بهم الأذى، حسبما ستسمعون حول هذا فيما بعد، في هذا الكتاب.

لكنني سوف أدع الحديث عن هذا الآن، وسوف أحدثكم حول حوادث أخرى وقعت في هذا العام نفسه، عام ١٢٨٢ لتجسيد المسيح.

٤١٤—وحدث أن أعد ملك أراغون ثلاثين غليوناً وأربع سفن كبار، وسلحهم، عازماً على الذهاب إلى بلاد الإغريق للحصول على بعض المكاسب، كما أنه عزم على الذهاب ضد الملك شارل الكبير هناك، غير أنه لم يكشف بعد عن أي من هذا.

٤١٥— وكان امبراطور القسطنطينية [ميخائيل الثامن] باليولوغوس متوجساً وخائفاً من زحف الفرنجة ضده، ولذلك أبقى أذنيه مفتوحتين نحو ذلك الاتجاه، وعندما سمع عن استعدادات ملك أراغون، أدرك نواياه، لذلك أرسل رسولاً إلى ملك أراغون، وكان الرسول إلى ملك أراغون برجاسي جنوي يدعى السير بينيديتو زكاريا Benedetto zaccaria ، ليبحث عقد وفاق بينهما، مقابل مبلغ من المال أرسله الامبراطور إلى ملك أراغون، وأوصل السير بينيديتو زكاريا المبلغ إليه، ثم انصرف عائداً إلى بلاد الإغريق.

وعندما حصل ملك أراغون على المال، وباتت الغـلايين مجهزة، أقلع وذهب إلى صقلية، ومن هناك توجه نحـو بلرم، ليعـد من أجل ثورة المنطقة، وهكذا كـان أن ثارت بلرم ضـد الملك شـارل في يوم مـا بعـد الفصح، وفي شهر أيار ثارت مسينا، وقـد قتل أهلهـا عـدداً كبيراً من الرجال مما وراء الجبال.

٤١٦ — بناء على هذا حشد الملك شارل جيشـاً كبيراً، وجلب فرسانـاً مع خيالة آخرين ورجالـة، وأخذهم معه، ووصل إلى خـارج مسينا وحاصرها، وخرج أهل مسينا، وداسوا على الكروم وقطعوها وفعلوا الشيء نفسه بالبساتين، أمام عيني الملك شارل بالذات، وعندما رأى أن أهل مسينا يدمرون بالفعل كل شيء، ترك المكان، لأنه لم يرغب بتـدمير الأرياف، بل أراد بالحري أن تعود إلى وضعها المزدهر.

٤١٧ — وعندما حل شهر آب، وصل ملك أراغون إلى بلرم، جـالبـاً معه أربعة وعشرين غليونـاً وسفناً كبيرة، واستقبله أهل بلرم بالترحاب، ثم إنه ذهب إلى مسينا، فـاستقبله أهل مسينا بتشريف عظيم، وقبلوه بمثابة سيد لهم وملك، وأرسل بعـد هذا لإحضار زوجته التي اسمهـا كونستانـز، التي كانت ابنة الملك مانفرد، فمن خلالها طالب بالحق لوراثة مملكة صقلية.

لكنني سوف أدع إخباركم حول هذا، وسوف أخبركم حول شيء آخر.

٤١٨ — إنكم تعرفـون كيف أخبرتكم بأن الملك شـارل حصل على سيادة مملكة القدس من خلال الآنسة ماريا، ودعا نفسه «ملك القدس»، وعين السير أودو بويليشين Odo poilechien قهرمانا لمملكة القدس، وبعث به إلى عكا عوضاً عنه، وكـنائب له، وعاد الكونت روجر أوف سينت سيفيرنو إلى الغرب، ثم عمل فارس فرنسي مارشـالاً للمملكة، ووصل المارشال إلى عكا مع السير أودو بويليشين.

٤١٩ — وعند حلول اليوم الأول من آب عام ١٢٨٣م، وصل الملك هيوج الثالث ملك القدس وقبرص إلى بيروت، جالباً معه ولديه، وكان واحداً منهما، وهو الابن الثاني اسمه بوهيموند، وكان اسم الثاني، وهو الأسن، جون، وترك قبرص، وكان هناك ولداً آخر يدعى هنري، وهو الذي أصبح فيما بعد ملكاً، كما سوف تسمعون، وقد أحضر معه رجالاً مسلحين جيدين، وفرساناً، وآخرين.

وفي اليوم السادس من الشهر نفسه، غادر بيروت، وذهب إلى صور، وفي اليوم الذي وصل فيه إلى صور، سقطت رايته الشخصية مع رنك لوزنغنان في البحر، أثناء رسوه عند مدخل البلدة، وجرى حمل التوراة اليهودية لاستقباله ورجاله، حسبما جرت العادة التي يطبقونها نحو الملوك، وكان يهودياً اسمه صموئيل - وهو رجل لاهوت - هو الذي يسير خلف التوراة، وقد اصطدم برجل لاهوت مسيحي كان يحمل الصليب أمام المسيرة، وهكذا لأن الصليب كان مرتفعاً كثيراً، وقع فوق اليهودي، وحطم رأسه، وكان الملك - على كل حال - آنذاك في الكنيسة، ثم إنه امتطى فرسه، ومضى للإقامة في مسكن مولاي صاحب صور، وكانت مطاياه قد بقيت في بيروت، وجاء بعض رجال بطانته براً إلى صور، وعندما كانوا فيما بين الـ Chastelet والدامور، وعلى طريق سي، هاجمهم المسلمون، وجرى مقتل فارس وعدد آخر من عامة الناس، وأخذ بعضهم أسرى وهم أحياء.

٤٢٠ — في السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام نفسه، وبرضا من مولانا، المولى الجيد واللطيف، عبر من هذه الحياة مولاي جون أوف مونتفورت، صاحب صور وتبرون، وكانت هذه خسارة قاسية جداً، وقد دفن في الكنيسة الأم لصور، في داخل قبر أبيه، في عشية عيد القديسة كاترين[٢٤ — تشرين ثاني]، وكان هذا اللورد هو الأكثر حكمة في جميع القضايا، نحو الرب ونحو الإنسان، ولهذا كان

محبوباً من جميع أصناف الناس، خاصة الذين هم بطانته، الذين أحبوه كثيراً، وبكوه كثيراً.

وكانت زوجته أخت الملك هيوج الثالث، كما أخبرتكم من قبل، وكان اسمها مرغريت، وكانت سيدة صالحة كثيراً، وحكيمة، وجميلة جداً، ولم تنجب أولاداً منه، وعندما جرى استدعاء مولاي همفري، أخيه(الذي كانت بيروت بيده من خلال حق زوجته اسشيفا Eschiva التي كانت ابنة صاحب بيروت، جون أوف إيبلين) وصل، وفي تلك الليلة مات أخوه الأسن منه، مولاي صاحب صور، ولقد كنت موجوداً أثناء دفنه.

٤٢١ــ جمع الملك هيوج الثالث أوف لوزنغنان بلاطه، مع الجنويين، والبيازنة والبنادقة، ومنح بحضور الجميع اللورد همفري أوف مونتفورت بلاد تيرون، وقدم له السير همفري الولاء ومنحه أيضاً مدينة صور بناء على بعض الشروط، وهي أنه- أي الملك- إذا أعطاه مبلغ خمسين ألف دينار إسلامي في شهر آيار المقبل، فلسوف تتحول مدينة صور إلى الملك، وإذا لم يعطه الملك الخمسين ألف دينار إسلامي في أثناء ذلك الوقت، عندها سوف تبقى صور بحوزة مولاي اللورد همفري، لكن هذه القضية وقعت بشكل مخالف، كما سوف تسمعون.

٤٢٢ــ ووقع خلال هذه الأيام، أن الطفل بوهيموند، الجيد، واللطيف، والكريم، والأديب، الذي هو ابن الملك هيوج الثالث، خرج له على رقبته ورم قبيح جداً، وقد بعثوا وراء طبيبين من عكاء، قاما بفصده، لكن بسبب الورم وأمراض أخرى، فارق هذه الدنيا إلى العالم الآخر، وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني من ذلك العام نفسه [١٢٨٣]، وكانت هذه خسارة كبرى، لأنه كان جميلاً، وصالحاً، وأديباً.

٤٢٣ــ عندما حل اليوم الثاني عشر من شهر شباط من العام نفسه، فارق الحياة مولاي همفري أخو مولاي جون أوف مونتفورت، صاحب صور، وقد دفن في الكنيسة الأم في صور، في قبر أخيه، الذي كان يدعى جون، وكان جون ابن سيدة أخرى، كان والده قد تزوجها في الغرب، كانت ابنة عم من الدرجة الأولى للملك فرنسا، وهو الذي عندما كان غلاماً قدم عبر البحر لرؤية أبيه، وكان اللورد همفري هذا الذي مات، فارساً ممتازاً، مع حضور عظيم، إلى حد أن ملك فرنسا عندما رآه مرة، أقسم أنه أفضل فارس رآه قط حتى تلك الساعة، وترك هذا اللورد السير همفري خمسة أولاد وابنة، وكانوا أولاداً رائعين، وكان اسم الأسن بينهم جوني، ثم فيليب، ثم غيوتين Guytin ثم عموري، ثم روبين، وكان اسم الابنة أليسون، ومات ثلاثة من الأولاد وهم أطفال، وماتت الابنة بعد ذلك

بوقت قصير، ومات عموري كفارس شاب، ومات روبين أيضاً كفارس صغير جداً، وترك ثلاثة أبناء، كان اسم الولد الأول أنفريون Anfrion، والابنتين جانتي Jeannette، وهيلفس.

٤٢٤—ولدى حلول اليوم الرابع والعشرين من شهر آذار، الذي هو تاريخ نهاية عام ١٢٨٣، وبداية عام ١٢٨٤، فارق الحياة الملك النبيل كثيراً، هيوج الثالث أوف لوزنغنان، وشكل هذا خسارة كبيرة للمسيحية، بسبب فهمه العظيم وفضائله، فلقد كان ملكاً على القدس وعلى قبرص، وكان بهياً كثيراً، وفي غاية النبل أيضاً، حتى أنه لو كان بين ألف فارس، لأمكن للإنسان أن يميزه بينهم على أنه ملك، وقد وضعوه داخل ثلاثة توابيت متداخلة، وقد أغلقت بشكل جيد وختمت بالقار، وجاء القهرمان سيمون أوف مونتاولف إلى صور، ورافق جثمان الملك، مع جثمان ابنه، وجثمان والد الملك هيوج- الذي مات غرقاً- عائداً إلى قبرص، حيث وضعوا في الكنيسة الأم، التي اسمها القديسة صوفيا(الحكمة)، وهكذا حدث خلال أربعة أشهر، أن مات هؤلاء اللوردات الأربعة- أي الملك مع الآخرين- في صور، كما سمعتم.

٤٢٥—وجرى بعد ذلك، في شهر أيار من العام نفسه [١٢٨٤] تتويج اللورد جون الابن الأكبر للملك هيوج، ملكاً في قبرص، وأقيم احتفال عظيم بهذه المناسبة، غير أنه لم يعش طويلاً كما سوف تسمعون.

٤٢٦—وفي عام ١٢٨٤ نفسه، وفي اليوم الخامس من تموز، وصل رجال مسينا، الذين سلحوا أربعة وعشرين غليوناً، إلى خارج نابلس Naples التي كانت بيد الملك شارل، فقام ابن الملك شارل، الذي كان اسمه شارل أيضاً الثاني صاحب أنجو ١٢٨٥—١٣٠٩]، والذي كان في ذلك الحين أمير سالرنو، قام بتسليح ثلاثين غليوناً، وزحف للتصدي للغلايين من مسينا ومحاربتهم، لكن غلايين الأمير أرغمت

على الفرار، وهو، هو نفسه وقع بالأسر، مع رجال جيدين آخرين، وفرسان وآخرين، وجلبوا إلى السجن في مسينا.

٤٢٧— وفي هذا العام نفسه، في اليوم السابع من كانون الثاني [١٢٨٥] فارق الملك شارل الكبير الحياة، عندما كان في قلعة اسمها فوجيا Foggia.

٤٢٨— وفي اليوم الثاني عشر من آذار من العام نفسه، فارق الحياة الفارس الراهب نيقولا لورني، مقدم فرسان مشفى القديس يوحنا، وعمل جون أوف فيليري Villiers مقدماً.

٤٢٩— وفي العام المذكور نفسه أي عام ١٢٨٤[اقرأ: ١٢٨٥] وصل السلطان الملك المنصور إلى دمشق، وعمل استعداداته، وذهب لحصار المرقب، وهي قلعة تابعة لمشفى القديس يوحنا، واستمر الحصار من اليوم السابع عشر من نيسان إلى اليوم السابع والعشرين من شهر أيار، عندما استولى عليها صلحاً، وتوجه بتفكيره نحو برج الأمل، الذي انهار، ثم وجه السلطان جميع سكانه سالمين إلى طرابلس، وطرطوس.

٤٣٠— في العام ١٢٨٥ للمسيح، أطلق سراح الملك شارل- ابن شارل الكبير- أوف أنجو، وخرج من سجن مسينا مع الآخرين الذي أسروا معه.

٤٣١— في هذا العام نفسه، وفي العاشر من أيار، مات الملك جون الأول، ملك قبرص، وابن الملك هيوج الثالث، وقد مضى عليه بالملك عاماً واحداً فقط.

٤٣٢— وفي العام نفسه، جرى تتويج أخاه هنري، الذي هز الجنويين، ملكاً على قبرص.

٤٣٣— وفي هذا العام نفسه، ذهب الملك فيليب الثالث، ملك

فرنسا، وابن لويس التاسع، إلى جيرونا في أراغون، واستولى عليها بالسيف، ومات هناك، وحمل جثمانه وجلب عائداً إلى باريس، وفارق الحياة أيضاً لويس أوف بيجو، قهرمان مملكة فرنسا، وكان موته في جيرونا أيضاً ومثل ذلك حدث لإقطاعيين آخرين، وكان هذا القهرمان أخاً لمقدم الداوية، الفارس الراهب وليم أوف بيجو.

٤٣٤— وبعد مضي عشرين يوماً على وفاة ملك فرنسا، مات بطرس ملك أراغون، وغادر الفرنسيون ذلك المكان، وعادوا إلى فرنسا، والآن إنني سوف أدع هذا، لأحدثكم عن حادثة أخرى.

٤٣٥— وفي هذا العام نفسه، أي عام ١٢٨٥، أراد الملك هنري الثاني، ملك قبرص القدوم إلى صور، لكن بسبب أنه كان على علاقة سيئة مع الداوية، حيث بدا الأمر بالنسبة له، أنه لا يمكنه تحقيقه من دون حرب، بعث فارساً هو السير يولين لي يونغ Julien le Jaune بمثابة رسول إلى مقدم الداوية الفارس الراهب، وليم أوف بيجو، وأقام الرسول في مشفى القديس يوحنا للقديس في عكا، وتحدث عدة مرات مع مقدم الداوية، بطريقة أمكن بوساطتها إيجاد حل لخلافاتهم بتوقيع معاهدة، وكتبت هذه المعاهدة أولاً بخط يدي، مع أنني لم أضمنها داخل هذا الكتاب، لأنها ستكون طويلة جداً.

٤٣٦— وفي هذا العام نفسه، في اليوم الخامس من تموز.... [خرم بالأصل].

٤٣٧— ولدى حلول عام ١٢٦٨ لتجسيد المسيح، وصل الملك هنري الثاني، ملك قبرص إلى عكا، في يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، في شهر حزيران، ووصل معه خاله بلدوين أوف إيبلين، قهرمان مملكة قبرص، وجلب قوة رائعة جداً من الفرسان معه، مع خيالة ورجالة آخرين، وأسطول ممتاز من الغلايين والسفن الأخرى، وقد استقبل بتشريف عظيم، وببهجة كبيرة، واستقبلته مسيرة من الناس جميعاً،

وجلبته إلى الكنيسة الأم، التي تدعى كنيسة الصليب المقدس، وعندما كان هناك قال بأنه يرغب بالإقامة فقط في القلعة، لكن السير أودو بويليشين Odo poilechien الذي كان متملكاً للقلعة لصالح الملك شارل، كان قد وضع رجال الوحدة العسكرية العائدة لملك فرنسا، مع رجال آخرين مسلحين في داخلها منذ عدة أيام مضت، وكانوا قد بدأوا في تحضير آلات الحصار، وأعدوا القلعة لمقاومة الملك هنري.

٤٣٨— وأمام هذا الحال، اجتمع مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، ومقدم الألمان[التيوتون] اجتمعوا ثلاثتهم في مقر الداوية، ولم يذهبوا للترحيب بالملك واستقباله، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأنهم كانوا رجال دين، ولايريدون التورط في هذه القضية، وذلك من دون إسعاف الرحمة المريضة لأي من الطائفتين، ومباشرة عندما سمعوا الضجيج وأن الفوضى قد بدأت، وعندما شاهدوا رمايات السهام والنشاب والمقذوفات تتطاير هنا وهناك، وأن الذين كانوا بالقلعة كانوا يرمون بالاتهم، وأن المأساة وشيكة الوقوع، وصل المقدمون الثلاثة إلى المكان المتقدم الذكر حيث كان الملك، أي إلى الكنيسة، وقدموا له بهجة كبيرة، وتحدثوا إليه، ثم ذهبوا إلى القلعة، وتحادثوا مع السير أودو بويليشين، ورتبوا الأمور معه، على أساس أن يسلم السير أودو بويليشين القلعة إلى مقدمي المنظمات العسكرية الثلاث، وذهب الملك للإقامة في مسكن صاحب صور، خلف مقر[رهبان الضريح] المقدس، وبعد مضي أربعة أيام أعيد تسليم القلعة إليه، وذهب للإقامة بها.

٤٣٩— في هذا العام نفسه، في عيد[صعود] سيدنا في[١٥] آب، جرى تتويج الملك هنري ملكاً على القدس في صور، وقام بتتويجه الراهب بوناكورسو Bonnacorso رئيس أساقفة صور، وأقيمت احتفالات كبيرة في صور، وعندما وصل الملك إلى عكا، أقاموا احتفالاً استمر خمسة عشر يوماً في مكان في عكا يدعى Auberge تابع لاسبتارية القديس

فرنسا، وابن لويس التاسع، إلى جيرونا في أراغون، واستولى عليها بالسيف، ومات هناك، وحمل جثمانه وجلب عائداً إلى باريس، وفارق الحياة أيضاً لويس أوف بيجو، قهرمان مملكة فرنسا، وكان موته في جيرونا أيضاً ومثل ذلك حدث لإقطاعيين آخرين، وكان هذا القهرمان أخاً لمقدم الداوية، الفارس الراهب وليم أوف بيجو.

٤٣٤ — وبعد مضي عشرين يوماً على وفاة ملك فرنسا، مات بطرس ملك أراغون، وغادر الفرنسيون ذلك المكان، وعادوا إلى فرنسا، والآن إنني سوف أدع هذا، لأحدثكم عن حادثة أخرى.

٤٣٥ — وفي هذا العام نفسه، أي عام ١٢٨٥، أراد الملك هنري الثاني، ملك قبرص القدوم إلى صور، لكن بسبب أنه كان على علاقة سيئة مع الداوية، حيث بدا الأمر بالنسبة له، أنه لا يمكنه تحقيقه من دون حرب، بعث فارساً هو السير يولين لي يوني Julien le Jaune بمثابة رسول إلى مقدم الداوية الفارس الراهب، وليم أوف بيجو، وأقام الرسول في مشفى القديس يوحنا للقدس في عكا، وتحدث عدة مرات مع مقدم الداوية، بطريقة أمكن بوساطتها إيجاد حل لخلافاتهم بتوقيع معاهدة، وكتبت هذه المعاهدة أولاً بخط يدي، مع أنني لم أضمنها داخل هذا الكتاب، لأنها ستكون طويلة جداً.

٤٣٦- وفي هذا العام نفسه، في اليوم الخامس من تموز.... [خرم بالأصل].

٤٣٧ — ولدى حلول عام ١٢٦٨ لتجسيد المسيح، وصل الملك هنري الثاني، ملك قبرص إلى عكا، في يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، في شهر حزيران، ووصل معه خاله بلدوين أوف إيبلين، قهرمان مملكة قبرص، وجلب قوة رائعة جداً من الفرسان معه، مع خيالة ورجالة آخرين، وأسطول ممتاز من الغلايين والسفن الأخرى، وقد استقبل بتشريف عظيم، وببهجة كبيرة، واستقبلته مسيرة من الناس جميعاً،

وجلبته إلى الكنيسة الأم، التي تدعى كنيسة الصليب المقدس، وعندما كان هناك قال بأنه يرغب بالإقامة فقط في القلعة، لكن السير أودو بويليشين Odo poilechien الذي كان متملكاً للقلعة لصالح الملك شارل، كان قد وضع رجال الوحدة العسكرية العائدة لملك فرنسا، مع رجال آخرين مسلحين في داخلها منذ عدة أيام مضت، وكانوا قد بدأوا في تحضير آلات الحصار، وأعدوا القلعة لمقاومة الملك هنري.

٤٣٨ – وأمام هذا الحال، اجتمع مقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، ومقدم الألمان[التيوتون] اجتمعوا ثلاثتهم في مقر الداوية، ولم يذهبوا للترحيب بالملك واستقباله، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأنهم كانوا رجال دين، ولايريدون التورط في هذه القضية، وذلك من دون إسعاف الرحمة المريضة لأي من الطائفتين، ومباشرة عندما سمعوا الضجيج وأن الفوضى قد بدأت، وعندما شاهدوا رمايات السهام والنشاب والمقذوفات تتطاير هنا وهناك، وأن الذين كانوا بالقلعة كانوا يرمون بالاتجاهين، وأن المأساة وشيكة الوقوع، وصل المقدمون الثلاثة إلى المكان المتقدم الذكر حيث كان الملك، أي إلى الكنيسة، وقدموا له بهجة كبيرة، وتحدثوا إليه، ثم ذهبوا إلى القلعة، وتحادثوا مع السير أودو بويليشين، ورتبوا الأمور معه، على أساس أن يسلم السير أودو بويليشين القلعة إلى مقدمي المنظمات العسكرية الثلاث، وذهب الملك للإقامة في مسكن صاحب صور، خلف مقر[رهبان الضريح] المقدس، وبعد مضي أربعة أيام أعيد تسليم القلعة إليه، وذهب للإقامة بها.

٤٣٩ – في هذا العام نفسه، في عيد[صعود] سيدنا في[١٥] آب، جرى تتويج الملك هنري ملكاً على القدس في صور، وقام بتتويجه الراهب بوناكورسو Bonnacorso رئيس أساقفة صور، وأقيمت احتفالات كبيرة في صور، وعندما وصل الملك إلى عكا، أقاموا احتفالاً استمر خمسة عشر يوماً في مكان في عكا يدعى Auberge تابع لاسبتارية القديس

يوحنا، حيث امتلك الاسبتارية قصراً كبيراً جداً، وكانت هذه الاحتفالات هي الأجمل بين ما شاهده أي واحد منذ مائة عام، مع أعمال تسلية ومبارزات برماح من دون أسنة، وقد أعادوا تمثيل حكايات المائدة المستديرة، وملكة النساء Queen of feminie ، مع فرسان لابسين مثل النساء، يتبارزون مع بعضهم، ثم جلبوا راهبات ألبسوهن مثل الرهبان، وجعلوهن يتبارزون مع بعضهن، ومثلوا أدوار حكايات لانسلوت lancelot ، وتريستان Tristan ، وبيلاميد Pilamedes ، ومشاهد أخرى كثيرة جميلة، وبهيجة، ومفرحة.

ثم ترك الملك خاله، اللورد بلدوين أوف إيبلين، قهرمان مملكة قبرص، نائباً في عكا بدلاً عنه، وذهب عائداً إلى قبرص.

والآن سوف أدع تحديثكم عن الملك، وسأخبركم عن قضية أخرى.

٤٤٠- في هذا العام نفسه، أي عام ١٢٦٨ للمسيح، حدث أنه كان هناك سيداً عظيماً يدعى قاضي سينارکا Cinarca ، وهو صاحب جزيرة اسمها كورسيكا، وقد كان عضواً في كيمونة جنوى، لكنه أراد أن يكون رجلاً في كيمونة بيزا، وامتلك الجنويون في تلك الجزيرة قلعة كبيرة جداً اسمها بونيفاسيو Bonifacio ، كما كانت لديهم ممتلكات أخرى هناك، وعليكم أن تعرفوا بأن كيمونة جنوى قد أعطت جميع الأطفال الذكور، الذين ولدوا في قلعة بونيفاسيو اثني عشر بنساً يومياً، لتغطية نفقات العيش، وذلك إلى أن يبلغوا الرابعة والعشرين من العمر، وأعطوا إلى الفتاة التي ولدت هناك ستة بنسات يومياً إلى أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، وفعلت كيمونة جنوى هذا لإبقاء القلعة مسكونة.

٤٤١- والذي حدث الآن أن كيمونة جنوى سمعت بأن قاضي سينارکا يريد أن يكون عضواً في كيمونة بيزا، واهتم الجنويون بهذا الأمر وقدروه، فأرسلوا رجلاً إلى بيزا بمثابة رسول، حيث أنه أخبر البيازنة،

بأن عليهم عدم قبوله، مثلما كان الجنويين سيفعلون في مثل هذه القضية لو انعكس وضعهـا، ولم يرغب البيازنة بالسماع حول هـذه القضية، وتجنبوا البحث فيها، فأرسلوا على الفور رداً مرضياً، لكنه كان بلا معنى، وقام العدو من الجحيم، الذي يستهدف خلق الصراع والحرب بين الناس، بإعداد الأشياء بطريقة أن سفينة وصلت من سورية إلى جنوى، تحمل أخباراً عن شجار وسوء تصرف اقترفه البيازنة ضد الجنويين في عكا، وأثيرت المشاعر حول هذا كثيراً في جنوى، إلى حد أن كل واحد أخذ يصرخ «الحرب مع بيزا»، وفي هذا اليوم نفسه كانت هناك سفينة كبيرة في جنوى، مشحونة برجال من قبل البيازنة، وهي السفينة الكبيرة التي حملت رسول بيزا، الذي جلب الجواب إلى الجنويين حول قضية قاضي سيناركا، وقد غادرت هذه السفينة الكبيرة، وعادت إلى بيزا، من دون أن تنجز شيئاً.

٤٤٢— وسلحت كيمونة جنوى عشرين غليوناً، وعينت الأدميرال توماسو سبينولا قائداً عليهم، فذهب إلى الجزيرتين العائدتين إلى البيازنة، واللتان كانتا قريبتين من بيزا، واستولى عليهما، ونهب ودمر الجزيرة الأولى، التي تدعى بيانوسا Pianosa ، أما الثانية، التي كانت تدعى إيلبـــا Elba فقد تشاور سكانها مع بعضهم بعضاً، وأعطوا نساءهم وأولادهم رهائن إلى الجنويين، ووعدوا بالحفاظ على الجزيرة لصالح كيمونة جنوى، لكن خلال وقت قصير جداً، انضموا إلى كيمونة بيزا، وتخلوا عن رهائنهم.

٤٤٣— وبقي السير توماسو سبينولا في هاتين الجزيرتين، لكن بدا له أنه لن ينجز شيئاً سواء أبقي أم غادر، لا بل حتى إن رجاله حثوه بقوة على المغادرة، وفي تلك الأثناء تعهد بالبقاء لمدة يوم واحد، وليس أطول من ذلك، ولدى حلول اليوم التالي، ظهر بالأفق سفينتان شراعيتان مسلحتان، وما أن جرى تحديد موقع هاتين السفينتين، حتى تحركت

الغلايين لاعتراض سبيلها، فاستداروا وهربوا، ورميتا برميلاً في الماء، لكن الغلايين طاردوهما، وأمسكوهما، وانتشلوا البرميل من الماء، وقد وجدوا فيه عدداً من الرسائل، وقد علموا من هذه الرسائل، أن خمس سفن كبيرة، وخمسة غلايين للبيازنة كانت قادمة، حاملة مالاً قد جرى جمعه من قبل الموظفين الماليين في قلعتهم، المدعوة قلعة دي كاسترو Di castro، وأصيب البيازنة بمصيبة كبيرة من جراء هذا.

٤٤٤ـ وسلح الجنويون في العام التالي خمسة عشر غليوناً، وكان قائدهم هو السير إينريكو دي ماري Enrico dei mari، وعندما كان إينريكو دي ماري هذا ذاهباً للإغارة على البيازنة، أسر سفينة صغيرة، وقد عرف من خلال الرجال الذين كانوا على ظهرها، أن البيازنة كانوا يسلحون خمسة وعشرين غليوناً، كانت ستتولى مرافقة ثلاثة سفن كبيرة كانت ذاهبة لنقل رجال مسلحين إلى قلعة دي كاسترو في سردينيا، وحدث آنئذ أن خمسة غلايين جنوية تجارية، من التي كانت تسافر ذهاباً وإياباً إلى بيرنطة، قد عبرت بغلايين إينريكو دي ماري، فأرغمهم على البقاء معه لزيد من قوته بهم بشكل فعال، وذلك في حال وجد نفسه ضد الغلايين الخمسة والعشرين التابعة للبيازنة.

وبينما كانوا هكذا ينتظرون، ظهرت الغلايين الخمسة والعشرين والسفن الثلاث التابعة للبيازنة، وقد واجهوا عاصفة شديدة، فرقت السفن، لأن هذه السفن أبحرت طوال الليل، وفي الصباح كان البحر هادئاً تماماً.

والآن شاهد الجنويون البيازنة ذاهبين أثناء الليل، فطاردوهم طوال الليل، بوساطة أشرعة من القنب صغيرة، وذلك مع صعوبة كبيرة، وشدائد، وفي الصباح وجدوا أنفسهم على مرأى من السفن الكبيرة، فأغرقوا واحدة منهن، وهي التي كانت تحمل الخيول، ولقد تحاربوا مع بعضهم بحدة كبيرة، وأخيراً لم يعد بإمكان البيازنة المتابعة، فاستسلموا،

فأخذوهم إلى جنوى، وكان من بين الأسرى، كونت بيزي كبير، يدعى الكونت فازيو Fazio.

ولكن في النهار الذي جرى الاستيلاء فيه على سفن البيازنة- كما وصفت لكم- وصلت الغلايين الخمسة والعشرين الذين رافقوهم، أثناء النهار، ورأوا حادثة الاستيلاء على سفنهم، ثم هاجمهم الجنويون وأحاطوا بهم، وكانت هناك معركة فيما بينهم، وكان البيازنة قد ناضلوا من قبل ضد القوة الشديدة للمناخ طوال الليل، ثم إنهم لم يكونوا معتادين على القتال البحري، مثلما كان الجنوية، وعلاوة على ذلك انخفضت معنوياتهم عندما شاهدوا سفنهم وقد جرى الاستيلاء عليها، ولذلك انهاروا، وأسر الجنويون اثني عشر غليوناً أو ثلاثة عشر، وتجمع البقية كتلة واحدة بعيداً بعض الشيء، وكان الجنوية متعبين قد لحقهم الإنهاك، وكانت الشمس قد غابت، لذلك توقفوا عن القتال، وعملوا طوقاً من الغلايين حول السفن التي بقيت للبيازنة، من أجل الاستيلاء عليهم في الغد، لكن الذي وقع كان غير هذا، لأنه عند منتصف الليل قامت الغلايين الاثني عشر أو الثلاثة عشر التابعين للبيازنة الذين كانوا هناك، بالتسلل والفرار، وقد ابتعدوا ناجين سالمين باستثناء الأضرار التي عانوا منها أثناء المعركة.

٤٤٥—بعدما عانت كيمونة بيزا من الأضرار الكبيرة هذه- كما سمعتم- دون أن نحصي الأعداد الكبيرة من السفن الصغيرة والكبيرة، التي استولى عليها الجنويون، وانتزعوها منهم، بعد هذا كله عقد أفراد الكيمونة اجتماعاً قرروا فيه أن يغامروا بكل شيء، فقاموا بتسليح خمة وثلاثين غليوناً زيادة.

وامتلك أهل بيزا آنذاك رئيساً كبيراً في بيزا، وكان رجلاً عظيماً من البندقية يدعى السير أليبرتو موروسيني Alberto morosini ، وكان لديه عدداً كبيراً من الرجال جاءوا من البندقية، مدفوعاً لهم من كيمونة

بيزا، وقد وضعوهم على غلايينهم خارج المدينة، وقد غادروا ووصلوا إلى خارج مدينة جنوى، وكان قائدهم هو أليرتو موروسيني، وقد مكثوا هناك لمدة يومين.

٤٤٦- وسلح الجنويون على الفور سبعين غليوناً، وخلال هذه الأونة عدت أنواء سيئة، وبات البيازنة يخشون من المناخ السيء، لأن الساحل كان شديد الوعورة وقاسياً وكانت البلاد بلاداً عدوة، ولذلك غادروا وعادوا إلى بيزا، وإثر ذلك وعلى الفور هدأت الأنواء، وقام الجنويون الذين كانوا جاهزين، بالخروج خلف البيازنة، وتبعوا آثار الأشياء التي وجدوها طافية على وجه البحر، وهي التي كانت الغلايين التي سارت أمامهم قد رمتها، وأثناء مسيرهم على هذه الشاكلة، وجهوا باثنين وعشرين غليوناً من غلايينهم تحت قيادة قبطان اسمه السير بينيديتو زكاريا Benedetto Zaccaria ، إليه أظهروا علامة متفق عليها فيما بينهم، فاجتمعوا كلهم جميعاً مع بعضهم، وقرروا عدم إظهار غلايينهم كلها دفعة واحدة، بل أن يظهروا ستين فقط أو سبعين، وبذلك يمكن للبيازنة أن يأتوا عن طواعية ورغبة، ولقد تصرفوا هكذا: تحرك ستون من الغلايين بشكل مكشوف تحت الأشرعة، وبقي الثلاثون الآخرون في الخلف من دون أشرعة.

وعندما شاهد أهل بيزا عدداً قليلاً فقط من الغلايين، صعدوا مجدداً إلى ظهور غلايينهم وكان الموجود منها أربعة وثمانين، وقاموا بتسليح عدد من المسطحات والمراكب الأخرى، حيث شحنوهم برماة قسي عقارة.

٤٤٧- وعندما خرجت غلايين البيازنة، كان السير أليرتو موروسيني معهاً، وحث البيازنة على خوض هذه المغامرة، وكان هناك علمان يخفقان، واحد كان كله أحمر اللون، وكان على الثاني تمثال سيدتنا بلون أبيض، وهي ممسكة ليسوع المسيح بين ذراعيها.

وعندما أصبح البيازنة في الخارج، أدركوا أن لدى البنادقة من الغلايين أكثر مما ظهر، فأسفوا لخروجهم، لكن الوقت كان متأخراً كثيراً لعمل أي شيء حول ذلك، بسبب أنهم كانوا غير قادرين على الرجوع، ولذلك قرروا خوض غمار الامتحان، وكان هذا في يوم العيد الذي دعاه الجنويون عيد القديس سيكتوس Sixtus ، وكان يقع في اليوم السادس من آب، وهو اليوم الذي يحتفلون به في سورية باسم عيد القديس المخلص.

٤٤٨—وقد واجهوا بعضهم بعضاً من الصباح إلى المساء، وكان البيازنة مثقلين كثيراً بالسلاح، وكان المناخ حاراً جداً، ولذلك تعرقوا كثيراً، حتى أنهم باتوا مبللين تماماً، ولم يكن الجنويون مسلحين طوال النهار، ولذلك كانوا يشعرون بالبرودة والراحة، وإذا ما تساءلت: لماذا لم يهاجمهم البيازنة، عليك أن تعرف أنهم أرادوا فعل ذلك، باستثناء أن الجنويين ما كانوا لينتظروا مثل الذين احتلوا مراكزهم، حسبما سوف تسمعون، كما أنه لم يكن بإمكان البيازنة المغادرة من دون المعاناة من العار والخسارة.

وكانت غلايين البيازنة مثقلة بأطواق دفاعية مصنوعة من الحديد، وكان هذا أكبر وزناً مما تستطيع حمله، وذلك حسبما كان واضحاً، لأن كثيراً من الغلايين وضع لها إضافات شيدت فوق القيدوم: وكانت عبارة عن أطر حديدية، عندما تدار لها شفرات، كل منها بطول كفين وبعرض كف، جاءت مستديرة مثل طاحون، وامتلكت أيضاً مهاميز، تحولت كما وصفتها.

٤٤٩— عندما رأى الجنويون البيازنة واقفين في الشمس تحت السلاح، وعندما صارت الشمس خلفهم وزعوا الخبز والخمرة على رجالهم، ثم سلحوا أنفسهم، وتحركوا لتطويق غلايين البيازنة، وكانت المعركة قاسية جداً، وعند هذه النقطة، حدث أن السير بينيديتو زاكاريا

تدبر رفع أشرعة اثنين من غلايينه، وجاء بحبل طويل ومتين ربطه
سارية الغليون الأول إلى سارية الغليون الثاني، ثم اندفعا آخذين
طريقهما معاً، وذهبا إلى أحد جوانب غليون الأدميرال البيزي، حيث
ارتفع العلم الأحمر، وجاء الحبل عبر عصا العلم،(كان العلم على
الجانب الأول من الغليون الأول وكان هناك علم آخر على جانب
الغليون الثاني) وانكسرت عصا العلم، وسقط، وتشجع الجنويون بهذا
كثيراً، وطاردوا البيازنة وصرخوا بصوت مرتفع:"فوق، فوق، ونحن
البيازنة"، وألحقت الهزيمة بالبيازنة، ووقع بالأسر في ذلك اليوم ثمانية
وأربعين غليوناً مع قائدهم السير ألبرتومورووسيني، الذي أصيب في
وجهه، ووقع معه بالأسر اثنين من أقربائه.

٤٥٠— ومضى الجنويون عائدين إلى جنوى، جالبين معهم عدداً
كبيراً من الأسرى البيازنة، وقدموا الشكر إلى مولانا على هذا النصر.

٤٥١— وبعد هذه المأساة الكبيرة التي عانى منها البيازنة، ضعفوا
كثيراً، ولم يعودوا يمتلكون القوة على حشد الجيوش، وبعث الجنويون
السير بينيديتو زاكاريا مع بعض الغلايين إلى ميناء بيزا، فدمروا برجي
الميناء، ثم غادر السير بينيديتو وأقلع تاركاً خلفه ستة غلايين لحراسة
الميناء، وللتأكد أن ما من شيء يمكن أن يدخل إليه أو يخرج منه، وكان
البيازنة الآن في وضع سيء جداً، حيث عليكم أن تعرفوا أنهم فقدوا في
هذا الوقت وفي مناسبات أخرى كثيرة، اثنين وعشرين ألف رجل
مسلح، انتهى منهم سبعة عشر ألفاً في سجون الجنويين، وثمانية وخمسين
غليوناً، وأكثر من خمسين مركباً صغيراً، وجميع الذين كانوا قد وقفوا إلى
جانب بيزا في الحرب، تحولوا الآن إلى جانب جنوى عوضاً عن ذلك،
من أجل أن يكونوا قادرين على الإبحار في البحار بحرية.

٤٥٢— وتسلح الجنويون مرة أخرى، وذهبوا إلى بيومبينو Piombino
على ساحل بيزا، ونزلوا إلى البر، وخرج البيازنة- على كل حال- عليهم

من كمين، وقتلوا عدداً كبيراً من الجنويين، وأسروا آخرين، وكان ه
رجلاً نبيلاً جنوياً اسمه نيكولو دي ماري، قطع البيازنة رأسه على م
من الجنويين الذين كانوا في الغلالين، وانتقاماً لذلك قطع الجنو
رؤوس ثلاثمائة من البيازنة الذين كانوا أسرى عندهم.

٤٥٣— وبعد هذا سلح أهل بيومبينو غليوناً وسفينة مسطحة، ا
البنيان وسريعة، وأقلعوا للإغارة، فقد غادروا بيومبينو وانطلقوا للإ
ضد الجنويين، فألحقوا الأذى بعدد من القرى الصغيرة على سا
جنوى، وكانوا إلى حيثما ذهبوا واكتشفوا يغادرون ويذهبون إلى
أخرى، وتجاه هذا سلحت كيمونة جنوى خمسة غلايين، مضت خلف
ووجدوهم في المياه التونسية، وطاردوهم بمشابرة حتى التقوا
وعندما كانوا يطاردونهم كانوا رافعين للأشرعة، ولكن شراعاً وقع
الغليون الجنوي، لأن السارية انكسرت، وهكذا نجا البيومبينو
وكان الغليون الذي نجا، كما سمعت، عائداً إلى سيد بيومبينو ا
ميلانت Mailliant ، سمعته يروي ذلك إلى المقدم، وكان قا
الغلايين الجنوية الخمسة رجلاً شجاعاً متقدماً بالسن، لكنه لم يم
خبرة في القتال البحري.

٤٥٤— ثم إن السفينة المسطحة العائدة لبيومبينو ذهبت إلى عكا
سورية، وعاد السير أورلاندو أسكيري Orlando ascheri إلى جن
وتم الترتيب أن يذهب السير توماسو سبينولا maso spinola
بمثابة رسول إلى الأمير بوهيموند السابع صاحب طرابلس، وجرى إ
غليون من أجله، وكان على غلايين أورلاندو الخمسة مرافقته، لأن
معروفاً أن السفينة العائدة إلى بيومبينو قد وصلت إلى سورية، وأنها ا
بعض الأضرار بالجنويين.

وهكذا خرج من جنوى، ووصل إلى بافوس Paphos ا
الساحل الغربي لقبرص]، وترك السير توماسو سبينولا أورلا

أسكيري، وذهب لوحده في غلاييته إلى الاسكندرية، بمثابة رسول إلى السلطان، ومضى أورلاندو أسكيري مباشرة إلى ميناء عكا، ووصل بشكل غير متوقع في الليل، ووجد خارج الميناء عدة مراكب لصيادين تابعين ليبوميو وصلتا من وراء برج الذبان، ولم نعرف إلى أين لابد أن الذهاب، وقد هربتا إلى داخل الميناء، وقامت الغلايين الجنوية بمطاردتها مباشرة حتى ميناء السلسلة [داخل ميناء عكا إلى الجنوب الغربي]، ونجح واحد من الغلايين، فأنزلت مراكب إلى الماء، تولت جرّ الغليون.

وأحرقوا في فجر اليوم التالي (يوم السبت ليلة عيد العنصرة- حزيران ١٢٨٦) سفينة مسطحة كبيرة عائدة للبيازنة في ميناء عكا، وكانت ملكاً للسير ريموند دريير Drapier ، وكانت محملة بالبندق وببضائع أخرى، وسأل قائد الداوية تيوبولد غودين Gaudin أورلاندو أسكيري وترجاه من أجل الصيادين المساكين الذين أسرهم، وكمعروف بعثهم أسكيري إليه.

وغادر أسكيري في ذلك اليوم نفسه ذهب ليحتفل بعيد العنصرة في صور، وكان مقدم الداوية في قلعة الحجاج[عثليت]، وكان ميليانت أوف بيوميتو هناك مع سفينته المسطحة، بحجة التحادث مع مقدم الداوية ووداعه قبل الذهاب إلى الغرب، لكن كان في ذهنه شيئاً آخر، لأنه كان ناوياً مع السفينتين المسطحتين التابعتين لجماعته الذهاب نحو الاسكندرية لمقابلة السير توماسو سينولا، لأنه عرف أنه كان هناك، وعندما عرف بوصول الغلايين الجنوية إلى عكا، نقل غليونه إلى تحت أسوار القلعة، ووضع رجاله على اليابسة، ووصله في اليوم التالي خبراً بأن مولاي المقدم قد ذهب إلى صور، فذهب ميليانت بسفينته إلى عكا.

٤٥٥- ووصل مولاي المقدم إلى عكا، وقام البيازنة والبنادقة بتسليح عدد كبير من السفن المسطحة، وكان هناك ما مجموعه إحدى

عشرة سفينة مسطحة، يعني أن تقول ثلاثة عائدة ليبومينو، وسفينتين للبنادقة مع ستة سفن شحن خيول، غير أن سفن الشحن هذه كان فيها مجذف واحد على كرسي واحد يتولى التجذيف وبعض الجنود، وكان معهم أكثر من أربعين سفينة حربية مسلحة، كان فيها رماة قسي عقارة، وجرى تسليح سفن الشحن وأحيطت بألواح وترسة ربطت مع بعضها بعضاً، ورفعوا راية كبيرة، هي راية القديس مرقص، وعينوا عليهم أدميرالاً بندقياً، أنا لا أعرف اسمه.

٤٥٦ — وفي يوم السبت الثامن لعيد العنصرة وصلت الغلايين الجنوية إلى ميناء قلعة المركيز(١)، وكان هناك خمسة منهم مع سفينة كبيرة فيها ثمانين مجذفاً، ومركبين صغار، وخرج مولاي المقدم للتحادث معهم، ورجاهم أن يعودوا إلى صور، ووعد السير أورلاندو أسكيري بأنه سوف يعود، شرط عدم خروج أعدائه ضده، لأنه سكون من العار المغادرة في هذه الحالة، وأخبر المقدم أسكيري بأن البيازنة والبنادقة وعدوه بعدم الخروج من الميناء إلى أن يكون قد حمل الجواب إليهم، ولكن وهو يتفوه بهذه الكلمات وصل أسطول البيازنة، وذهب السير أورلاندو أسكيري لمواجهة البيازنة، وقام بتغيير صغير في التعبئة حتى يضرب هذه السفن على جانب تشكيلة العدو، التي كانت الريح قد فرقتها، وعندما رآه البيازنة يغير اتجاهه، اعتقدوا أنه لاذ بالفرار، فسخروا منه بصوت مرتفع كثيراً.

ومضى الجنويون بسرعة، وحصلوا داخل الميناء بسرعة كبيرة، حتى أنهم كانوا قادرين بسهولة كبيرة على تسليح أنفسهم قبل عودة البيازنة، وعندما اقترب البيازنة قاتلهم الجنويون برماح طويلة، وبحجارة، وبرمايات قسي عقارة، فقتلوا بعضاً منهم وأغرقوا الكثيرين، وتحرك البيازنة أكثر فأكثر نحو فرضة البنادقة، والتي باللذين كانوا بسفن الشحن

١ - ميناء صغير حصنه كونراد أوف مونتفورت، وقع على ساحل ضاحية Montmusard

في الماء، ورمى الجنويون بكلاب على سفينة الشحن التي حملت راية البنادقة من أجل سحبها، لكن ميليانت ألقى بمرساة من القيدوم، وعندما أدرك الجنويون أنه صعب سحبها، قطعوا حبل الكلاب، وتركوا سفينة الشحن مع جميع سلاسلها، التي عرضت فيها بعد أمام شرفة البنادقة.

وبقي السير أورلاندو أسكيري في الميناء لمدة ثلاثة أيام، خلالها لم يكن بإمكان أي واحد الخروج إلى الماء لفعل أي شيء، ثم غادر الجنويون وذهبوا إلى صور، ومن هناك عادوا إلى ميناء عكا، وقد انتظر البيازنة، ثم غادر، وعاد إلى صور.

٤٥٧ — بعث السير توماسو سينولا سفارته إلى السلطان، ثم غادر وعاد مباشرة إلى طرابلس حيث بعث رسالته إلى الأمير، ثم غادر متعداً، وبعدما غادر، أصدر الأمير أوامر قضت أنه عندما يعود السير توماسو سبينولا ليأخذ جوابه، ينبغي اعتقاله، ووضعه في السجن، غير أن فارساً كان في مجلس الأمير، أعلم مولاي المقدم حول هذا، وأعطاني المقدم الرسالة التي بعث بها الفارس إليه، لكن مع حذف اسم الفارس، وأرسلتها أنا إلى السير توماسو سبينولا من دون الاسم، وتمنع بسبب هذه الرسالة عن العودة إلى الأمير.

٤٥٨ — وبمجدداً، وفي وقت آخر، وصلت غلايين السير أورلاندو أسكيري إلى عكا والسير توماسو معه، وكانت هناك ستة غلايين، وقد أغلقوا ميناء عكا، وبذلك لم يعد بإمكان لا البيازنة ولا البنادقة الخروج، واستولوا على سفينة بيزية مسطحة، كانت واصلة من دمياط، وقد جنحت على الشاطىء، ونجا الناس منها، وتحدث السير توماسو سبينولا إلى مقدم الداوية في قلعة إيمبرت، ثم غادر وذهب إلى صور.

٤٥٩ — وبمجدداً وصل السير أورلاندو أسكيري إلى الميناء مرة ثانية، وبقي هناك أربعة أيام، وقال إنه لن يغادر ميناء عكا ما لم يطردوا البيوسيين من الميناء.

٤٦٠ — ورأى سادة عكا أن القضية المتصدي لها كانت تحدياً للمسيحية، وخطيرة، لأن المسلمين يمكنهم أن يحذوا حذوهم، لذلك بعثوا باثنين من الفرنسيسكان بمثابة رسل، طالبين منه مغادرة الميناء.

وكان رده بأنه سوف يغادر بناء على طلبهما، شرط أن يقوم سادة عكا بإعطائه وثيقة يصرحون فيها، أنه بناء على رغبتهم سوف يغادر الميناء، وقد أعطوه هذا الصك المطلوب، مختوماً بختم النائب الذي كان يمثل الملك، وبأختام الداوية والاسبتارية، وبهذه الطريقة غادر، ولم يعد ثانية، وما من أحد كان يمكنه أن يتخلص منه بطريقة أخرى، لأنه امتلك غلايين سريعة، وجاء وذهب حسبما رغب، وما من أحد من البيازنة رغب بركوب غلايينه للاشتباك بالحرب أكثر مما مضى.

وأنا الآن لن أقول لكم المزيد حول هذه القضية، لأنه لا يوجد المزيد ليقال، وسوف أخبركم حول شيء آخر:

٤٦١ — وفي العام نفسه، عام ١٢٨٧، إنه قد حدث أن سلطان مصر وقع في خصام شديد وصراع مع أمير كبير، اسمه سنقر الأشقر، الذي حرر من التتار مقابل ابن ملك أرمينيا، حسبما أخبرتكم أعلاه، وترك هذا الأمير مصر مع عدد كبير من الرجال، ووصل إلى دمشق، عازماً على إخضاعها لسلطانه، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك، لذلك غادر وذهب إلى قلعة يدعوها المسلمون باسم صهيون، كانت من قبل عائدة للأمير، واستولى عليها، وتحصن بها، ووضع نفسه في داخلها.

٤٦٢ — وعندما سمع السلطان بأنه قد استولى على القلعة أرسل قوة كبيرة من مصر تحت قيادة واحد من أمرائه واسمه طرنطاي، وقد قاد الجيش كله إلى قلعة صهيون وحاصرها، وحيث أن سنقر الأشقر لم يمتلك ما يكفي من قوة للخروج ضده، سلم القلعة، وغادر طرنطاي، ووصل إلى بلدة واحد من الأمراء، واسمها اللاذقية، واستولى عليها.

٤٦٣ــ وأريد الآن أن أحدثكم حول شيء حدث في نابلس إلى كونت أوف أرتوي في هذه السنة نفسها[١٢٨٧] في اليوم الرابع والعشرين من شهر حزيران، يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان.

فقد وصل أربعة وأربعون غليوناً من مسينا إلى نابلس، وقام كونت أوف أرتوي(الذي كان هناك يمثل الملك) بحمل السلاح وخرج للتصدي لهم، وتحارب مع الذين من مسينا، واستمرت المعركة من منتصف الصباح حتى المساء، وفي النهاية تمت هزيمة الرجال الذين من نابلس ووقع عدد من السادة الفرنسيين بالأسر أو قتلوا، ووقع كونت بريناي بالأسر ومثله السير جون دي مونتفورت، وكونت إسقويلاك Esquilac وكونت مونتسكاجليسو Montescaglioso ، والسير دي مونتفورت(الذي كان قد قطع رأس هنري أوف ألمين) والذي مات هناك بالسجن، وكان هناك كثيرون آخرين، أنا لا يمكنني أن أذكر أسماءهم، لكن كان لفقدانهم أثراً أليماً.

٤٦٤ــ وفي هذا العام نفسه ١٢٨٧، انتقل الأمير بوهيموند السابع، أمير أنطاكية وكونت طرابلس من هذه الدنيا، ومات في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين أول، ولم يكن هناك أميراً من بعده، لأنه لم يمتلك أطفالاً، فانتقلت الإمارة إلى إحدى أخواته، وهي زوجة السير نارجوت أوف توسي Narjot of toucy الذي كان أدميرال الملك شارل في أبوليا في ذلك الحين.

٤٦٥ــ وفي العام ١٢٨٨ للمسيح، حلت مصيبة بالمسيحية في سورية، أنا سوف أتحدث لكم عنها.

٤٦٦ــ فقد حدث أنه بعد وفاة الأمير المتقدم الذكر، اجتمع فرسان[أنطاكية- طرابلس] وذهبوا إلى الأميرة[أم الأمير المذكور]، وقالوا لها بأنهم يرغبون من قلوبهم أن تتفضل فتعين شخصاً ما ليتولى

حكم المدينة، لأنها هي نفسها لم تكن قادرة على القيام بالحكم بسبب معاناتها من فقدان ولدها، وقد وعدت بالبحث عن شخص ما يمكنه أن يحكمهم ويحكم البلاد أيضاً، وأخبروها بأنهم شاكرين تماماً.

٤٦٧ — وعلموا بعد مضي عدة أيام، بأنها عازمة على استدعاء أسقف طرطوس، الذي كانوا متصارعين معه، وعلى خلاف وعدم اتفاق، ووجدوا رسائل بأن الأميرة كانت جالبة له إلى داخل طرابلس، وقروا بين أنفسهم عدم التساهل مع هذا الأمر، وذهبوا إلى الأميرة وأروها الرسائل، وأخبروها بأن الأسقف كان عدوهم وأنهم لن يدعوه يحكمهم في هذا الوقت، وغادروا وقاموا بالتباحث، وأسسوا هناك كيمونة باسم العذراء مريم المباركة، أم الرب، وعينوا عليها قائداً، وعمدة، مع الأمور الأخرى التي اعتقدوا أنها ضرورية، وقاموا بإدارة أمورهم.

وفي سبيل تحسين وضعهم، بعثوا برسول إلى جنوى، كان كاتباً للعدل اسمه بيترو أوف أوبرغامو Pietro of aubergamo، وقالوا بأن عليهم إرسال واحد ما إلى طرابلس، ولسوف يعهد فرسان طرابلس بحكومتهم إليه.

وبناء عليه أرسلت كيمونة جنوى السير بينيديتو زاكاريا والخمسة غلايين، الذين وصلوا إلى طرابلس، وقد استقبلوه بترحاب كبير، وبسرور عظيم، وعندما وصل زاكاريا إلى طرابلس وجد مقدم الداوية، ومقدمي الاسبتارية و[التيوتون] الألمان، والنائب البندقي معسكرين خارج أبواب طرابلس في خيم وفي سرادقات، وأنهم وصلوا العقد معاهدة بين أخت الأمير السيدة لوسي Lucy وأهل طرابلس.

٤٦٨ — وسوف أحدثكم الآن حول هذه السيدة لوسي أوف أبوليا.

فعندما مات الأمير، ووصلت الأخبار إلى الغرب، قام السير نارجوت أوف توسي، الذي كان أدميرال الملك شارل، بإرسال هذه

السيدة التي كانت قريبته وأخت الأمير، بإرسالها إلى عكاء، وأخبرها أن تعتمد على فرسان القديس يوحنا، واستقبلها الاسبتارية ودعموها، وأخذوها إلى قلعة اسمها نفين، التي كانت على مسافة ثلاثة فراسخ عن طرابلس، ووقفوا إلى جانب السيدة وتحزبوا لها، على أساس أنها كانت السيدة والوريثة للأمير، واشتبك الاسبتارية عدة مرات بالقتال مع رجال طرابلس، حيث جرى مقتل عدد من الاسبتارية ومن الآخرين.

وبعث أهل طرابلس رسالة إلى السيدة المتقدم ذكرها، أخبروها فيها أنه كان مخفياً عنها، وأنها ينبغي أن تعلم تمام العلم بأن أخاها الأمير قد اقترف جريمة ضدهم، وأوضحوا لها كيف أن أباها الأمير وجدها كانوا يعاملونهم بشكل سيء، وذلك بكل من سوء التصرف الكبير، وباقترافهم أعمال عنف ضد الفرسان، والبرجاسية، والناس الآخرين.

وقالوا بأنهم لم يعودوا راغبين بالاستمرار بالمعاناة، كما فعلوا من قبل هم وأجدادهم، الذين استولوا على بلاط طرابلس، ولقد صبروا وتألموا، وفي سبيل تجنب البقاء أية مدة أطول في ظل هذه الأوضاع، قاموا بتنظيم وتأسيس كيمونة بين بعضهم، وذلك تشريفاً للرب ولسيدتنا التي منها أخذت الكيمونة اسمها، وأنهم لم يفعلوا ذلك الحرمان أي إنسان، كما أنهم لم يتصرفوا ضد الكنيسة المقدسة، بل بالحري فعلوا ذلك من أجل الحفاظ على حقوق كل إنسان وامتيازاته، وقالوا بأنهم على استعداد لاستقبال تلك السيدة، شريطة أن تقسم للكيمونة أنها سوف تدعم الكيمونة المذكورة وتحافظ عليها، وأوضحوا لها تماماً أنها إذا لم تقسم سوف لن يسمحوا لها بالدخول إلى طرابلس أبداً، في أي وقت من الأوقات، حتى لو اضطروا إلى رهن، أو بيع كل شيء كان لديهم، نزولاً إلى حد التضحية بنسائهم وأولادهم، وعند هذه النقطة أخبروا الغلايين الجنوية بالدخول، لأنهم غير راضين بالوصول إلى أي اتفاق معها، وبناء عليه قام السادة: مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية والألمان، ونائب

البنادقة] الذين قدموا إلى هناك للمحاولة بعقد اتفاقية، بالمغادرة وذهبوا عائدين إلى عكا دون إنجاز أي شيء.

٤٦٩ — وعقد السير بينيديتو وكيمونة طرابلس ميثاقاً مع كيمونة جنوى، ووعد الطرابلسيون الجنويين بمنحهم وإعطائهم جميع الحقوق العائدة إليهم، وأعطوهم في النهاية، في داخل مدينة طرابلس قسم الشوارع الذي كان عائداً إليهم، ووصلت السيدة لوسي إلى عكا، وذهب السير بينيديتو زاكاريا إلى ألمانيا.

٤٧٠ — وعزم السير بارتلميو الجبيلي على أخذ ابنة صاحب جبيل إلى ابنه، وأن تصبح ابنته زوجة لصاحب جبيل، الذي كان طفلاً، وتمت الموافقة على كثير من الحريات من قبل الفرسان والبرجاسية، ولقد كانت كثيرة جداً لأن نكتب عنها هنا، وأرسلوا رسائل حول هذه الأشياء إلى السيدة لوسي، قائلين أنها إذا ما رضيت بمطالبهم، وثبتت ما أعطي إلى الجنويين، وفقط ذلك دون أي شيء زيادة، إنهم سوف يستقبلونها، ولن يعطوا إلى الجنويين أي شيء آخر.

٤٧١ — وتسلمت السيدة هذه الرسالة، وعقدت مشاورات حول محتويات الرسالة، وانتقلت الرسالة من يد إلى يد، حتى قام أحدهم بنسخها، وأرسلها إلى السير بينيديتو زاكاريا في أرمينيا.

٤٧٢ — وتسلم السير بينيديتو هذه الرسالة وهو على طريقه إلى طرابلس، وبعدما قرأها وفهم محتواها لم يدع أحداً يعرف أنه عرف أي شيء، بل تابع طريقه ودخل إلى طرابلس، وبقي هناك لمدة يوم ثم غادر وذهب إلى صور، وبعث إلى عكا إلى السيدة لوسي قائلاً إنها إن رغبت بالقدوم والتباحث حول قضية الكيمونة معه، عليها القدوم إلى صور، وتلقي مشورته، وأوضح لها تماماً أنها إذا لم ترغب بالقدوم، هو سوف يحضر خمسين غليوناً من جنوى إلى طرابلس، وبعد ذلك لن تكون أبداً صاحبة طرابلس.

وعندما سمعت السيدة هذه التعليمات التي بعث بها السير بينيديتو، اتبعت مشورة الاستيارية الذين سلحوا سفينة من أجلها، وأخذوها إلى صور، إلى حيث جاء إليها الراهب الفارس بونيفيس أوف كالاماندرانا Calamandrana ، الذي كان سيداً كبيراً من الاستيارية، وقد تحادثا مع السير بينيديتو، وكانت هناك مباحثات فيما بينهم إلى أن وصلوا إلى اتفاق يرضي الطرفين، ثم ذهبوا إلى طرابلس.

لكنني سأدع أخباركم حول هذا العمل، وسوف أحدثكم حول قضية أخرى ذات علاقة.

٤٧٣— ثم إنه حدث أنه عندما وصل الجنويون إلى طرابلس- كما أخبرتكم- ذهب اثنان من الناس إلى الاسكندرية إلى السلطان (يمكنني إعلامكم من كانا لو أنني ملت إلى ذلك)، وتحادثا مع السلطان، وأظهرا له كيف أن طرابلس بإمكاناتها الذاتية، من دون الجنويين، تستطيع أن تسلح عشر إلى خمس عشرة سفينة، لكن الآن والجنويون قد وضعوهم في قبضتهم، سوف يكونوا قادرين على تسليح ثلاثين، لأن الجنويين سوف يتدفقون على طرابلس من جميع الجهات، وإذا ما استحوذوا على طرابلس، سوف يتحكمون بالأمواج، والذي سيحدث إثر هذا، هو أن الذين سيأتون إلى الاسكندرية سيكونون تحت رحمتهم سواء أكانوا قادمين أو آيبين، أو في داخل الميناء، وستكون لهذا نتائج سيئة جداً على التجار الذين يعملون في مملكتك.

٤٧٤— وعندما سمع السلطان بهذا، بدا التهديد له حقيقياً، وظهر له أن الأشياء سوف تسير وفق هذا المنحى، ولذلك انطلق يعمل، كما أصبح واضحاً فيما بعد، وكان بين أشياء كثيرة، أنه حمل مشاعر كراهية نحو أمير طرابلس، لأن الأمير كان في دمشق عندما استولى التتار عليها وأذل المسلمين وأهانهم كثيراً، وبناء عليه تشاور السلطان مع أمرائه، وقرر أن يذهب إلى طرابلس، وأعد رجالاً مسلحين، وأقام محطات

إمداد على طول الطريق، لكن كان هناك أميراً متقدماً كثيراً بالسن، وكان واحداً من الأربعة الذين يحكمون بلاد المسلمين، فهذا جعل مولاي مقدم الداوية مطلعاً على هذه التطورات، وكان هذا الأمير يعرف باسم أمير سلاح(بدر الدين بكتاش الفخري) وكان معتاداً على إعلام مقدم الداوية بالقضايا التي كانت تهم الصليبيين، وذلك كلما رغب السلطان بإلحاق الأذى بالصليبيين بأي سبيل من السبل، وكلف هذا الاتصال المقدم هدايا كل عام، أرسلها إليه.

وعندما غادر السلطان الصالحية مع جميع قواته، أرسل المقدم رجلاً من بطانته إلى شعب طرابلس، ينذرهم بأن السلطان كان قادماً لمهاجمتهم في طرابلس، ولم يرغبوا بتصديق هذا، وقالوا بأن السلطان قادم للاستيلاء على قلعة نفين، وتفوه آخرون بكلام قبيح حول المقدم، إلى حد أنه أراد من تحذيرهم حتى يحتاجوه ليكون وسيطاً بينهم وبين السلطان، وبذلك يبدو المقدم وكأنه قد أقنع المسلمين بالرجوع، لكن في الحقيقة هم لم يكونوا قادمين على الإطلاق.

وبعدما قطع السلطان المزيد من الطريق، أرسل المقدم رسولاً آخر، وكان هذا شخصية قيادية هو الراهب الفارس ريديكور Reddecoeur ، وكان فارساً راهباً اسبانياً[وقائداً للداوية في طرابلس]، وقد أوضح لهم بأن السلطان كان قادماً ضدهم، لكنهم ظلوا متأرجحين بين الشك واليقين، وقرروا على كل حال القيام بعمل ما، وعاد ريديكور إلى عكا، ثم وصل السلطان إلى خارج طرابلس.

ووصل إلى طرابلس مولاي أمارلك أوف لوزنغنان(أخو الملك هنري الثاني ملك القدس وقبرص، والذي كان يدعى صاحب صور وقهرمان مملكة القدس) إلى طرابلس، جالباً معه رجالاً مسلحين جيدين، وفرساناً وآخرين، ووصل إلى هناك أيضاً مارشال الداوية غيوفري أوف فيندك Geaffrey of vendac ، ومثله فعل الفارس الراهب بطرس أوف

مونكادا Moncada ، والراهب الفارس ريـديكور، وكثير آخرون من الرهبان الفرسان الاستبارية، وعدد كبير من فرسان وسيرجندية ملك فرنسا، ووصل أيضاً البيازنة، الذين كانوا أعداء للجنويين ولأهل طرابلس ولذلك كانت فيا بينهم كراهية شريرة مستمرة، حتى الاستبارية الذين كانت مشاعرهم سيئة جداً نحو أهل طرابلس، وذلك بسبب الحرب التي كانوا خاضوها ضدهم منذ وقت قصير عندما استحوذوا على نفين وصلوا، ومثل هذا كانت هناك ثلاث سيدات كبيرات: كانوا زوجة الأمير [وأخت الأمير] ومولاتي صاحبة صور، وهي التي كانت زوجة مولاي جون أوف مونفورت، صاحب تيرون، والذي كان يشغل وظيفة نيابة طرابلس، والذي كان أقرب الورثة إلى وقت وصول السيدة لوسي، وكان هناك كثير من شعب البلاد، وكانت المدينة مليئة برجال ممتازين، وفرسان، وبرجاسية وآخرين.

٤٧٥ـ حاصر الملك المنصور مدينة طرابلس في يوم الخميس السابع عشر من شهر آذار لهذا العام[١٢٨٩] وقدم جميع الناس الذين ذكرتهم للتو لمساندتها، حيث وصل بعضهم قبل الحصار، وبعضهم بعده.

٤٧٦ـ وأعد السلطان آلات حصاره، الصغير منها والكبير، وأبراج وأدوات أخرى خارج البلدة، مع النفوط ووسائل الإحراق والنيران، وهاجم ريف المدينة، وحفر أنفاقاً تحت الأرض، واستطاع الدخول إلى أول إطار في الدفاعات.

٤٧٧ـ وكانت المدينة جيدة الدفاعات مع أسوار قوية من الحجارة، لكن السلطان هاجمها وضغط عليها وجعل الهجوم ضد الأماكن الأضعف من المدينة(برج الأسقف) الذي كان مدافعاً عنه بشكل جيد، وقصفته آلات الحصار بشكل متواصل حتى أنه تصدع تماماً، وبات أجزاء، ومثل هذا برج الاستبارية، الذي كان جديداً ومتيناً، وقد خرق بشكل سيء حتى بات بإمكان حصان أن يمر من خلاله، وكان لدى

السلطان عـدداً كبيراً من الرجـال حتى أنه كـان هناك في كل مكان عشرين مسلماً من الرماة، ولذلك ما من أحد من رماتنا تجرأ على إظهار نفسه ليرمي إما بالقوس العادي أو بالقوس العقار، فلو حاولوا فعل ذلك، لأصيبوا على الفور.

ولذلك باتت المدينة في حالة سيئة كثيراً، وفي وسط هذا كله، قام التجار البنادقة الذين كانوا هناك في غليـونين، بالتجمع للذهاب إلى أرمينيا، لأنهم رأوا أن المدينة كانت على وشك السقوط، وعندما رأى بينيديتو أن البنادقة كانوا يقومون بالانسحاب، خاف من أنهم سيأخذون الغـلايين ويتركـوه ورجـاله واقفين هناك، ولم يكن أمـامهم طريق للانسحاب إذا احتاجوه، ولذلك سـوف يضيعـون، وخوفاً من هذا، انسحب هو ورجاله إلى الغلايين.

وعندما أدرك المسلمون أنه بات لدى المدينة عدداً قليلاً من المدافعين، ضغطوا عليها بشدة، ولذلك ضعفت المدينة بالنهاية، واستولى المسلمون عليهـا بحملة واحـدة، في اليوم السـادس والعشرين من نيسان ذلك العام[١٢٨٩] بسبب عدم وجـود مـا يكفي من المدافعين، الذين تخلوا عن الدفاع واحداً تلو الآخر.

وبالنسبة للسيدات الثلاث، اللاتي ذكرت أسماءهن، فقد نجين وهن: زوجة الأمير، وأخت الأمير، والسيدة لوسي، وكـذلك صاحبة صور، زوجـة السير جـون أوف مـونتفورت، ومثل ذلك فعل جميع السادة الكبار، الذين سوف أذكرهم لكم، بما في ذلك السير آمالرك، أخو الملك هنري الثاني(الذي كان يدعى صاحب صور، لأنه بعد وفاة السير جون أوف مـونتفورت وأخيه السير همفري، أعطى الملك مـدينة صور إليـه، وجعله قهرمـان مملكة القدس)، ونجا أيضاً مـارشال الداوية، مثلما فعل قائد الاستبارية الراهب الفارس متى أوف كلير مونت، والسير جون غليري Grailly ، قائد الوحدة الفرنسية، وكافل مملكة القدس، فلقد

انسحب هؤلاء جميعاً..... [فراغ] ..... رجال فقراء، وكان بين الذين قتلوا السير بارثلميو الجبيلي، وعمدتها وقائدها، ونجا السير هنري الجبيلي، وقتل في المعركة الراهب الفارس بطرس أوف مونكادا Moncada ، قائد الداوية، ومثله كان حال وليم كاردونا Cardona الذي كان راهباً فارساً داوياً، ووقع الراهب الفارس ريديكو بالأسر، ومثله وقع أيضاً الراهب الفارس هيوج ابن كونت أوف أمبورياس Ampurias ، وفارساً راهباً داوياً، وتم قتل بعض الفرسان الرهبان التابعين لمشفى القديس يوحنا، أو وقعوا بالأسر.

٤٧٨- وهكذا حلت فاجعة كبيرة بمدينة طرابلس، كما أخبرتكم، وخرج السلطان فدمر المنطقة كلها، لذلك لم يعد بإمكانك رؤية بيت واحد قائم، وهذا هو سبب أن المسلمين بنوا بلدة جديدة في مكان يدعى تلة الحجاج، يبعد أقل من فرسخ عن البحر فوق طرابلس، ودعيت البلدة باسم طرابلس الجديدة.

٤٧٩- وبعد سقوط طرابلس، غادر الملك هنري الثاني قبرص، ووصل إلى عكا بعد مضي أربعة أيام، فعقد هدنة ما بين سورية وقبرص والسلطان، وأقسم الملك والسلطان الأيمان لبعضهما بعضاً، وعاد السلطان إلى مصر، وعاد الملك هنري إلى قبرص في اليوم السادس والعشرين من أيلول لهذا العام[١٢٨٩] تاركاً أخاه السير أمالرك صاحب صور في عكا، في مكانه.

والآن سوف أحدثكم عن الطريقة وعن السبب الذي أدى إلى استيلاء المسلمين على عكا.

٤٨٠- حدث أنه بسبب سقوط طرابلس، أرسل البابا عشرين غليوناً لمساعدة مدينة عكا، وجرى تسليح هذه الغلايين في البندقية، وكان قائدهم نبيلاً كبيراً من البندقية اسم يعقوبو تيبولو Tiepolo

ابن الدوج لورنزو Lorenzo تيبولو صاحب البندقية(الذي كان ميتاً)، ومعه جاء فارس، كان ملاك أراضي كبير اسمه روكس أوف سللي Roux of sully ، وكان هناك عدداً كبيراً من عامة الناس من إيطاليا قد حلوا الصليب ووصلوا إلى عكا.

وعند وصول هؤلاء الناس إلى عكا، كانت الهدنة التي عقدت ما بين الملك والسلطان محافظاً عليها بشكل جيد بين الفريقين، ووصل فقراء مسلمون إلى عكا يحملون بضائع ليبيعها، كما اعتادوا أن يفعلوا، وحدث في أحد الأيام، بوساطة العدو الذي هو من جهنم(الذي يرغب بالإعداد إلى أعمال شريرة بين الناس الجيدين)، فالصليبيون الذين قدموا ليعملوا صالحاً، ولتسليح أنفسهم للتفريج عن مدينة عكا، تسببوا بدمارها، لأنهم اندفعوا في أحد الأيام خلال عكا، ووضعوا فقراء الفلاحين الذين جلبوا سلعاً(من كل من القمح وأشياء أخرى) ليبيعوها في عكا، وضعوهم طعمة للسيف، وكان هؤلاء مسلمين من القرى التي حول عكا، وقتلوا أيضاً عدداً من الملتحين السريان، الذين كانوا من أتباع الكنيسة الإغريقية(فقد قتلوهم بسبب لحاهم ظانين أنهم مسلمين).

وكان هذا عملاً سيئاً بالفعل، لأن عكا جرى الاستيلاء عليها من قبل المسلمين بسبب ذلك، كما سوف تسمعون.

٤٨١ – عندما جرى قتل الفلاحين، كما سمعتم، رويت الأخبار إلى السلطان في القاهرة، الذي غضب غضباً شديداً بسبب ذلك، واشتد غضبه ضد شعب عكا، وحملت قمصان الذين قتلوا وهي مضرجة بالدم إليه، وبما أن السلطان كان يخطط لإلحاق الأذى الشديد بمدينة عكا، قام على كل حال على الفور، بإرسال رسائل إلى سادة عكا، فيها أنه كان قد عقد هدنة مع الصليبيين، وأنهم قد خرقوا الهدنة، وذبحوا فلاحيه المسلمين، وطالب بالتكفير والتعويض وتطبيق العدالة بحق الذين اقترفوا هذا.

واجتمع سادة عكا للتشاور حول القضية، وكان من بين الكلام الذي جرى تبادله بينهم، أن مولاي مقدم الداوية أشار، بأخذ المساجين الذين كانوا سيقتلون لسوء أفاعيلهم، من الذين كانوا في السجن الملكي، وفي سجون الداوية، والاسبتارية، والبيازنة، والبنادقة، وأن يقولوا: هؤلاء هم الأفراد الذين خرقوا الهدنة وقتلوا الفلاحين المسلمين، وبذلك سوف يهدأ السلطان ويذهب غضبه، ولسوف نحوله عن نيته بإلحاق الأذى بنا، بوساطة العدل الذي سوف ينزل بهم، لأنه سيموتون على كل حال.

وكان هناك من وافق على هذه الفكرة، لكن عدداً كبيراً آخر لم يوافق أبداً، وفي النهاية لم يقوموا بأي إجراء، وبعثوا بما بدا لهم أنه جواب مناسب للسلطان، وبقدر ما سمعت أنهم أخبروا السلطان بأن الصليبيين الذين اقترفوا هذا العمل هم غرباء من بلاد ما وراء البحار، وليسوا خاضعين لعدالتهم، وأنهم كانوا غير قادرين على وضع إصبع عليهم.

وتلقى السلطان هذا الجواب بغضب، فحشد قواته، وآلات حصاره، وجمع أيضاً جيشه من الرجال المسلحين، وانطلق، وأقام محطات في الصحراء على طول طريقه، مع معسكرات وإمدادات، وأرسل واحداً من أمرائه واسمه[ركن الدين] طقصو[المنصوري] إلى المنطقة القريبة من عكا، حيث بقي هناك لمدة أربعة أشهر بين قلعة عثليت وقيسارية، وقطعوا الأخشاب التي كان يمكنهم أن يصنعوا منها آلات الحصار ضد مدينة عكا، وقال بأن هذه الآلات سوف تذهب إلى مصر، لذلك لم يكن بإمكان الصليبيين أن يدركوا ماذا كان بالفعل يصنع، وفي الوقت نفسه قام أمير السلاح، الذي كان صديقاً لمقدم الداوية، بإخبار المقدم بأن السلطان كان يقوم بجميع الاستعدادات للقدوم لحصار عكا.

وقام مقدم الداوية، على الفور، بإخبار سادة عكا بهذا، لكنهم لم يرغبوا بتصديقه.

٤٨٢ — وعند حلول شهر تشرين الأول من العام ١٢٩٠ لتجسيد مخلصنا يسوع المسيح، غادر السلطان الملك المنصور القاهرة، ووصل مع قواته إلى مكان اسمه الصالحية، وهنا أصابه مرض ومات، وأنا سوف أشرح لكم سبب موته في هذا الكتاب.

٤٨٣ — كان هذا السلطان تولى تربية صبي تركي، ورقاه حتى وصل إلى درجة لم يعد هناك من هو أقوى منه في بلاد المسلمين غير السلطان، وكان اسمه طرنطاي، وقد قيل الآن أنه بسبب سلطته الكبيرة، أظهر شموخاً كبيراً حيث اعتقد أنه سيكون السلطان إذا مات السلطان، ولهذا مضى بعيداً إلى حد دس السم إلى السلطان بطريقة تم كشفه بها.

وعندما كان السلطان على وشك الموت، دعا إليه ابنه الأكبر، وأخبره بأنه يموت، ولذلك كلفه وطلب منه أن يتابع تنفيذ المهمة التي بدأ بها، أي أن يذهب ويستولي على عكا، وأن ينتقم لدماء المسلمين القتلى، ووعده ابنه بفعل ذلك، ثم التمس السلطان منه إعدام طرنطاي، لأن طرنطاي قتله بالسم، ونفذ الابن كل شيء عهد به أبوه إليه، كما سوف تسمعون.

٤٨٤ — عند هذا مات السلطان، ثم دفن، وعلى الفور قام ابنه الأكبر في تلك الليلة باعتقال طرنطاي، وقد ألقي به أمامه، على ظهره، مع يديه وقدميه مربوطة بشدة، فجثا فوق صدره، ونتف لحيته بيديه، وقال له: «خائن، لقد ذبحت أبي، أنا سوف أقتلك، وأمر بأخذه وقتله، وجرى تقطيعه ولم يدفن، وقال بعض الناس بأنه اعترف بدس السم للسلطان، ومهما كان الحال، ذلك وصف كيف مات.

ولم يتحرك جيش مصر من المكان الذي كان فيه، خارج القاهرة، ورأى السلطان الجديد، الذي هو ابن الذي مات، والذي هو نفسه دعي باسم الملك الأشرف، أن الجيش كان مستعداً وأن محطات الطريق موزعة على جميع الطرقات، فانطلق ليذهب إلى عكا مع عدد كبير من الرجال

على الخيول وعلى الأقدام، ولقد قيل إنه كان لديه أكثر من سبعين ألف فارس، وما يزيد على مائة وخمسين من الرجالة، أو أكثر، وكان في عكا إذا أحصينا النساء والرجال والأطفال ثلاثين ألفاً أو أربعين ألفاً من الناس، كان بينهم ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة من الفرسان والرجالة، وإذا أحصينا الصليبيين فقد كانوا حوالي الثلاثة عشر ألفاً.

٤٨٥ ــ وعندما سمع الذين كانوا في عكا بأن الملك المنصور قد مات- كما سمعتم- فرحوا كثيراً، واعتقدوا بأنهم أنقذوا، لكنهم لم يتوقعوا هجوم السلطان الآخر، الملك الأشرف مع جيشه في السنة الأولى من سلطنتـــه، وعبروا عن دهشتهم الكبيرة تجاه هذا، ولذلك أعدوا آلات حصارهم والأشياء الأخرى التي احتاجوها، وشحنوا دفاعاتهم بالرجال بشكل جيد، ورفعوا درجة الإنذار، كما يفعل الإنسان، عندما يكون هناك عدو.

وأعد أهل عكا جميعاً أربعة رسل حتى يذهبوا إلى السلطان، مع هدايا أرسلوها له، وكان الرسل: السير فيليب مينبوف Mainebeuf ، وكان فارساً من عكا، عرف لغة المسلمين بشكل جيد، وراهب من الداوية، فارساً اسمه بارثلميو بيسان Pisan ، كان قد ولد في قبرص، وفارساً راهباً من الاسبتارية، وكاتب اسمه جورج، وقد مثلوا أمام السلطان، لكنه رفض الرسائل والهدية، ووضع الرسل في السجن.

وحدث أنه قبل إرسال الرسل إلى السلطان، أرسل السلطان رسالة إلى مقدم الداوية، وتمت ترجمة النص العربي إلى الفرنسية على يدي، وأخذت أنا الترجمة وأريتها إلى مولاي المقدم وإلى جميع سادات عكا، وإلى البطريرك، وإلى النائب البابوي، وإلى مقدم الاسبتارية الراهب الفارس جون أوف فيليري Villiers ، وإلى قائد الألمان (الذين كان مقدمهم قد نال غضب سادة عكا، فذهب للعيش في أبوليا)، وأريتها إلى القنصل البيزي، وإلى النائب البندقي، الذين كانوا جميعاً غير راغبين

بقبول حقيقة بأن السلطان كان قادماً، إلى أن وصل تقريباً، وفي
الساعة أرسل أهل عكا رسلهم إليه كما سمعتم.

٤٨٦ — دعوني الآن أريكم فحوى الرسالة، التي بعث بها السل
إلى مقدم الداوية، وانتبه إلى نوع التحية التي بعث بها السلطا
رسالته، التي مضت كما يلي:

«سلطان السلاطين، ملك الملوك، مولى الموالي، الملك الأش
القوي، والمخيف، سوط عذاب المتمردين، مطارد الفرنجة والت
والأرمن، منتزع القلاع من أيدي الكفار، صاحب البحرين، خ
الحرمين الشريفين خليل الصالحي

إلى النبيل مقدم الداوية، الصادق والحكيم.

تحيات رغباتنا الطيبة، بسبب أنك كنت رجلاً صادقاً، نرسل لك
لنخبرك بنوايانا، وجعلك تفهم أننا قادمون إلى هذه المناطق لنصحح ا
الذي اقترف، ولذلك لانريد من جماعة عكا إرسال أية رسائل أو ه
[حول هذه القضية] لأننا لن نتسلمهم بأي حال من الأحوال».

٤٨٨ — هكذا كان أمر رسالة السلطان ورعبها، كما سمعتم، و
الالتزام بها جاء فيها وعلى الرغم من ذلك، إنهم لم يتخلوا عن إر
رسل له، حسبما أخبرتكم، وقد جرى اعتقال الرسل، والقي به
السجن في القاهرة، حيث هلكوا فيها بعد، بشكل بائس.

٤٨٩ — وصل السلطان إلى أمام عكا، وحاصرها في يوم الخ
الخامس من نيسان، في العام ١٢٩١ لتجسيد المسيح، واستولى عليه
اليوم الثامن عشر من أيار من العام نفسه، والآن سوف تعلمون ك
وقع ذلك.

٤٩٠ — ونصب السلطان خيامه ملاصقة لبعضها، وذلك من تو

طوال الطريق حتى السومرية، وعلى هذا تغطى السهل كله بالخيام، وكانت خيمة السلطان نفسه التي عرفت باسم الدهليز منصوبة فوق تلة صغيرة، حيث كان هناك برج جميل جداً، وحدائق غناء وكروم للداوية، وكان هذا الدهليز كله أحمر اللون، وكان بابه مفتوحاً في مواجهة مدينة عكا، وكانت عادة السلاطين أن يعرف كل واحد أن الاتجاه المفتوح نحو باب الدهليز، سوف يكون الاتجاه الذي سيأخذه الطريق، وقد مكثوا ثمانية أيام في عكا، دون عمل أي شيء، سوى بعض المصادمات بين قواتنا وقواتهم، حيث قتل فيها عدد قليل من على الطرفين.

وعند نهاية الأيام الثمانية، جلبوا آلات حصارهم ووضعوها، ووزنت الحجارة التي رموها، كل واحدة منها قنطاراً، وكان بين هذه المجانيق واحداً اسمه «غضبان»، وقد نصب أمام محلة الداوية، وكان اسم المنجنيق الذي تولى الرماية على محلة البيازنة «المنصوري»، وكان هناك أيضاً واحداً كبيراً جداً، أنا لم أعرف اسمه، تولى الرماية على محلة الاسبتارية، وتولى منجنيق رابع الرماية على برج كبير يدعى البرج الملعون، وهو موجود عند السور الثاني، وكان هذا البرج مملوكاً من قبل الملك.

٤٩١ – وقد أقاموا حواجز دفاعية كبيرة، وستائر حاجبة، وكانوا يقصفون الأسوار من خلالهم في الليلة الأولى، وحركوهم في الليلة الثانية وقدموهم كثيراً إلى الأمام، وزادوا من تقديمهم في الليلة الثالثة، وظلوا يدفعونهم نحو الأمام إلى أن أصبحوا على حافة الخندق تقريباً، وكان خلف هذه السواتر رجال مسلحين ترجلوا من على خيولهم، والقسي في أيديهم، وإذا كنت تتساءل كيف سمح لهم بالوصول إلى هذا القرب، إن الجواب هو أنه كان من غير الممكن إيقافهم، كما سوف أشرح لكم الآن.

وكانت خيالة هؤلاء القوم مسلحين تماماً ودارعين، على خيول مدرعة، وقد انتشروا من الجانب الأول من اسية إلى الجانب الآخر،

يعني أن تقول من الشاطيء من الجانب الأول إلى الشاطيء على الجانب الآخر، وكان هناك أكثر من خمسة عشر ألف منهم، وقد عملوا على شكل أربع فئات في اليوم، ولذلك ما من واحد منهم تعرض للإنهاك، ولم يخرج ولا واحد من رجالنا ضد الذين كانوا وراء الستائر، لأنهم لو فعلوا فإن الذين كانوا بالخلف[في الخط الأول للعدو] سوف يدافع عنهم، ويقطع الطريق، وكذلك لو حدث أن رجالنا خرجوا ضدهم، فإن الرجال الذين هم على ظهور الخيول كانوا سيدافعون عنهم.

وهكذا زحف المسلمون في النهاية حتى حافة الخندق- كما أخبرتكم- وحمل كل رجل من الذين كانوا ظهور الخيول أربعة إلى خمسة حزم على رقاب خيولهم، ورموهم خلف السواتر، وعند حلول الليل وضعوهم أمام السواتر، وربطوا حبلاً على القمة، وأصبحت الأكوام مثل جدار، ما من منجنيق يمكن أن يؤذيه وقد رمينا عليه من خلال بعض الآلات المتوسطة، وقصفناه من دون أثر، وكل ما حدث أن الحجارة وقعت مرتدة في الخندق.

وأحضر العدو بعد ذلك الآتهم من الجمال السود Carabohas ، وهي عبارة عن آلة صغيرة تعمل باليد، وهي اختراع تركي، مع درجة عالية من الرمايات، وقد أوقعت أضراراً برجالنا أكثر من الآلات الكبيرة، ففي الأماكن الذي كانت ترمي به« الجمال السود» ما من واحد تجرأ على الخروج إلى العراء، ووضعوا أمام« الجمال السود» حواجز قوية وعالية كثيراً إلى حد أن ما من واحد كان يمكنه أن يضرب أو أن يرمي الذين كانوا يرمون بالجمال السود، واستمرت هذه الحالة طوال قيامهم باللغم، وكان هناك أميراً كبيراً اسمه سنجر الشجاعي، تولى قيادة الجانب المعادي المواجه لبرج صغير عند الأسوار الأولى في مواجهة البرج الملعون، وقد عرف هذا البرج باسم برج الملك، ولغم سنجر الشجاعي هذا نحو البرج، كما أنه لغم واحداً من الأسوار، عرف باسم سور الملك، وقد

طوال الطريق حتى السومرية، وعلى هذا تغطى السهل كله بالخيام، وكانت خيمة السلطان نفسه التي عرفت باسم الدهليز منصوبة فوق تلة صغيرة، حيث كان هناك برج جميل جداً، وحدائق غناء وكروم للداوية، وكان هذا الدهليز كله أحمر اللون، وكان بابه مفتوحاً في مواجهة مدينة عكا، وكانت عادة السلاطين أن يعرف كل واحد أن الاتجاه المفتوح نحو باب الدهليز، سوف يكون الاتجاه الذي سيأخذه الطريق، وقد مكثوا ثمانية أيام في عكا، دون عمل أي شيء، سوى بعض المصادمات بين قواتنا وقواتهم، حيث قتل فيها عدد قليل من على الطرفين.

وعند نهاية الأيام الثمانية، جلبوا آلات حصارهم ووضعوها، ووزنت الحجارة التي رموها، كل واحدة منها قنطاراً، وكان بين هذه المجانيق واحداً اسمه «غضبان»، وقد نصب أمام محلة الداوية، وكان اسم المنجنيق الذي تولى الرماية على محلة البيازنة «المنصوري»، وكان هناك أيضاً واحداً كبيراً جداً، أنا لم أعرف اسمه، تولى الرماية على محلة الاسبتارية، وتولى منجنيق رابع الرماية على برج كبير يدعى البرج الملعون، وهو موجود عند السور الثاني، وكان هذا البرج مملوكاً من قبل الملك.

٤٩١ — وقد أقاموا حواجز دفاعية كبيرة، وستائر حاجبة، وكانوا يقصفون الأسوار من خلالهم في الليلة الأولى، وحركوهم في الليلة الثانية وقدموهم كثيراً إلى الأمام، وزادوا من تقديمهم في الليلة الثالثة، وظلوا يدفعونهم نحو الأمام إلى أن أصبحوا على حافة الخندق تقريباً، وكان خلف هذه السواتر رجال مسلحين ترجلوا من على خيولهم، والقسي في أيديهم، وإذا كنت تتساءل كيف سمح لهم بالوصول إلى هذا القرب، إن الجواب هو أنه كان من غير الممكن إيقافهم، كما سوف أشرح لكم الآن.

وكانت خيالة هؤلاء القوم مسلحين تماماً ودارعين، على خيول مدرعة، وقد انتشروا من الجانب الأول من امدينة إلى الجانب الآخر،

يعني أن تقول من الشاطىء من الجانب الأول إلى الشاطىء على الجانب الآخر، وكان هناك أكثر من خمسة عشر ألف منهم، وقد عملوا على شكل أربع فئات في اليوم، ولذلك ما من واحد منهم تعرض للإنهاك، ولم يخرج ولا واحد من رجالنا ضد الذين كانوا وراء الستائر، لأنهم لو فعلوا فإن الذين كانوا بالخلف[في الخط الأول للعدو] سوف يدافع عنهم، ويقطع الطريق، وكذلك لو حدث أن رجالنا خرجوا ضدهم، فإن الرجال الذين هم على ظهور الخيول كانوا سيدافعون عنهم.

وهكذا زحف المسلمون في النهاية حتى حافة الخندق- كما أخبرتكم- وحمل كل رجل من الذين كانوا ظهور الخيول أربعة إلى خمسة حزم على رقاب خيولهم، ورموهم خلف السواتر، وعند حلول الليل وضعوهم أمام السواتر، وربطوا حبلاً على القمة، وأصبحت الأكوام مثل جدار، ما من منجنيق يمكن أن يؤذيه وقد رمينا عليه من خلال بعض آلاتنا المتوسطة، وقصفناه من دون أثر، وكل ما حدث أن الحجارة وقعت مرتدة في الخندق.

وأحضر العدو بعد ذلك الآنهم من الجهال السود Carabohas ، وهي عبارة عن آلة صغيرة تعمل باليد، وهي اختراع تركي، مع درجة عالية من الرمايات، وقد أوقعت أضراراً برجالنا أكثر من الآلات الكبيرة، ففي الأماكن الذي كانت ترمي به« الجهال السود» ما من واحد تجرأ على الخروج إلى العراء، ووضعوا أمام« الجهال السود» حواجز قوية وعالية كثيراً إلى حد أن ما من واحد كان يمكنه أن يضرب أو أن يرمي الذين كانوا يرمون بالجهال السود، واستمرت هذه الحالة طوال قيامهم باللغم، وكان هناك أميراً كبيراً اسمه سنجر الشجاعي، تولى قيادة الجانب المعادي المواجه لبرج صغير عند الأسوار الأولى في مواجهة البرج الملعون، وقد عرف هذا البرج باسم برج الملك، ولغم سنجر الشجاعي هذا نحو البرج، كما أنه لغم واحداً من الأسوار، عرف باسم سور الملك، وقد

ضغطوا بشدة عليه، حتى أن رجالنا ألقوا النار فيه، وجعلوه يتهاوى، وعمل المسلمون لغماً آخر ضد برج كونتسة أوف بليوس (الذي كان قد عمل عندما قدمت إلى هذا الجانب من البحر من أجل نفسها)(★)، واهتم رجالنا بالدفاع عنه، وقاتلوا مدافعين بشدة، لكن المسلمين أحضروا رجالاً جدداً كل يوم، لأنهم امتلكوا عساكر كثيرة.

واجتمع رجالنا في أحد الأيام وقرروا القيام بانقضاض عام على جميع الجهات بالخيول، وعلى الأقدام، وإحراق سواتر الأكوام المحزومة، وهكذا خرج في إحدى الليالي مولاي مقدم الداوية، ورجاله، والسير جون أوف غريلي Grailly والسير أوتو أوف غراندسن مع فرسان آخرين، خرجوا من محلة الداوية، التي امتدت من طرف البحر حتى باب القديس لعازر، لإلقاء النار في سواتر خشبية وفي واحد من مجانيق السلطان الكبيرة، وهكذا خرجوا في تلك الليلة، ووصلوا إلى تلك السواتر، لكن الرجل الذي كان من المفترض أن يرمي النفوط كان خائفاً عندما رماهم، فلم تصل إليهم ووقعت على الأرض، حيث احترقت، وتعرض المسلمون الذين كانوا هناك جميعاً للقتل من خيالة ورجالة، وقام اثنان من فرساننا الرهبان، مع فرسان علمانيين بالمضي فيما بين الخيم، فتعرقلت أرجل خيولهم بحبال الخيم ووقعت، ولذلك قتلهم المسلمون، وخسرنا بهذه الطريقة ثمانية عشر فارساً في تلك الليلة، من كل من فرسان الداوية والفرسان العلمانيين، مع أنهم استولوا على عدد من ترسة المسلمين، والأبازيم، والأبواق والطبول، ثم عاد مولاي ورجاله إلى عكا.

وبهذه الطريقة وقعوا في عدد من الكمائن المنصوبة من قبل المسلمين، وقد قتلوا جميعاً، لأن نور القمر كان مشعاً أكثر من ضوء النهار، وكان بإمكانهم رؤيتهم بوضوح، وكما سلف وأخبرتكم كان صاحب حماة في

★ــ قدمت للدبج عام ١٢٨٧ وعادت إلى فرنسا عام ١٢٩٠، ويبدو أنها ماتت في كانون الثاني ١٢٩٢.

ذلك الجانب، وقد جمع عساكره حوله، ووجه ضربة إلينا على شاطىء البحر، بزخات من النشاب، فجرح بعضاً من رجالنا، لكنهم لم يتجرأوا على الاشتباك عن قرب مع رجالنا، وعليك أن تعرف أنهم كانوا كما يبدو حوالي الألفي فارس هناك في هذه المناوشة، لكن من جانبنا كان ما بين الفرسان والخيالة الآخرين وفرسان رهبان المنظمات العسكرية، والغلمان والتوركبلية في حدود الثلاثمائة.

وفي القطاعات الأخرى، حيث صدرت الأوامر بالعمل، لم يمكن القيام بأي شيء لأن المسلمين أدركوا المخططات، وكانوا محترسين، وهاجموا الصليبيين بشدة كبيرة، وجعلوهم يعودوا دون إنجاز أي شيء.

٤٩٢ — وتقرر فيما بعد، وجوب قيام جميع سادة عكا وقواتها بإغارة في منتصف الليل من باب القديس أنطوني، وأن ينقضوا فجأة على المسلمين، وتقرر هذا بصورة سرية تماماً، حتى صدر الأمر إلى الخيول، وعندما امتطى رجالنا خيولهم وحملوا مندفعين من باب القديس أنطوني، لم يكن القمر مشرقاً البتة، بل كان محجوباً، وكان المسلمون قد أنذروا سلفاً، وقد أناروا المنطقة بالمشاعل، لذلك ظهر الحال وكأنه نهار على طول صفوفهم، وقدمت قطعة كبيرة احتوت ما يقارب العشرة آلاف رجل، وزحفت ضد رجالنا، وحطمتهم بشدة متناهية بنشابها، حيث بدا وكأن السماء تمطر نشاباً، ولم يستطع رجالنا تحمل هذا وانسحبوا إلى داخل المدينة، بعدما أصيب بالجراحة عدد كبير من الخيالة.

وهكذا كان رجالنا في مدينة عكا في وضع مؤسف، لكنهم تلقوا أخباراً بأن الملك هنري كان على وشك القدوم من قبرص مع مساعدة كبيرة، وقد تطلعوا إلى ذلك يومياً.

٤٩٣ — وحشد الملك رجاله في قبرص، وجمعهم وغادر من فياغوستا، فوصل إلى عكا في اليوم الرابع من أيار، وكانت المدينة في

وضع ضائقة شديدة، وكما أخبرتكم كان السور الخارجي قد لغم،
وكانت الأبراج التي لغمت قد أحرقت.

ومع ذلك انتعشوا كثيراً بوصول هؤلاء الرجال، ثم وصول الملك
بعد مضي عدة أيام، ولذلك بعثوا رسولين إلى السلطان هما السير وليم
أوف فيلاري، وكان فارساً، ووليم كافران Caffran وكان رجلاً من
بطانة مقدم الداوية، وخرج السلطان من دهليزه، ووصل إلى أمام باب
المدينة الذي اسمه باب النائب البابوي، وكان هناك وقف للقتال من
على الجانبين، وخرج الرسولان وهما من دون سلاح، ومثلا أمام
السلطان، الذي كان داخل خيمة صغيرة.

وبعدما حياه الرسولان ثلاث مرات، بالجثو على ركبهم، قربهم منه
وقال: « إذاً، هل جلبتم لي مفاتيح المدينة؟»، وأجابه الرسولان أنه لا
يمكن للمدينة أن تستسلم بسهولة، لكنهما قدما يرجوان منح بعض
الرحمة للناس الفقراء.

وعلى هذا أجابهما السلطان قائلاً: « سوف أمنحكم قدراً كبيراً من
العطف، حيث عليكم تسليم المدينة إلي كحجارة فقط، ويمكنكم أن
تحملوا كل شيء آخر، وتذهبون، وتتركون المكان، وأنا سوف أفعل هذا
من أجل ملككم الذي وصل إلى هنا، والذي هو شاب مثلي أنا شاب،
لكنني لن أقدم لكم أي شيء آخر زيادة».

فقال الرسولان له، إن هذا من غير الممكن» بسبب أن الناس فيما
وراء البحار سوف يعدوننا خونة»، وعقب السلطان على هذا قائلاً:
على هذا يمكنكما المغادرة، فأنا لن أعطي شيئاً آخر».

ولدى تفوهه بهذه الكلمات، كانت هناك آلة حصار، كان الصليبيون
يشغلونها من باب النائب البابوي، وجرى القصف منها من قبل من لا
أدري، وجرى الحادث ووقعت حجرة بجوار الخيمة التي كان فيها

السلطان مع الرسولين، وقام السلطان بحكم شجاعة الشباب، (دون أن يقصد إلحاق أذى فعلياً) بالانتصاب واقفاً على قدميه، ووضع يده على سيفه، واستله مقدار شبر وقال: «آه، أنتما خنزيرين قذرين، ما الذي يمنعني من قطع رأسيكما؟».

وعند هذا قال سنجر الشجاعي له: «لا يسمح الله بأن تلوث حد سيفك بدم هذين الخنزيرين، إن الذين استخدموا آلة الحصار وقصفوا بها خـــونة، لكن عليك السماح لهذين الرجلين بالذهاب لأنها هنا معك»، وهكذا عاد الرسولان إلى عكا، وبناء عليه بدأ الفريقان عملها، وأخذا يرميان بالمجانيق ضد بعضهما بعضاً، وأخذا يعملان ما يعمل عادة بين الأعداء.

٤٩٤—وجرى لغم البرج الجديد، الذي يعرف بـاسم برج الملك بشكل مربع، حيث تهاوت واجهته كومة واحدة في الخندق، لذلك بات من غير الممكن العبور فوق قمة الحجارة، وعندما رأى المسلمون هذا صنعوا أكياساً من قماش القنب، وملأوها بالرمل، وحمل كل واحد منهم كيساً فوق رقبة حصانه، ورموا بها إلى المسلمين الذين كانوا وراء الســواتر عند تلك النقطة، ثم عند حلول الظلام أخـذوا الأكياس، ونشروها فوق قمة الحجارة، ومهدوهم حتى جعلوهم مثل طريق وفي اليوم التالي (الأربعاء) وصلوا عند وقت صلاة العشاء عبر الأكياس، واستولوا على البرج، حيث كـان نصف القبو مـا يزال سالماً، وقطعة واحدة على طرف المدينة، وقد كان هناك عـدد كبير من رجالنا يدافعون عن البرج، ولكن الدفاع كله كان للا شيء، لأن المسلمين استولوا على البرج تماماً، ووضعـوا شعـار السلطان عليـه، وعنـد هذا قمنا بتحميل آلات الحصـار، واستهدفناهم وهم في البرج ورميناهم، فقتلنا بعضاً من المسلمين، لكن ليس بها يكفي لصدهم وطردهم منه وإعادتهم.

وعندما رأى رجالنا بأنه تم الاستيلاء على البرج شيدوا آلة من الخشب

المغطى بالجلود، وأطلقوا عليها اسم" سنور"، ووضعوا رجالاً فيها، من أجل منع المسلمين الذين استولوا على البرج من التقدم نحو الأمام.

٤٩٥ — وعندما سقط البرج هكذا —حسبما وصفت— دب الهلع تماماً في قلب كل واحد، وبدأوا بصورة متزايدة بإرسال أولادهم ونسائهم إلى السفن، لكن في اليوم التالي، وهو يوم الخميس كانت الأحوال الجوية سيئة جداً، واضطرب البحر وارتفعت أمواجه، إلى حد أن النساء والأطفال الذين كانوا على ظهور السفن، كانوا غير قادرين على البقاء هناك، فنزلوا من السفن، وعادوا إلى البيوت(★).

٤٩٦ — وقبل فجر اليوم التالي، أي يوم الجمعة، بدأت الطبول تقرع بأصوات عالية وبشدة متناهية، ومع أصوات هذه الطبول، قام المسلمون بالحملة على مدينة عكا من جميع الجهات، وكان المكان الذي دخلوا منه أولاً هو البرج الملعون، وهو الذي كانوا قد استولوا عليه من قبل، وسوف أخبركم بالطريقة التي دخلوا فيها.

٤٩٧ —ودخلوا وهم رجالة على الأقدام، وكانوا كثيرين جداً، لايمكن تعدادهم، ووصل في المقدمة رجال يحملون ترسة كبيرة وطويلة، ووصل بعدهم رجال يرمون بالنفوط، ووصل بعدهم رجال يرمون بالمزاريق، ويرمون بسهام مريشة، وكانت رماياتهم كثيفة حتى بدت كأنها مطر متساقط من السماء، وتخلى رجالنا الذين كانوا داخل "السنور" عن هذه الآلة وهجروها، وسلك المسلمون الذين ذكرتهم طريقين، بسبب أنهم كانوا بين سوري المدينة، يعني أن تقول بين الأسوار الأولى والخنادق، التي عرفت باسم الخط الدفاعي الأول، وبين الأسوار الداخلية الكبيرة والخنادق الفعلية للمدينة، ودخل بعضهم من

★— كان ميناء عكا فقيراً جداً، وذلك على الرغم من جودة موقعها، وقد توجب على السفن الكبيرة البقاء خارج الميناء حيث كانت عرضة لتقلبات البحر وهيجانه، علاوة على ذلك كان الميناء واقعاً داخل رمايات المجانيق، لذلك توجب أيضاً على السفن البقاء بعيداً عن الشاطئ.

خـلال باب البرج الكبير، الذي عـرف بـاسم البرج الملعون، وتحركـوا باتجاه سان- رومـانو(★)، حيث كانت الآلات الكبيرة التابعـة للبيازنة، وتابع الآخرون تقدمهم ماضين إلى باب القديس أنطوني(★★).

٤٩٨ — عندما سمع مقدم الداوية صوت قرع الطبول، وهو موجود في مقره الحصين مع رجاله الذين كانوا يدافعون عنه، أدرك أن المسلمين كانوا قـد أقلعوا بهجوم ما، فجمع هذا المقدم عشرة أو اثني عشر راهبـاً فـارسـاً من عسـاكـر بطانته، وأخذ الطريق نحـو باب القـديس أنطوني، مباشرة بين السورين.

وعبر وهو على طريقه بقطاع الاسبتارية، فدعا مقدم الاسبتارية إلى الالتحاق به، وقـام مقدم الاسبتارية بدوره فجمع عـدداً من فـرسـانه الرهبـان، وبعض فـرسـان قبرص والأرض المقدسـة وبعض الرجـالة، وتحرك باتجاه باب القديس أنطوني، حيث وجدوا المسلمين قـادمين على أقدامهم، فتصدوا لهم وقاتلوهم.

لكن ذلك كان من دون تأثير- كما شرحت- لأنه كانت هناك أعداداً كبيرة جـداً من المسلمين، وعندما وصل مقـدما الداوية والاسبتـارية إلى هناك، واشتبكوا بالقتال، بدا الأمر وكأنهم رمـوا بنفسيهما ضد جدار من صخر، فقد كان رجال العدو الذين كانوا يرمون بالنفوط، رموا نفوطهم بتكرار وكثافة لذلك كان هناك دخان كثير، إلى حد كان يصعب فيه على الإنسـان رؤية إنسـان آخـر، وبين الدخـان رمى الرمـاة بأسهم مريشـة بصورة كثيفة، تسببت بإصابة رجالنا ومطاياها بجراح مخيفة.

وحدث أن غـلاماً انكليزياً مسكيناً أصيب إصابة بالغـة بالنفوط التي كان المسلمون يقذفونها فاحترق معطفـه الخارجي أولاً، وحيث لم يكن

★— يرجح أن سـان -رومـانو في الزاوية مباشرة وراء البرج الملعون، الذي كـان كما يبدو في السور الداخلي.
★★— هذا يعني أنهم تابعوا الزحف بين السورين.

هناك من يساعده، احترق وجهه، ثم جسمه كله، وقد احترق وكأنه مرجل أسفلت، وقد مات هناك، وكان على قدميه عندما حدث هذا، لأن مطيته كانت قد قتلت تحته.

وتوقف المسلمون قليلاً، ثم رفعوا ترسهم وتحركوا متقدمين لمسافة قصيرة، وعندما حمل الرجال عليهم ثبتوا ترسهم واصطفوا، ولم يتوقفوا عن عملهم في رمي النشاب والنفوط طوال اليوم، واستمر هذا الصراع، وهذا القتال المضطرب، حتى منتصف الصباح.

ووقعت في هذا المكان مصيبة كبرى، بسببها تمكن هؤلاء المسلمون الذين دخلوا إلى المدينة -كما قلت- تمكنوا من الدخول بسهولة، وبسببها أيضاً ارتعب رجالنا كثيراً، واستبد بهم الخوف، ففي تلك الأثناء، أصيب مقدم الداوية بنشابة، أصابته وهو يرفع يده اليسار، فهو لم يكن معه ترس، وفقط كان معه رمح بيده اليمنى، وضربته النشابة تحت إبطه، ودخل النصل إلى جسده، وتوغل مقدار طول شبر، ودخلت النشابة من خلال الفتحة حيث كانت صفائح درعه ليست موصولة، وهذا الدرع لم يكن درعه، بل كان درعاً خفيفاً لبسه بسرعة عند سماع صوت الإنذار.

وعندما شعر بأنه أصيب إصابة مميتة، استدار ليذهب، فظن بعض المدافعين أنه قد تراجع لينقذ نفسه، ورآه حامل الراية يذهب، فقام باللحاق به، ثم لحق به جميع أتباعه من بطانته، وبعدما قطع بعض المسافة، رآه عشرون صليبياً من فالو دي سبوليتو Vallo di spoleto وهو ينسحب، فصرخوا مخاطبينه: «آه، من أجل الرب، لا تغادر أيها السيد، أو أن المدينة سوف تسقط على الفور»، فصرخ نحوهم بصوت مرتفع، حتى يسمعه كل إنسان: «سادتي، أنا لا يمكنني المتابعة، لأنني قتلت، انظروا إلى الجرح هنا»!.

ثم رأينا النشابة التي أصابت جسده، وما أن أنهى كلامه سقط رحمه على الأرض، ومال رأسه إلى جانبه، وبدأ يسقط من على حصانه، لكن الرجال الذين كانوا من بطانته قفزوا من على ظهور خيولهم، وسندوه، وأنزلوه، ومددوه فوق ترس وجدوه مرمياً هناك، وكان لوحاً طويلاً، وحملوه نحو باب القديس أنطوني، فوجدوه مغلقاً، وعوضاً عن ذلك وجدوا باباً صغيراً عنده جسر يقود من الخندق إلى مسكن السيدة ماريا الأنطاكية، وهو الذي كان من قبل ملكاً للسير جيمس أوف لي مانديلي Mandelee.

وهناك قام رجال بطانته بتجريده من دروعه، وقطعوا سابغته عند الكتفين، لأنه لم يكن باستطاعتهم فعل شيء آخر، بسبب الجراحة التي كان مصاباً بها، ثم إنهم وضعوه وهو ما يزال في دروعه، تحت غطاء، وأخذوه نحو شاطىء البحر، يعني إلى الشاطىء الذي بين الدير حيث كانوا يذبحون الحيوانات وبيت صاحب صور، وهناك سمعوا صراخاً من أمام برج النائب البابوي، بأن المسلمين باتوا هناك، ولذلك قفز بعض رجال بطانته إلى البحر في محاولة للوصول إلى بارجتين كانتا هناك، لقد كانت هناك بارجة واحدة من الاثنتين، لأن البحر كان شديد الهيجان وكانت الأمواج كبيرة جداً، ولم يكن بإمكان البارجتين التعامل معهم، وقد ضاع كثير من الرجال لهذا السبب، وحمله أفراد آخرون من بطانته إلى قلعة الداوية، بمساعدة بعض الرجال الآخرين، ومددوه هناك داخل البيت، ولم يدخلوا من خلال البوابة، التي لم يريدوا فتحها، بل أخذوه عبر ساحة كدسوا فيها الأسمدة.

وعاش طوال ذلك اليوم دون التفوه بكلمة، لأنه منذ أن أنزل من على ظهر حصانه لم يتكلم، سوى كلمة واحدة قالها للذين كانوا في قلعة الداوية، فعندما سمع صراخ الناس وهم يهربون من الموت، أراد أن يعرف ما الذي كان يحدث، فأخبروه بأن الناس كانوا يقاتلون، فأمرهم بأن عليهم تركه بسلام.

ولم يتكلم مرة أخرى، بل أعطى روحه إلى الرب، وقد دفنوه أمام المذبح، وهو المذبح الذي كانوا يتلون عنده القداس، وأخذ الرب روحه، لكن أية خسارة جسيمة تسببت بموته!.

٤٩٩— والآن سوف أخبركم بالذي حدث بعد ذلك:

وعندما علم الناس بالذي حدث، وشاهدوا المقدم يحمل بعيداً، شرعوا واحداً تلو الآخر يتخلون عن مراكزهم ويفرون، لأن المسلمين دخلوا- كما أخبرتكم- من خلال البرج الملعون، وذهبوا مباشرة خلال سان رومانو، وأحرقوا منجنيق البيازنة الكبير، وذهبوا نازلين مباشرة نحو دير [الفرسان التيوتون] الألمان، واستولوا على دير القديس ليونارد، وجعلوا كل من تصدى لهم طعمة للسيف، وهاجم مسلمون آخرون برج النائب البابوي، الذي كان على طرف البحر، من طرف البحر حتى قاعدة البرج، وأزالوا حاجزاً على شكل شعرية قد أثبتت عليها رؤوس مسننة تطعن الخيول، وتمنعها من المرور هناك، ثم وصلت أعداد كبيرة من الخيالة المسلمين، ودخلت، وأبدى السير جون أوف غريلي Grailly، والسير أوتو أوف غراندسن ورجال ملك فرنسا مقاومة حادة، ولذلك كان هناك الكثير ممن جرحوا وممن ماتوا، غير أن السير جون أوف غريلي، والسير أوتو أوف غراندسن كانا غير قادرين على الصمود أمام ضغط المسلمين، فانسحبا من المكان، وأنقذا نفسيهما، وقد أصيب السير جون أوف غريلي بجراحه.

٥٠٠— عندما رأى هنري، ملك القدس وقبرص هذه المأساة، وصل إلى عند مقدم الاسبتارية، وقد اقتنعا بوضوح أنه لم تعد هناك قيمة لا للتشاور ولا للنجدات، ولذلك أنقذا نفسيهما وركبا غليونيهما.

٥٠١— علموا أنه كان يوماً رهيباً أن تشهده، حيث اندفعت الراهبات، والبرجاسيات، وفتيات الديرة، واللاتي كن من العامة من

المراتب الدنيا، اندفعن فارات خلال الشوارع وأولادهن على أذرعتهن، وكن يبكين وهن في حالة يأس، ومضين فارات إلى الملاحين لينقذوهن من الموت، وعندما وصل المسلمون إليهم، أمسك أحدهم أماً، وأمسك آخر الطفل، ونقلوهما من مكان إلى مكان آخر، وفصلوهما عن بعضهما بعضاً، وحدث مرة أن كان هناك شجاراً بين مسلمين حول امرأة، وقد قتلت من قبلهما، وفي وقت آخر أخذت امرأة أسيرة، ورمي رضيعها الذي كان على صدرها إلى الأرض، حيث داسته الخيول فقتلته، وكان هناك بعض النساء الحوامل، وقد وقعن بين الحشود الكثيفة الفارة فاختنقن ومتن، وماتت الحياة التي كانت في أرحامهن معهن، وكان هناك بعض النساء ممن كان أزواجهن وأولادهن، متمددين مرضى أو جرحى في مساكنهن، فتركوهم لوحدهم، وفررن، وقد قتلهم المسلمون جميعاً.

وعليكم أن تعرفوا بأن المسلمين أحرقوا آلات الحصار، وأحرقوا أيضاً السواتر الدفاعية، ولذلك فإن البلاد كلها كانت تضطرم ناراً وتحترق، وسعى القسم الأكبر من الناس، من رجال ونساء وأطفال، وكانوا أكثر من عشرة آلاف شخص، سعوا إلى الالتجاء إلى مجمع الداوية، لأنه كان المكان الأكثر حصانة في المدينة، حيث احتل موقعاً كبيراً عند شاطىء البحر، وكان أشبه بقلعة، وكان عند مدخله برجاً طويلاً وقوياً، وسوراً كثيفاً، عرضه عشرين قدماً، وكان على كل زاوية من البرج برج صغير، وكان فوق كل برج صغير أسد واثب مذهب كبير بحجم حمار، وقد كلف عمل هذه الأسود الأربعة مع التذهيب ألف وخمسمائة دينار إسلامي، وكان رائعاً كثيراً أن تراهم، وكان هناك في الزاوية الأخرى، نحو حارة البيازنة برج آخر، وكان على مقربة من هذا البرج، فوق شارع القديسة حنة قصر بديع جداً، كان عائداً لمقدم الداوية، ومواجه لهذا القصر كان دير راهبات القديسة حنة، الذي امتلك برجاً عالياً، فيه كانت النواقيس، وكان هناك أيضاً كنيسة طويلة وجميلة جداً.

وامتلك حصن الداوية برجاً آخر قديماً جداً، على شاطىء البحر، كان صلاح الدين قد بناه قبل مضي مائة عام، فيه حفظ الداوية ثروتهم، وكان على مقربة من البحر إلى حد أن الأمواج كانت تتلاطم عليه، وكانت هناك مساكن جميلة جداً داخل مجمع الداوية، والتي لم أشر إلى المسكن الأجمل بينها.

٥٠٢ ــ وامتلك اسبتارية القديس يوحنا محلات جيدة مع أبراج، وقصور جميلة جداً، لكنها كانت في وسط المدينة، وامتلكوا مقراً آخر كان يدعى البرج Auberge ، وكان قصراً مشهوراً كثيراً، طويلاً جداً، وجميلاً جداً، طوله مائة وخمسين قصبة(حوالي ثلاثمائة متر) مع ساحة كبيرة مغلقة، فهناك أقيمت احتفالات تتويج الملك هنري، كما شرحت لكم، وكان مكان إقامة المارشال ودير الاسبتارية هناك.

٥٠٣ ــ وامتلك(التيوتون) الألمان مسكناً جميلاً جداً هناك، وبرج على درجة عالية من الجمال، وامتلك البيازنة والبنادقة أحياء جيدة جداً، مع أبراج وقصور، وكانت المدينة مليئة، بيوت نبلاء آخرين وبرجاسية، مع أثاث فخم، وفي الحقيقة كانت هناك قلعة رائعة جداً، لكنها كانت من دون خندق، وما من جزء منها كان مبنياً في الأسوار الخارجية للمدينة، وأنا سوف لن أقول شيئاً زيادة حولها، يكفي أن أقول إنها كانت واحدة من أجمل وأبهى مدن العالم، فقد كانت ميناء البحر، ومقصد جميع الذين قدموا إلى سورية، وشكل فقدانها ضرراً كبيراً.

وأريد الآن العودة لإكمال حكايتي:

كل من استطاع أن يأتي إلى مجمع الداوية فعل، وقد اجتمعوا فيها، وقام الملك والآخرون الذين تراجعوا إلى الغلايين إلى سفن أخرى بالتحرك وبالاقلاع والإبحار، ومثل ذلك فعلت السفن المسطحة المراكب الأخرى العائدة إلى فوج البنادقة، وانسحب الرجل العجوز

الجيد، أعني النائب البابوي والبطريرك مع الراهب الفارس نيكولاس إلى سفينة من سفن البنادقة، وقد أمسكه بحار من يده، لكنه انزلق ووقع في البحر وغرق، وما من أحد يعرف فيما إذا كان قد أمسكه باليد ثم تركه يقع، بسبب أنه وضع أشياءه الثمينة على ظهر تلك السفينة، أو أنه انزلق من يده لأنه لم يستطع إمساكه بصورة جيدة. وكيفما كان الأمر قد حدث، لقد غرق الرجل العجوز كما ذكرت.

وعندما أقلعت جميع السفن، صرخ الداوية الذين تجمعوا هناك وبكوا بأصوات مرتفعة، وأبحرت السفن نحو قبرص، وترك الناس الجيدين الذين وصلوا آنذاك إلى مجمع الداوية إلى قدرهم، كما سمعتم، وعليك أن تعرف أنه كانت هناك ستة مراكب مسلحة تابعة للكنيسة مع الغلايين الملكية، والغلايين الجنوية(الذين قدموا كثيراً من المساعدات، كما يعرف كل واحد، لأنه جمعوا الناس من على شاطئ البحر، ووضعوهم في المراكب وفي السفن الأخرى)، وكان قائد هذين الغليونين جنويا اسمه أندريه بيلو Andrea peleau.

٥٠٤— ودعوني الآن أحدثكم عن مصير مدينة صور، التي كانت واحدة من أحصن المدن في العالم، فقد كان فيها نائباً ملكياً اسمه السير آدم أوف كافران Caffran ، كان يعمل لصالح الملك، فهو ما أن شاهد السفن المحملة تغادر عكا، حتى قام وجميع الفرسان الآخرين، والناس الأثرياء بالمهاجرة وتركوا مدينة صور، وبقي الناس الفقراء في الخلف، وقد أخذوا أسرى، من رجال ونساء وأطفال، لأنهم لم يمتلكوا سفناً يمكنهم الانسحاب عليها.

٥٠٥— وسوف أحدثكم الآن عن الناس الذين كانوا في داخل مجمع الداوية، وقد كان هناك المارشال بطرس أوف سيفري Sevrey مع بعض فرسان رهبان الداوية، وبعض الآخرين من إخوانهم الذين تمددوا هناك وهم جرحى، وبعض الفرسان العلمانيين، والنساء

والبرجاسية، وكثير من الناس الآخرين، وكان من بين الذين وصلوا إلى مجمع الداوية في ذلك اليوم، الراهب الفارس متى أوف كليرمونت مارشال اسبتارية القديس يوحنا، فقد شاهد مقدم الداوية، الذي كان ميتاً كما أخبرتكم ثم عاد إلى القتال، حيث حشد حوله جميع فرسانه الاسبتارية، لأنه رفض التخلي عن أي واحد منهم، وقد ذهب بعض الداوية معه، وقد وصلوا إلى ساحة حارة الجنويين التي كانت فارغة من البيوت، وهناك اشتغل بالقتال، وقد قتل هو ورفاقه كثيراً من المسلمين، لكنه قتل في النهاية هو وجميع الآخرين، قتلوا كفرسان حقيقيين وشجعان، ومسيحيين جيدين، على الرب بحفظ أرواحهم!.

٥٠٦— اعلموا أيها السادة الطيبون، أنه ما من واحد يمكنه أن يصف بكفاية كمية الدموع مع حزن ذلك اليوم، والمنظر المؤلم للأطفال الصغار وهم يرتجفون هناك وتمزيق جثثهم والخيول تدوسهم... إنه ليس هناك إنسان في الدنيا، مهما كان قلبه قاسياً، لن يبكي لدى مشاهدته المذبحة، وأنا على يقين أن جميع الناس المسيحيين الذين شاهدوا هذه الأشياء في ذلك اليوم قد بكوا، لأنه حتى بعض المسلمين-كما علمنا بعد ذلك- قد أشفقوا على أولئك الضحايا وبكوا.

٥٠٧— استمر مجمع الداوية مدافعاً لمدة عشرة أيام، بعد سقوط المدينة نفسها، وتفاوض السلطان مع الذين كانوا في مجمع الداوية، ليرى إذا كانوا يرغبون بالاستسلام، ويحصلوا على أمانه الشخصي، وأرسلوا إليه رسالة بأنهم سوف يستسلمون إذا تعهد بمنحهم الأمان بأن يذهبوا إلى حيث يرغبون، وأرسل لهم السلطان رسالة بالموافقة، وبعث أميراً من عنده إلى الذين كانوا في مجمع الداوية، وجلب الأمير معه أربعمائة خيال إلى داخل المجمع، ورأى هؤلاء الرجال عدداً كبيراً من اللاجئين، ورغبوا بأمر النساء اللائي استلطفوهن إليهن، لكن الصليبيين وجدوا أن هذا التصرف لا يمكن تحمله، فحملوا أسلحتهم وألقوا بأنفسهم على

المسلمين، فقتلوهم جميعاً، وقطعوا رؤوسهم، وبذلك ما من أحد منهم نجا حياً، ثم عقد الصليبيون العزم، وقرروا أنفسهم الدفاع عن أجسادهم حتى الموت.

وكان السلطان غاضباً كثيراً بسبب ما حدث، لكنه لم يظهر ذلك، وبعث مرة أخرى يقول بأنه يعرف تمام المعرفة بأن حماقة رجاله سببت موتهم، بسبب الخروقات التي اقترفوها، وأنه ولهذا السبب لم يتخذ موقفاً ضد الصليبيين، وأنهم يمكنهم الخروج آمنين، وأن يثقوا بكلمته، ووثق مارشال الداوية، الذي كان رجلاً عجوزاً عظيماً من بيرغندي، اسمه بطرس أوف سيفري(الذي كنت قد ذكرته لكم من قبل) بالسلطان، وخرج إليه، وبقي بعض الرهبان الفرسان الجرحى في البرج.

٥٠٨— وبناء عليه، عندما صار المارشال ورجال الداوية، تحت قبضته، أمر بقطع رؤوس جميع الرهبان الفرسان والرجال الآخرين، وعندما سمع الفرسان الرهبان، الذين كانوا ما يزالون في داخل البرج، والذين لم يكونوا مرضى إلى حد عدم القدرة على القتال، بأن المارشال والرجال الآخرين قد قطعت رقابهم، أعدوا أنفسهم للمقاومة.

وعند هذا شرع المسلمون بلغم البرج، وقد حفروا موضع لغم، وحشوه تماماً [بالأخشاب] وبناء عليه استسلم الذين كانوا داخل البرج، ولكن المسلمون الذين دخلوا إلى البرج، دخلوه مع عدد كبير من الناس، فانهار اللغم، وتهاوى البرج، فقتل الفرسان الرهبان الداوية الذين كانوا بالداخل مع المسلمين الذين كانوا في الداخل أيضاً، وعندما تهاوى البرج، تهاوى نحو الخارج أي نحو الشارع، فسحق أكثر من ألفين من الخيالة الأتراك★.

★— هنا مبالغة بالأرقام، ويرجح أن المؤلف لم يكن داخل عكا آنذاك، بل كان قد خرج منها مع من خرج، لأنه لو بقي لما عاش حتى يكتب، وعلى هذا يرجح أن ما دونه في الفقرتين ٥٠٧—٥٠٨، قد نقله مما راج آنذاك.

وهكذا تم الاستيلاء على عكاء، وهجرت في يوم الجمعة الثامن عشر من أيار، في العام المذكور[١٢٩١]، وجاء الاستيلاء على مجمع الداوية بعد عشرة أيام، وفق الطريقة التي وصفتها لكم.

٥٠٩ — والآن سوف أخبركم حول بلدة صيدا، التي كانت عائدة للداوية(★).

وعندما رأى[ثيوبولد غودين] القائد الأعلى[لداوية] بلاد[القدس] بأن المقدم وليم أوف بيجو قد مات هو وبعض الرهبان الفرسان الآخرين، نجا في سفن وأخذ طريقة مباشرة إلى صيداء، وتمركز في القلعة على البحر، وقد اكتشف أن جميع الناس قد ذهبوا إلى الجزيرة، حيث هناك طاحون، وجرى اختيار قائد البلاد هذا مقدماً للداوية، من قبل الفرسان الرهبان الذين جاءوا معه.

وأرسل السلطان في الوقت نفسه واحداً من أمرائه، الذي اسمه سنجر الشجاعي، فقام بمحاصرة القلعة القائمة على البحر بوساطة آلات حصار، وضايق الذين كانوا فيها بكل وسيلة ممكنة، وقد استولى على مدينة صيداء، لأن السكان كانوا قد هجروها، وخرجوا إلى الجزيرة (ومن الجزيرة إلى قبرص).

٥١٠ — وكان اسم المقدم الجديد ثيوبولد غودين Gaudin ، وقد تعرض مكان تمركزه للهجوم، ولم يرغب أن يبدأ مدته في الوظيفة بالتخلي عن القلعة، فعقد اجتماعاً تشاورياً مع رهبانه الفرسان، وقام بناء على موافقتهم بالذهاب إلى قبرص، واعداً إياهم أنه سوف يرسل إليهم نجدة، لكنه عندما وصل إلى قبرص شرع في العمل من أجل إعداد نجدة لهم بشكل ليس فيه حماس، ولذلك قام أفراد الداوية الذين كانوا في قبرص، وأصدقاء الرهبان الفرسان، الذين كانوا ما يزالون في صيداء،

★ - كان الداوية قد اشتروها من صاحب صيدا جوليان في عام ١٢٦٠، انظر الفقرة ٢٦٠ المتقدمة.

بإرسال رسالة إليهم، بأن عليهم التخلي عنها تماماً، لأن المقدم لم يظهر أية علامة على أنه سيرسل إليهم أية معونة على الإطلاق.

وعندما سمع الرهبان الفرسان الذين كانوا في القلعة هذا، ارتعبوا كثيراً، ومن الجانب الآخر طاردهم المسلمون، ورموا النشاب نحوهم، ووصلوا عبر الرمال التي شكلت أرضاً من شاطىء البحر، ووصلوا حتى أسوار القلعة، ووقفوا على أقدامهم تحتها، وغطوا البحر كله.

وعند هذا عقد الرهبان الفرسان مشاورات فيما بينهم أنفسهم من أجل مغادرة المكان والذهاب إلى قبرص، لأنهم توقعوا أيضاً أن يكون المسلمون قد أرسلوا بعض المراكب المسلحة من اللاذقية، لذلك لن يكونوا قادرين على المغادرة حتى لو أرادوا ذلك، ولهذا السبب غادروا في إحدى الليالي من دون إصدار صوت، حتى أن المسلمين لم يلاحظوا أنهم قد ذهبوا حتى صباح اليوم التالي.

٥١١— وعندما تم التخلي عن صيدا حسبما شرحت لكم، استولى المسلمون على القلعة، وهدموها وجعلوها أكواماً.

وعندما كان سنجر الشجاعي في صيدا، أرسل رجال بيروت رسالة إليه، سائلين إياه عن نواياه نحوهم، فأخبروهم بأنهم يمتلكون هدنة جيدة مع السلطان، وأنهم سوف يتركون بسلام، ولكن عليهم إقامة احتفال من أجل الاستيلاء على صيدا، وعندما سيمر بهم على طريق العودة إلى دمشق، عليهم الخروج والتقابل معه، ولكن الذي حدث هو أنه عندما غادر سنجر الشجاعي هذا صيدا، مرّ ببيروت، فخرجوا من قلعة بيروت للالتقاء به، ولتقديم احتراماتهم له، حيث أنه وجههم لفعل هذا، كما سمعتم.

لكنه مثل وغد، أمر باعتقالهم، واستولى على المدينة وعلى القلعة، ودمر أسوار المدينة ثم اجتث القلعة وسوّاها مع الأرض.

٥١٢ — والآن عليك أن تعرف أنه عندما رأى الذين كانوا في قلعة الحجاج [عتليت] بأن كل شيء قد ضاع، أدركوا بوضوح أنه لم يعد لديهم القدرة على الدفاع عن القلعة، ولذلك تخلوا عليها، وذهبوا إلى جزيرة قبرص، وأكمل المسلمون تدمير البلاد.

٥١٣ — وهكذا، كان بمقدوركم أن تعلموا، بأن سورية كلها قد ضاعت، وتم الاستيلاء عليها وتدميرها من قبل المسلمين، ومع أنه كانت هنالك أماكن كثيرة قد تم الاستيلاء عليها من قبل، كما وصفت لكم، لكن في هذه المرة كل شيء قد ضاع، وبذلك لم يعد الصليبيون يمتلكون ما مساحته شبر واحد من الأرض في سورية.

٥١٤ — على مقربة من سورية هناك جزيرة تدعى قبرص، وهي الأكثر ثراء وجودة، ومليئة بجميع أنواع الأشياء النامية، وهناك مدن جميلة جداً على هذه الجزيرة، أنا سوف أذكرها لكم.

وكان اسم المدينة التي أقام فيها الفرسان، وهي المدينة الرئيسية بينهم جميعاً، نيقوسيا، وهي في داخل البر، وهناك واحدة أخرى، قائمة على ساحل البحر اسمها فماغوستا، وأخرى أيضاً واقعة على الساحل محصنة، ومدينتها بجوار الأسوار اسمها كرينيا، ويوجد داخل البر ثلاث قلاع هي: ديودامور Dieudamour [رب الحب، وحالياً هيلاريون] وبوفافنتو Buffavento ، وكنترا Kantra.

٥١٥ — هذه الجزيرة هي مملكة، وملكها وصاحبها كان الملك هنري أوف لوزنغنان، الذي أشرت إليه كملك للقدس.

٥١٦ — وكان الذين نجوا من عكا ومن الأماكن الأخرى في سورية، وانسحبوا إلى هذه الجزيرة، في حالة فقر شديد، حتى أنه لو كان هناك أي واحد، كان قادراً على أن يحضر معه أي شيء مما كان لديه، وجلبه إلى قبرص معه، صار يساوي من حيث القيمة أقل مما كان

يساويه، لأن مواد الطعام كانت قليلة جداً، وصار البيت الذي كان إيجاره في العام عشرة بيزنطات، ارتفع فصار مائة بيزنطة، ونسيهم جميع أصدقائهم في قبرص، ولم يتذكروهم بأي لطف وشفقة.

لكن الملك هنري عقد مشاورات، ووضع الفرسان الفقراء والسيرجندية في لائحة أصحاب العطاء، وقدم مساعدات كبيرة وأشياء كثيرة لهم، وأمد الملك والملكة [الأم] مساعدة خاصة حتى تعطى إلى هؤلاء الناس الفقراء.

٥١٧— والآن وقد سمعتم كيف ضاعت مملكة القدس كلها، يبدو جيداً بالنسبة إليّ أن أدون في كتابي أسماء المدن والقلاع السورية، وذلك حسبما رأيتهم مدونين، والأسماء هي التالية:

٥١٨— المدينة الأولى التي ينبغي ذكر اسمها، هي مدينة القدس، لأنها الرئيسية بين المدن الأخرى، وسوف أذكر لكم بلاد نابلس، لأنها قريبة من القدس، ومنطقة عكا، ومنطقة صور، ومنطقة تورون، ومنطقة يافا، ومنطقة عسقلان، ومنطقة غزة، ومنطقة صفد، ومنطقة صيدا، والشقيف، ومدينة قيسارية، ومنطقة بيسان، والكرك في الشوبك، ومنطقة القديس إبراهيم(الخليل= حبرون)، ومنطقة بيت لحم، ومنطقة أريحا، ومنطقة Blanchegarde ، ومنطقة القديس جورج، ومنطقة اللد، ومنطقة أرسوف، ومنطقة القديس يوحنا في سبسطية، ومنطقة ميرلي Merle* ، ومنطقة قلعة الحجاج(عثليت) ومنطقة حيفا، ومنطقة Caymont ، ومنطقة الناصرة، ومنطقة الكونت جوسلين، ومنطقة قلعة الملك Rio ، وسكندليون ومتعلقاتها، ومنطقة بانياس، وقلعة نوف Neuf ، ومنطقة بيروت.

٥١٩— والآن وقد سمعتم أسماء المناطق، إنني أريد أن أخبركم عن

★ - ميناء صغير بين قيسارية وجبل الكرمل.

خدمات الفرسان والسيرجاندية التي كان يتوجب على كل منطقة تقديمها للمملكة في أوقات الحاجة.

٥٢٠— على مملكة القدس واحد وأربعين فارساً، وبارونية مدينة يافا وعسقلان، والرملة، و Mirabel وإيلين (يبنا) مائة فارس، وإمارة الجليل مائة فارس، وإقطاعية الكرك والشوبك ستين فارساً، وإقطاعية جوسلين أربعة وعشرين فارساً، وإقطاعية صيدا... [sic] وإقطاعية عكا ثمانين فارساً، ومدينة نابلس خمسة وثمانين فارساً، وإقطاعية صور ثمانية وسبعين فارساً، ويكون عدد الجميع خمسمائة وثمانية وستين فارساً.

٥٢١— وسأخبركم الآن بعدد السيرجاندية الذين كان ينبغي على كل واحد أن يقدمهم بمثابة خدمة: على بطريرك القدس تقديم خمسمائة سيرجندي، وعلى كهنة كنيسة الضريح المقدس خمسمائة سيرجندي، وعلى صفد مائة وخمسين سيرجندي، وعلى دير نوتردام للاتين مائة سيرجندي، وعلى أسقف طبرية خمسين سيرجندياً، وعلى مدينة القدس (من سكان المدينة) خمسمائة سيرجندي، وعلى مدينة عكا خمسمائة سيرجندي، وعلى مدينة نابلس ثلاثمائة سيرجندي، وعلى إيلين و Mirabel مائة وخمسين سيرجندياً، وعلى أسقفية القديس إبراهيم(الخليل) خمسين سيرجندياً، وعلى رئاسة أساقفة صور مائة وخمسين سيرجندياً، وعلى أسقف صيدا خمسين سيرجندياً، وعلى رئاسة أساقفة قيسارية خمسين سيرجندياً، وعلى عسقلان مائة وخمسين سيرجندياً، وعلى ليغيو Legio مائة سيرجندي، وعلى Le-gerin (زرعين= جزريل التوراتية) خمسة وعشرين فارساً، وعلى حيفا خمسين فارساً، وعلى طبرية خمسين فارساً، فيكون تعداد الجميع ثلاثة آلاف وتسعمائة وخمسة وسبعين.

٥٢٢— وبعدما أحصيت لكم الخسارة المبكي عليها لعكا ولجميع أراضي سورية، وأسماء المناطق، والخدمات المتوجبة عليها، دعونا الآن نذكر لكم الأحداث التي وقعت فيها بعد.

٥٢٣ - عندما عبرت الأخبار البحر، كان البابا وجميع المسيحية آسفين بقلوبهم إلى أبعد الحدود لدى سماعهم لها، وجله حزنهم أولاً على الفقراء الصليبيين الذين ضاعوا، وثانياً بسبب العار الذي لحق بالمسيحية.

٥٢٤ - وقام بابا روما على الفور بتسليح عشرة غلايين في أنكونا Ancona ، وأرسلهم إلى قبرص لحراسة الجزيرة، والمسيحيين الفقراء الذين كانوا فيها، وكذلك أرسل عشرة غلايين أخرى جرى تسليحهم في جنوى، ومتن هذا القبارصة كثيراً، ضد جرأة السلطان ورعونته، لأنه عزم على غزو قبرص.

٥٢٥ - وعندما وصلت هذه الغلايين، سلح الملك هنري الثاني خمسة عشر غليوناً، وذهبت الغلايين كلها مع بعضها إلى قلعة تركية [على ساحل الأناضول] اسمها Alanya ، واستولوا على البرج الذي كان على شاطىء البحر، وعزموا على الاستيلاء على البرج الثاني، لكنهم لم يكونوا قادرين على إنجاز ذلك، لأن الأتراك شاهدوهم يقدمون، وكانوا متيقظين محترسين ودافعوا عن أنفسهم، وكان أنهم بعدما بذلوا جهوداً قتالية كبيرة، تمكنوا من الاستيلاء على البرج الذي لم يكونوا قد استولوا عليه من قبل، وبعد ذلك لم يستطيعوا أن يفعلوا أي شيء آخر، ولذلك تركوا ذلك البرج، وغادروا وذهبوا إلى الاسكندرية ومكثوا خارجها لعدة أيام، ثم عادوا إلى قبرص.

٥٢٦ - وخلال العام ١٢٩١ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، غضب سلطان مصر، الذي كان قد دمر صليبي سورية، غضباً شديداً، عندما شاهد بأن الغلايين، قد حاصرت ميناء الاسكندرية كما أخبرتكم، وكان خائفاً من أن تتمكن قبرص من إلحاق المزيد من الأضرار به، ولذلك جمع أمراءه وأخبرهم بأنه يرغب بالاستيلاء على قبرص من دون تراجع، ولتحقيق هذا الهدف أعطى أوامر إلى مائة أمير، بأن عليهم صنع مائة غليون، وذلك كل أمير حسب مقدرته، وبما أن الأمراء كانوا رجالاً

خدمات الفرسان والسيرجاندية التي كان يتوجب على كل منطقة تقديمها للمملكة في أوقات الحاجة.

٥٢٠ــ على مملكة القدس واحد وأربعين فارساً، وبارونية مدينة يافا وعسقلان، والرملة، و Mirabel وإيبلين (يبنا) مائة فارس، وإمارة الجليل مائة فارس، وإقطاعية الكرك والشوبك ستين فارساً، وإقطاعية جوسلين أربعة وعشرين فارساً، ومدينة نابلس خمسة وثمانين فارساً، وإقطاعية عكا ثمانين فارساً، وإقطاعية صور ثمانية وسبعين فارساً، ويكون عدد الجميع خمسمائة وثمانية وستين فارساً.

٥٢١ــ وسأخبركم الآن بعدد السيرجاندية الذين كان ينبغي على كل واحد أن يقدمهم بمثابة خدمة: على بطريرك القدس تقديم خمسمائة سيرجندي، وعلى كهنة كنيسة الضريح المقدس خمسمائة سيرجندي، وعلى صفد مائة وخمسين سيرجندي، وعلى دير نوتردام للاتين مائة سيرجندي، وعلى أسقف طبرية خمسين سيرجندياً، وعلى مدينة القدس (من سكان المدينة) خمسمائة سيرجندي، وعلى مدينة عكا خمسمائة سيرجندي، وعلى مدينة نابلس ثلاثمائة سيرجندي، وعلى إيبلين و Mirabel مائة وخمسين سيرجندياً، وعلى أسقفية القديس إبراهيم(الخليل) خمسين سيرجندياً، وعلى رئاسة أساقفة صور مائة وخمسين سيرجندياً، وعلى أسقف صيدا خمسين سيرجندياً، وعلى رئاسة أساقفة قيسارية خمسين سيرجندياً، وعلى عسقلان مائة وخمسين سيرجندياً، وعلى ليغيو Legio مائة سيرجندي، وعلى Le-gerin (زرعين= جزريل التوراتية) خمسة وعشرين فارساً، وعلى حيفا خمسين فارساً، وعلى طبرية خمسين فارساً، فيكون تعداد الجميع ثلاثة آلاف وتسعمائة وخمسة وسبعين.

٥٢٢ــ وبعدما أحصيت لكم الخسارة المبكي عليها لعكا ولجميع أراضي سورية، وأسماء المناطق، والخدمات المتوجبة عليها، دعونا الآن نذكر لكم الأحداث التي وقعت فيها بعد.

٥٢٣ــ عندما عبرت الأخبار البحر، كان البابا وجميع المسيحية أسفين بقلوبهم إلى أبعد الحدود لدى سماعهم هذا، وجله حزنهم أولاً على الفقراء الصليبيين الذين ضاعوا، وثانياً بسبب العار الذي لحق بالمسيحية.

٥٢٤ــ وقام بابا روما على الفور بتسليح عشرة غلايين في أنكونا Ancona ، وأرسلهم إلى قبرص لحراسة الجزيرة، والمسيحيين الفقراء الذين كانوا فيها، وكذلك أرسل عشرة غلايين أخرى جرى تسليحهم في جنوى، ومتن هذا القبارصة كثيراً، ضد جراة السلطان ورعونته، لأنه عزم على غزو قبرص.

٥٢٥ــ وعندما وصلت هذه الغلايين، سلح الملك هنري الثاني خمسة عشر غليوناً، وذهبت الغلايين كلها مع بعضها إلى قلعة تركية [على ساحل الأناضول] اسمها Alanya ، واستولوا على البرج الذي كان على شاطىء البحر، وعزموا على الاستيلاء على البرج الثاني، لكنهم لم يكونوا قادرين على إنجاز ذلك، لأن الأتراك شاهدوهم يقدمون، وكانوا متيقظين محترسين ودافعوا عن أنفسهم، وكان فقط أنهم بعدما بذلوا جهوداً قتالية كبيرة، تمكنوا من الاستيلاء على البرج الذي لم يكونوا قد استولوا عليه من قبل، وبعد ذلك لم يستطيعوا أن يفعلوا أي شيء آخر، ولذلك تركوا ذلك البرج، وغادروا وذهبوا إلى الاسكندرية ومكثوا خارجها لعدة أيام، ثم عادوا إلى قبرص.

٥٢٦ــ وخلال العام ١٢٩١ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، غضب سلطان مصر، الذي كان قد دمر صليبي سورية، غضباً شديداً، عندما شاهد بأن الغلايين، قد حاصرت ميناء الاسكندرية كما أخبرتكم، وكان خائفاً من أن تتمكن قبرص من إلحاق المزيد من الأضرار به، ولذلك جمع أمراءه وأخبرهم بأنه يرغب بالاستيلاء على قبرص من دون تراجع، ولتحقيق هذا الهدف أعطى أوامر إلى مائة أمير، بأن عليهم صنع مائة غليون، وذلك كل أمير حسب مقدرته، وبما أن الأمراء كانوا رجالاً

يخافون منه كثيراً، وافقوا على هذا، وهكذا- كما سمعتم- لقد رغب بتدمير جميع الصليبيين حتى الفقراء منهم الذين التجأوا إلى قبرص، لكن الرب، الذي هو مليء بالرحمة، جعل الأمور تسير باتجاه معاكس، ووفق طريقة أنا سوف أخبركم عنها.

٥٢٧- وجمع السلطان مرة أخرى أمراءه وقال لهم: أيها السادة الأكارم، لقد قررت، أنني بعدما أستولي على قبرص، أنه يعجبني القيام بعمل كبير، يتناسب معي شخصياً، لذلك عليكم أن تعدوا أنفسكم لاتباعي، لأنني أرغب بالذهاب والاستيلاء على بغداد، ووضع نفسي على عرش الخليفة.

وعندما رأى الأمراء أنه عازم على القيام بهذا العمل الهائل والخطير، بحثوا بين أنفسهم القيام بقتله، لأنهم لايستطيعون تحمل رعونته، وفعلوا الذي قرروا أن يفعلوه، وأقسموا أيماناً مع بعضهم.

وحدث في أحد الأيام أنه كان في الخارج يصطاد، فانقضوا عليه وقتلوه، وكان الذي ضربه أولاً بيدرا، الذي كان خاله، أخو أمه، فقد ضربه بعزم ضعيف، لذلك لم يتسبب بإصابته بجرح مميت، وبناء عليه ضربه أمير اسمه لاجين، وهو يقول لبيدرا: إنك لم تضربه ضربة رجل يريد أن يكون سلطاناً، لكنني سوف أسدد إليه ضربة رجل، وضربة بشدة حتى أنه قطعه إلى نصفين، وهكذا جرى الانتقام للصليبية للمصائب التي اقترفها.

٥٢٨- وأوقع هذا الحادث المسلمين في حالة اضطراب كبير، لأن كل أمير أراد أن يكون سلطاناً، وكانت هناك معركة كبيرة فيما بينهم، وقد قتل عدد كبير فيها، وتمت ترقيته بيدرا ليكون سلطاناً، لكنه في اليوم التالي قتل هو وفريقه، وعمل كتبغا سلطاناً، ثم لاجين، الذي تحدثت لكم عنه، وهو الذي كان قد قتل السلطان، فقد قام لاجين باعتقال كتبغا، وانتزع السيادة منه، وقتل جميع رجال فريقه، ثم قتل

لاجين، مع جميع أعوانه، لا بل حتى سنجر الشجاعي، الذي كان أميراً كبيراً بين المسلمين، قد قتل، ومات ميتة تعيسة.

٥٢٩ـ وهكذا جرى قتل وتدمير جميع الأمراء، المضطهدين ليسوع المسيح، فلربها أن الرب أذن بأن نعاقب نحن من قبلهم لأفعالنا الشريرة، وفقط بقي للرب أن يعاقبهم للشرور التي اقترفوها بحقنا، وقضى الرب نفسه بوجوب عقاب الناس الذين ينبغي معاقبتهم بسبب الإهانات التي ألحقوها بالمسيحيين بتدمير الكنائس، وبجرجرة التماثيل التي عملت للتذكير بربنا وبسيدتنا، وهكذا بعث الرب إليهم نقصاً بالطعام، وبمجاعة أسوأ مما عانوه قط، وقد مات عدد كبير جداً من الناس، وبسبب أعداد الذين ماتوا، انتشر مرض كبير بينهم، مات فيه حتى عدد كبير من الأغنياء، وهكذا انتقم الرب من المسلمين الكفار.

٥٣٠ـ إنني أريد في وسط هذه الأحداث، أن أريكم قضية، من المؤكد أنها تستحق أن تذكر، فكل واحد، كما أعتقد، يعرف مثلما أنا أعرف، أنه بعد ضياع عكا وسورية، تغيرت أحوال الناس بشكل مخيف من الجيد إلى السيء، حيث ما من واحد رغب بالاهتمام بأي واحد آخر، لا بالخدمة ولا بتقديم العون، وشاهد الإنسان أناساً نبلاء قد انحطوا كثيراً وأهينوا، ولم يعد يرد حتى مجرد ذكرهم، وبسبب هذا شعوري بانزعاج شديد، وصرت حزيناً، وأصبحت أشعور بالإشفاق، ولذلك هيأت نفسي لنظم قصيدة حول ما آلت إليه الأمور، منذ ضياع عكا وسورية ووضعت القصيدة التي نظمتها في هذا الكتاب، حتى يجري دوماً حفظها في مستقبل الأيام، ويجري تذكرها، وهي بدأت هكذا:

بسبب أنني شهدت أشياء كثيرة تتغير،

من النور إلى الظلام،

في أيامي

أمام عيني بالذات.

أنا قهرت بالحاجة،
في أن أدون أفكاري شعراً،
أفكاري حول الزمن والموسم
الذي وقعت فيه أشياء سيئة كثيرة جداً.

أنا لايمكنني الالتزام بالصمت، مهما كان الثمن،
لأن هذه الأشياء وزنها ثقيل جداً على قلبي،
حيث رأيت الأيام معاكسة تماماً
للشعب الفرنسي النبيل.

وإذا ما أراد أي واحد أن يقول: ما شأن هذا بي؟
ما الفائدة المجنية من سماع مثل هذه الأشياء؟
دعهم يكونوا متأكدين أنهم يستمعون،
إلى حكاية هي تماماً جديدة.

ودعهم لا يظنون أنها حماقة
أن يقلع إنساناً محنكاً بالعمل،

حول مناسبة، وأن يكون متورطاً
في صياغة مناقشات جيدة في الشعر.

لأن الإنسان قد يجد أمثلة جيدة
في الشعر وفي الأغاني،
وغالباً، بوساطة هؤلاء
قد يدرك بعضهم الكمال.

أنا سوف أبدأ مع العصر الحالي،
وسوف أتحدث عن أشياء محددة،
ينبغي أن تكون واضحة إلى كل واحد،
ثم إن الذي سأقوله هو الصدق.

عندما نهبت عكا وتشعثت،
وصارت سورية يباباً،
تطلعت الدنيا لشيء ما جيد،
في وسط شرور عظيمة.

الناس الذين كانوا أشراراً،

أصبحوا الآن حتى أكثر شراً،
وباعتقادي
لم يعد أحد يهتم بأي واحد آخر.

لأن الضغينة، والخلاف، والكراهية
تجذرت عميقاً بين الناس،
فالحب هرب من عندهم
والحسد بدا ظاهراً بينهم.

لأنهم في صراع شديد،
حول من ستكون له اليد العليا،
في هذا العالم، وأن يبرهن نفسه متفوقاً،
وأن ما من واحد يمكن أن يكون مساوياً له.

وكل واحد يسعى لأن يكون الأكثر والأعلى تشريفاً،
وأن يكون مخافاً أكثر من جاره،
صانعاً ومرتدياً ثياباً فخمة،
وأن ينشأ أرعناً جباراً

لكن مساعدة فتيات يتيمات في الحصول على أزواج،

أو مساعدة أرامل غدون فقيرات،
إنك لن ترى أي واحد
واضعاً جانباً نقوداً من أجل إعطاء الصدقات.

وهكذا الجزء الأكبر من الناس
تغيروا إلى الأسوأ.
ولربما من دون أبيات شعري،
ما من واحد كان سيتوقف ويبدي اهتماماً،

لذلك أنا سوف أبدأ،
وأريكم في الشعر،
كيف أن المشاعر الطيبة، والفضائل، والآداب،
لها مجرد قيمة قليلة في هذه الأيام.

ويجري الحصول على الثناء والشرف بصعوبة،
بكلمات لطيفة وبجرأة،
وبالحياء والإطراء سوف تكون أكثر إسراعاً،
في دفع قضيتك وتسهيلها هذه الأيام

والذين هم جيدين وقت السكر،

والذين يغنون أغاني قذرة،
ويطرون ويرشون،
مثل هؤلاء يمكنهم الحصول على ما يريدون.

وكل من هو ماهر،
ومخادع في أموره، ويظهر البراعة،
ويقدم مع أفكار جديدة،
مثل هذا الشخص يعد حكيماً.

وكل من يتصرف بنفسه برعونة،
ويؤخر الإجابة على كل واحد،
ويظهر نفسه حاداً، وجريئاً،
ذلك الشخص يعد شجاعاً.

لكن الإنسان النبيل والمستقيم،
الذي بلا خداع، وصاحب سلوك جيد،
مثل هذا الشخص لا يجذب الانتباه،
بل يعد بليداً.

لأنه من النادر أن يستطيع أي إنسان بالإنسانية،

أو بالعقلانية، أو بكلمات صالحة،
أو بالعيش حياة مستقيمة،
أن يحصل على المساعدة وقت الضيق،

وباختصار علي أن أخبركم،
أنه لا يمكن للإنسان أن يجد انساناً محنكاً،
يقدر تقديراً عالياً،
بسبب صلاحه أو معارفه.

لكن الذين يقرضون المال بالربا،
يُمنحون تشريفاً عظيماً بلا حدود،
ويرعون رعاية جيدة ويحظون بالمحبة،
بشكل واسع أكثر من رجل محنك مخلص.

وأشخاص جبناء ذوي أصول فاسدة،
تجري دعوتهم من قبل أشخاص لهم مكانتهم للرقص،
ويعطون التشريفات والجوائز،
ويستقبلون من قبل النبلاء.

اللعنة تكسو وجوههم بالذات،

بسبب القطع الفضية القليلة التي لديهم،
والتي من أجلها سوف بعض الناس يشرفونهم،
ولهذا السبب وحده سوف يعترفون بهم!
هكذا يتهاوى العالم إلى خراب،
عندما يؤخذ بالشر بدلاً عن الخير،
لقد جرى الإخبار بهذه الأيام من قبل بوضوح،
من قبل الكهان، الذين أخبروا بالصدق.

لكن ليس مهماً من كان من الناس قد أخبرني، في النهاية،
أنا أعرف تمام المعرفة، وبحق القديس مارتن،
أن الذي ليس لديه مالاً،
لن يستقبل بصورة مرضية هذه الأيام.

وبالنسبة للذين يريدون،
أن يكدسوا كومة كبيرة من الذهب والفضة،
وبذلك يمكن أن يحسدوا من قبل الآخرين،
إنهم يضعون وزناً عظيماً على ضمائرهم.

النبلاء الطيبين الصالحين،

لم يعتادوا أن يتصرفوا هكذا، ولا مرة،
هم بالحري عملوا بصدق،
وبصلاح، وبإخلاص،

لكن الرجال الفاسدين ليسوا كذلك الآن،
كلامهم محفوظ،
وهم يسعون إلى تكديس الذهب والفضة،
وأن يترأسوا بذلك على الناس الأحسن.

مثل هؤلاء الناس قد دمروا العالم،
هناك خوف عظيم من الأتان ذات القرون،
بقرون من ذهب وفضة،
تستطيع أن تبقر جميع بني البشر.

ومع أننا جميعاً مخلوقات
الرب، يبقى ليس صحيحاً
أن يمتلك الجميع المكانة نفسها،
فقد كان بإرادة من الرب.

أن إبراهيم وضع اسماعيل

تحت قدمي اسحق، الذي مع أنه الأصغر
كان قد أنجب من قبل الزوجة السيدة،
وعدّ اسماعيل عبداً

لأنه كان نغلاً، ولد من امرأة عبدة،
ولكن ما من أحد يمكنه أن يحافظ على نفسه،
ما لم يكن ممتلكاً للمال،
فمن أجله أنزل الناس إلى الحضيض.

فكل شيء الآن هو بالمقلوب،
أناس من أصول متدنية كثيراً،
تقدموا بسرعة، بسبب
أنهم امتلكوا مالاً بلا حدود .

على هذا أعني يا رب، فإن هذا يحزنني،
والآن وقد قرأتم أبيات شعري،
كم هو الذنب الموجود كبير، وكم عدد المرضى هو كبير،
عندما أصبحت الأتان فرساً!

وبجدداً من أجل الرغبة الشديدة بالمال،

بعضهم سوف يسرقون آخرين،
ويستولي أحدهم على البلاد من الآخر،
ويبعث المسيحية من قبل كل واحد.

الشيء الذي يؤلمني كثيراً في هذا العصر،
والذي انتشر بفساد عظيم،
هو أن الذين من أصل جيد،
يجرجرون نحو الأسفل بوساطة هذه الأثقال الساحقة.

في كل مكان المستقيمون يخفضون،
والصدق يتلاشى في كل جانب،
وإذا ما تخاصم أي انسان مع
مع رجل قوي متسلط،

إن الانسان الذي يوزع الدعوات ويقدم الهدايا
من الخمور الجيدة والمنعشات إلى القاضي،
سوف يتلقى إصغاء كاملاً،
في حين أن الرجل الذي لا يفعل ذلك سوف يطرد.

وكل شيء يسير من السيء إلى الأسوأ،

أنا لا أدري بهذا سوف أخبركم أيضاً،
لكن كونوا متأكدين بأن الرب،
سوف يحكم على هذه الأشياء كلها في النهاية.

وبودي الآن أن أحدثكم عن رجال الدين،
الذين تكرسوا جميعاً للسيمونية (بيع المناصب)،
فما من أحد يحصل على وقف لفضائله،
أو لحكمته—فقط بتقديم الرشاوى.

ما من انسان يستطيع أن يحصل على أي من المنافع
الكنسية بأية طريقة من الطرق،
لا التعميد ولا الدفن،
باستثناء من خلال مكاتب مولاي المال.

وليس مهماً بمن كانت المسألة تتعلق،
فقد بات معروفاً إذا كانت الأمور
حول إنسان فقير بائس،
عندها سوف يبعد مطروداً بالكلام.

لكنه إذا كان غنياً ومتنفذاً،

عندها سوف يأتي كل واحد على الفور،
ضمن مسيرة وهو ينشد،
هكذا تسير الأمور الآن.

لم يرسم القديس بطرس بأن يقوم رجال الكهنوت
بالتصرف والسلوك بأنفسهم هكذا،
عليهم أن يجعلوا أنفسهم متوفرين إلى جميع الناس،
من دون طلب ذهب أو فضة.

وعندما أي واحد في الكنيسة المقدسة،
يصبح أسقفاً أو يتولى أحد المناصب،
ينتفخ على الفور بالعجرفة،
مثل خروف تحول إلى دب.

بعض الدومينيكان والفرنسيسكان،
لديهم كثيراً من العجرفة، وهذا أمر مؤكد،
لكن من دونهم يمكن أن يقال بصدق،
سوف يكون العالم أسوأ بكثير.

من المؤكد، إنهم لو لم يوجدوا،

من أجل أعمالهم بتقديم الصدقات،
حسبما يمكن للذين يعرفون الحكاية أن يشهدوا
إنهم يمنعون كثيراً من الناس عن اقتراف الأفاعيل الشريرة.

بالنسبة للملوك، والأمراء، والبارونات،
أنا لن أقدم على ذكرهم،
لأن كل واحد يستطيع أن يشاهد بوضوح،
الطريقة التي تعمل فيها حكومتهم.

إنني أعرف تمام المعرفة، حتى من دون أن أقول ذلك،
كل واحد يرى الطريق الذي يتدهور فيه العالم نحو الأسوأ،
وربما يقول إنسان: ماذا علي أن أفعل؟
على الإنسان الإبتعاد على جميع الشرور.

ويبعد ذاته عن العجرفة الدنيوية،
وأن يشرّف الرب ويخدمه،
لأنه عندما سيأتي إلى يوم الحساب،
الروث سيكون أكثر فائدة من المال،

الحفاظ على الفضائل في هذا الوقت،

التي سمعتموني أعددها،
ليست هي العادة في قبرص على الاطلاق،
لأنه من الممكن القول حقاً.

أنها كانت أكثر البلدان لطفاً،
بين هنا وبين باريس،
ما من واحد كان يعرف الخلاف،
فقط السلام والمحبة، والوئام.

لقد حافظوا على روابط التعاطف،
وانسجموا بأنفسهم مع الإخلاص والصدق،
ولم يكن لديهم تفكيراً آخر،
غير الاحتفال وجلب المواساة.

كانوا نبلاء ومنفتحين،
نحو جميع الناس ذوي الارادة الحسنة،
وهكذا كانت بلادهم آمنة،
ولم يكن هناك شجار مع أي واحد.

لكنهم تمزقوا بالجشع وتفرقوا،

وبالخلافات الكبيرة والمشاجرات،
ولذلك ضعفوا ضعفاً كبيراً،
وتقرروا وانحدروا نحو الأسفل.

وهكذا صار فيها بينهم كراهية شديدة،
وبسوء عاملوا بعضهم بعضاً،
ولم يعد هناك حب فقد ضاع فيها بينهم،
وفقط عدم الوفاء وسوء السلوك.

وهكذا ضاعت البلاد،
ووقع ضرر كبير، كما تعرفون معرفة جيدة
وهناك خطر كبير في عدم توافقهم،
إذا لم يعدهم الرب إلى الوفاق.

٥٣١— والآن وقد سمعتم القصيدة التي كنت قد نظمتها حول الحياة آنئذ، وأعتقد أن كل واحد قد رأى هذا الزمان، مثلما فعلت، سوف يقول بأن القصيدة قد تحدثت بشكل جيد، وبصدق وصواب. لكنني سأترك الآن هذه القضية، وأشرع بالحديث حول القضايا التي ينبغي البحث بها، والتي وقعت بعد فقدان عكا، وذلك وفق ما ذكرت لكم الأشياء الأخرى المبكرة.

٥٣٢— حدث بعد فقدان عكا في عام ١٢٩١ لتجسيد المسيح، أن مسلمي اسبانيا، الذين عند مضائق المغرب (مضيق جبل طارق) رأوا أن

سلطان مصر قد دمر الصليبية في سورية، لذلك رغبوا بتدمير الصليبيين الاسبان، لأن مسلمي سورية كانوا منذ زمن طويل قد عقدوا حلفاً مع مسلمي اسبانيا لإلحاق الضرر بالصليبيين هنا وهناك، فالذي حققه المسلمون السوريون وأنجزوه أراد الآخرون- الذين ذكرتهم- أن يفعلوا مثله، فقد سلحوا عشرين سفينة مسطحة وغليونا ومراكب أخرى، وجلبوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين عبر مضيق المغرب، إلى أرض ملك أسبانيا، بواسطة عدد من الرحلات، وبعدما عبروا حاصروا مدينة مسيحية جيلة عائدة إلى ملك قشتالة (سانشو الرابع- ١٢٨٤-١٢٩٥).

٥٣٣— وعندما علم ملك قشتالة بهذا، سلح خمسة عشر غليونا، كان أميرالهم السير بينيديتو زاكاريا الجنوي، الذي كان في ذلك الوقت أدميرالاً لمملكة قشتالة، ووصل هذا بينيديتو مع غلايينه الخمسة عشر إلى المكان الذي كان فيه المسلمون، وقام بمطاردتهم، لكنه لم يستطع تحصيلهم، وبعد ذلك عادت الغلايين المسلمة إلى أماكنها، وأنزلت العساكر طوال اليوم.

٥٣٤— وحشد ملك قشتالة فرسانه المسلحين وقواته، وفي الوقت الذي كان يحشد فيه قواته ليزحف ضد المسلمين، كان بينيديتو زاكاريا يقوم بمطاردة الغلايين المسلمة، وأمسك بعض المراكب، وكان المكان الذي كان المسلمون ينزلون فيه رجالهم ضيقاً، ورأى المسلمون أن غلايينهم أكثر سرعة من غلايين الصليبيين، ولهذا تصرفوا بجرأة كبيرة، وأنزلوا الرجال في مكان آخر دون أن يهتموا بغلايينا.

٥٣٥— وكان بينيديتوزاكاريا هذا شخصياً بحاراً عاقلاً وبارعاً، وكان أيضاً برفقته عدد مماثل من الملاحين الجنويين العاقلين والبارعين مأجورين من قبل ملك قشتالة، وقد تناقش معهم حول كيف يمكن خداع الغلايين المسلمة، وبعد تقديم كثير من الاقتراحات، قرروا أن يجعلوا المناصد في غلايينهم طويلة كثيراً، بحيث يمكن لثلاثة رجال أن

وبالخلافات الكبيرة والمشاجرات،
ولذلك ضعفوا ضعفاً كبيراً،
وتضرروا وانحدروا نحو الأسفل.

وهكذا صار فيما بينهم كراهية شديدة،
وبسوء عاملوا بعضهم بعضاً،
ولم يعد هناك حب فقد ضاع فيما بينهم،
وفقط عدم الوفاء وسوء السلوك.

وهكذا ضاعت البلاد،
ووقع ضرر كبير، كما تعرفون معرفة جيدة
وهناك خطر كبير في عدم توافقهم،
إذا لم يعدهم الرب إلى الوفاق.

٥٣١ — والآن وقد سمعتم القصيدة التي كنت قد نظمتها حول الحياة آنئذ، وأعتقد أن كل واحد قد رأى هذا الزمان، مثلما فعلت، سوف يقول بأن القصيدة قد تحدثت بشكل جيد، وبصدق وصواب. لكنني سأترك الآن هذه القضية، وأشرع بالحديث حول القضايا التي ينبغي البحث بها، والتي وقعت بعد فقدان عكا، وذلك وفق ما ذكرت لكم الأشياء الأخرى المبكرة.

٥٣٢ — حدث بعد فقدان عكا في عام ١٢٩١ لتجسيد المسيح، أن مسلمي اسبانيا، الذين عند مضائق المغرب (مضيق جبل طارق) رأوا أن

سلطان مصر قد دمر الصليبية في سورية، لذلك رغبوا بتدمير الصليبيين الاسبان، لأن مسلمي سورية كانوا منذ زمن طويل قد عقدوا حلفاً مع مسلمي اسبانيا لإلحاق الضرر بالصليبيين هنا وهناك، فالذي حققه المسلمون السوريون وأنجزوه أراد الآخرون - الذين ذكرتهم - أن يفعلوا مثله، فقد سلحوا عشرين سفينة مسطحة وغليونا ومراكب أخرى، وجلبوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين عبر مضيق المغرب، إلى أرض ملك أسبانيا، بوساطة عدد من الرحلات، وبعدما عبروا حاصروا مدينة مسيحية جيلة عائدة إلى ملك قشتالة (سانشو الرابع - ١٢٨٤ - ١٢٩٥).

٥٣٣ - وعندما علم ملك قشتالة بهذا، سلح خمسة عشر غليونا، كان أدميرالهم السير بينيديتو زاكاريا الجنوي، الذي كان في ذلك الوقت أدميرالاً لمملكة قشتالة، ووصل هذا بينيديتو مع غلايينه الخمسة عشر إلى المكان الذي كان فيه المسلمون، وقام بمطاردتهم، لكنه لم يستطع تحصيلهم، وبعد ذلك عادت الغلايين المسلمة إلى أماكنها، وأنزلت العساكر طوال اليوم.

٥٣٤ - وحشد ملك قشتالة فرسانه المسلحين وقواته، وفي الوقت الذي كان يحشد فيه قواته ليزحف ضد المسلمين، كان بينيديتو زاكاريا يقوم بمطاردة الغلايين المسلمة، وأمسك بعض المراكب، وكان المكان الذي كان المسلمون ينزلون فيه رجالهم ضيقاً، ورأى المسلمون أن غلايينهم أكثر سرعة من غلايين الصليبيين، ولهذا تصرفوا بجرأة كبيرة، وأنزلوا الرجال في مكان آخر دون أن يهتموا بغلايينا.

٥٣٥ - وكان بينيديتوزاكاريا هذا شخصياً بحاراً عاقلاً وبارعاً، وكان أيضاً برفقته عدد مماثل من الملاحين الجنويين العاقلين والبارعين مأجورين من قبل ملك قشتالة، وقد تناقش معهم حول كيف يمكن خداع الغلايين المسلمة، وبعد تقديم كثير من الاقتراحات، قرروا أن يجعلوا المتاصد في غلايينهم طويلة كثيراً، بحيث يمكن لثلاثة رجال أن

وبالخلافات الكبيرة والمشاجرات،
ولذلك ضعفوا ضعفاً كبيراً،
وتضرروا وانحدروا نحو الأسفل.

وهكذا صار فيما بينهم كراهية شديدة،
وبسوء عاملوا بعضهم بعضاً،
ولم يعد هناك حب فقد ضاع فيما بينهم،
وفقط عدم الوفاء وسوء السلوك.

وهكذا ضاعت البلاد،
ووقع ضرر كبير، كما تعرفون معرفة جيدة
وهناك خطر كبير في عدم توافقهم،
إذا لم يعدهم الرب إلى الوفاق.

٥٣١— والآن وقد سمعتم القصيدة التي كنت قد نظمتها حول الحياة آنئذ، وأعتقد أن كل واحد قد رأى هذا الزمان، مثلما فعلت، سوف يقول بأن القصيدة قد تحدثت بشكل جيد، وبصدق وصواب. لكنني سأترك الآن هذه القضية، وأشرع بالحديث حول القضايا التي ينبغي البحث بها، والتي وقعت بعد فقدان عكا، وذلك وفق ما ذكرت لكم الأشياء الأخرى المبكرة.

٥٣٢— حدث بعد فقدان عكا في عام ١٢٩١ لتجسيد المسيح، أن مسلمي اسبانيا، الذين عند مضائق المغرب (مضيق جبل طارق) رأوا أن

سلطان مصر قد دمر الصليبية في سورية، لذلك رغبوا بتدمير الصليبيين الاسبان، لأن مسلمي سورية كانوا منذ زمن طويل قد عقدوا حلفاً مع مسلمي اسبانيا لإلحاق الضرر بالصليبيين هنا وهناك، فالذي حققه المسلمون السوريون وأنجزوه أراد الآخرون- الذين ذكرتهم- أن يفعلوا مثله، فقد سلحوا عشرين سفينة مسطحة وغليونا ومراكب أخرى، وجلبوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين عبر مضيق المغرب، إلى أرض ملك أسبانيا، بوساطة عدد من الرحلات، وبعدما عبروا حاصروا مدينة مسيحية جميلة عائدة إلى ملك قشتالة (سانشو الرابع- ١٢٨٤-١٢٩٥).

٥٣٣- وعندما علم ملك قشتالة بهذا، سلح خمسة عشر غليونا، كان أدميرالهم السير بينيديتو زاكاريا الجنوي، الذي كان في ذلك الوقت أدميرالاً لمملكة قشتالة، ووصل هذا بينيديتو مع غلاينه الخمسة عشر إلى المكان الذي كان فيه المسلمون، وقام بمطاردتهم، لكنه لم يستطع تحصيلهم، وبعد ذلك عادت الغلايين المسلمة إلى أماكنها، وأنزلت العساكر طوال اليوم.

٥٣٤- وحشد ملك قشتالة فرسانه المسلحين وقواته، وفي الوقت الذي كان يحشد فيه قواته ليزحف ضد المسلمين، كان بينيديتو زاكاريا يقوم بمطاردة الغلايين المسلمة، وأمسك بعض المراكب، وكان المكان الذي كان المسلمون ينزلون فيه رجالهم ضيقاً، ورأى المسلمون أن غلايينهم أكثر سرعة من غلايين الصليبيين، ولهذا تصرفوا بجرأة كبيرة، وأنزلوا الرجال في مكان آخر دون أن يتموا بغلايينا.

٥٣٥- وكان بينيديتوزاكاريا هذا شخصياً بحاراً عاقلاً وبارعاً، وكان أيضاً برفقته عدد مماثل من الملاحين الجنويين العاقلين والبارعين مأجورين من قبل ملك قشتالة، وقد تناقش معهم حول كيف يمكن خداع الغلايين المسلمة، وبعد تقديم كثير من الاقتراحات، قرروا أن يجعلوا المناضد في غلايينهم طويلة كثيراً، بحيث يمكن لثلاثة رجال أن

بحلوا عليهم ويشغلوهم، حتى يكونوا أكثر سرعة وأشد عنفا وأوجبوا على ملاحيهم أن يجذب ثلاثة بالمنضدة، وهو تصميم عرف باسم الثلاثي Treseul (أي أن يجذب ثلاثة بالمجذاف الواحد).

وبعدما غير غلاييه وفق الطريقة التي وصفت، حدث أنه في صباح يوم جميل، انطلق السير بينيديتو للمضي ضد الغلايين المسلمة، وجذف ببطء، شديد، وقدمت الغلايين المسلمة -كما اعتادت- وهي واثقة لمواجهته، وعندما رأى السير بينيديتو أنهم أصبحوا على رمية قوس، وأنهم كانوا واثقين بسرعتهم، لكن ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم، بفضل رحمة الرب قد خدعوا، فعلى الفور شرع الفرقاء الثلاثين بالتجذيف، وقاموا بمطاردتهم، إلى الجانب الآخر من البلاد(؟) حيث وجد كثير من المسلمين أنفسهم قرب اليابسة، وهنا قفزوا بأنفسهم بالبحر، وقام آخرون بالدفاع عن أنفسهم، لكن تم الاستيلاء على جميع العشرين غليوناً، وجرى قتل العدد الأكبر من الرجال، أو أسروا، وانقض رجالهم الذين كانوا على اليابسة عليهم وقتلوهم.

وعندما سمع بحارتهم، الذين كانوا يحاصرون بلدة ملك قشتالة، بأنه تم الاستيلاء على غلايينهم، رفعوا الحصار وعادوا إلى شاطىء البحر، ليروا فيما إذا كانت هناك أية فرصة لتخليص أي من القوات، حتى يتمكنوا من الإنسحاب، لكن بعضا منهم ذهبوا إلى ملك قشتالة، حيث وجدوه مع جيش كبير، وتحول هؤلاء المسلمين وصاروا نصارى.

وبقي ملك قشتالة ورجاله هناك، حيث كان المسلمون، وذلك حتى يتمكن الملك من هزيمتهم، وعرضهم جميعاً على السيف من دون رحمة، وفعل ملك قشتالة بتصميم حتى يجلب الهدوء إلى قلبه، ويزيل عنه ما يحمله، بسبب ضياع عكا وتدمير الصليبيين المساكين في سورية.

لكن دعونا نترك القضية ها هنا، لأنه ليس هناك من زيادة للقول، وسوف تسمعون حول حادثة أخرى.

٥٣٦— إنكم تعلمون كيف قد وصفت لكم حرب الجنويين، وكنت قد أخبرتكم بعد هذا عن الحرب التي قاتل بها الجنويون مع بيزا، والتي هزموهم بها، كما سمعتم، وكان معظم هذا بسبب الحرب التي تقدم ذكرها، عند عكا، فبعد هذه، عند عكا، أبغض البنادقة رجال جنوى كثيراً، وغالباً ما قدموا لهم الاهانات، ومن جانبهم رغب الجنويون كثيراً بالحرب ضد رجال البندقية، للانتقام أو لسحق عارهم، هذا وإن الخطأ متأصل مع البنادقة، ومع العدو من الجحيم، الذي يعرف تمام المعرفة أن كل ما يحتاجه هو أن يبدأ واحداً منهم بها، وهكذا هيأ السبيل على الفور، حسبما سأخبركم.

٥٣٧— فقد حدث في العام ١٢٩٢ للمسيح، أنه قدم من البندقية إلى قبرص أربعة غلايين، وكان هناك رجالاً مسلحين من غليونين آخرين في قبرص، في خدمة منظمة الداوية، وعليهم كان قد وصل فارس راهب داوي، اسمه وليم دي لي تور Tour ، وقدم مولاي فيليب أوف ابيلين خال الملك هنري الثاني، ملك القدس وقبرص، قدم من بلاد ما وراء البحر في هذه الغلايين الأربعة.

وحدث الآن، أنهم عندما كانوا على الطريق اصطدموا ببسعة غلايين تجارية جنوية، وهم على طريقهم من بيزنطة إلى جنوى، وحسبما كانت العادة في البحار... [فراغ]... لم ترغب الغلايين الأربعة التابعة للبنادقة بتجنبهم، مع أن السير فيليب أوف إبيلين سألهم أن يفعلوا ذلك، لكنهم لم يرغبوا بفعل شيء من ذلك البته، وقام الجنويون -على كل حال- بانزال راياتهم حتى يتجنبوا المضايقات والمتاعب، لأنهم كانوا تجاراً لم يرغبوا بالقتال، وكان لديهم ستة غلايين، لأن أحد الغلايين ذهب إلى قرب اليابسة ليرى إذا كان هناك أية غلايين أخرى، وكان لدى البنادقة عدداً كبيراً من الرجال، وكانوا يتطلعون نحو القتال، ولقد اعتقدوا أن لديهم ما يكفي من ملاحين على غلايينهم الأربعة من أجل الغلايين الستة-كما

٥٣٦— إنكم تعلمون كيف قد وصفت لكم حرب الجنويين، وكنت قد أخبرتكم بعد هذا عن الحرب التي قاتل بها الجنويون مع بيزا، والتي هزموهم بها، كما سمعتم، وكان معظم هذا بسبب الحرب التي تقدم ذكرها، عند عكا، فبعد هذه، عند عكا، أبغض البنادقة رجال جنوى كثيراً، وغالباً ما قدموا لهم الاهانات، ومن جانبهم رغب الجنويون كثيراً بالحرب ضد رجال البندقية، للانتقام أو لسحق عارهم، هذا وإن الخطأ متأصل مع البنادقة، ومع العدو من الجحيم، الذي يعرف تمام المعرفة أن كل ما يحتاجه هو أن يبدأ واحداً منهم بها، وهكذا هيأ السبيل على الفور، حسبما سأخبركم.

٥٣٧— فقد حدث في العام ١٢٩٢ للمسيح، أنه قدم من البندقية إلى قبرص أربعة غلايين، وكان هناك رجالاً مسلحين من غليونيين آخرين في قبرص، في خدمة منظمة الداوية، وعليهم كان قد وصل فارس راهب داوي، اسمه وليم دى لى تور Tour ؛ وقدم مولاي فيليب أوف ابيلين خال الملك هنري الثاني، ملك القدس وقبرص، قدم من بلاد ما وراء البحر في هذه الغلايين الأربعة.

وحدث الآن، أنهم عندما كانوا على الطريق اصطدموا بسبعة غلايين تجارية جنوية، وهم على طريقهم من بيزنطة إلى جنوى، وحسبما كانت العادة في البحار... [فراغ]... لم ترغب الغلايين الأربعة التابعة للبنادقة بتجنبهم، مع أن السير فيليب أوف إيبلين سألهم أن يفعلوا ذلك، لكنهم لم يرغبوا بفعل شيء من ذلك البته، وقام الجنويون -على كل حال- بانزال راياتهم حتى يتجنبوا المضايقات والمتاعب، لأنهم كانوا تجاراً لم يرغبوا بالقتال، وكان لديهم ستة غلايين، لأن أحد الغلايين ذهب إلى قرب اليابسة ليرى إذا كان هناك أية غلايين أخرى، وكان لدى البنادقة عدداً كبيراً من الرجال، وكانوا يتطلعون نحو القتال، ولقد اعتقدوا أن لديهم ما يكفي من ملاحين على غلايينهم الأربعة من أجل الغلايين الستة-كما

يحلوا عليهم ويشغلوهم، حتى يكونوا أكثر سرعة وأشد عنفا وأوجبوا على ملاحيهم أن يجذف ثلاثة بالمنضدة، وهو تصميم عـرف باسم الثلاثي Treseul (أي أن يجذف ثلاثة بالمجذاف الواحد).

وبعدما غير غلايينه وفق الطريقة التي وصفت، حدث أنه في صباح يوم جميل، انطلق السير بينيديتو للمضي ضد الغلايين المسلمة، وجذف بعلى شديد، وقدمت الغلايين المسلمة -كما اعتادت- وهي واثقة لمواجهته، وعندما رأى السير بينيديتو أنهم أصبحوا على رمية قوس، وأنهم كانوا واثقين بسرعتهم، لكن ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم، بفضل رحمة الرب قد خدعوا، فعلى الفور شرع القرقاء الثلاثين بالتجذيف، وقاموا بمطاردتهم، إلى الجانب الآخر من البلاد(؟)حيث وجد كثير من المسلمين أنفسهم قرب اليابسة، وهنا قفـزوا بأنفسهم بالبحر، وقام آخرون بالدفاع عن أنفسهم، لكن تم الاستيلاء على جميع العشرين غليـونا، وجـرى قتل العدد الأكبر من الرجـال، أو أسروا، وانقض رجالهم الذين كانوا على اليابسة عليهم وقتلوهم.

وعندما سمع بحارتهم، الذين كانوا يحاصرون بلدة ملك قشتالة، بأنه تم الاستيلاء على غلايينهم، رفعوا الحصار وعادوا إلى شاطىء البحر، ليروا فيما إذا كانت هناك أية فرصـة لتخليص أي من القوات، حتى يتمكنوا من الانسحاب، لكن بعضاً منهم ذهبوا إلى ملك قشتالة، حيث وجدوه مع جيش كبير، وتحول هؤلاء المسلمين وصاروا نصارى.

وبقي ملك قشتالة ورجاله هناك، حيث كان المسلمون، وذلك حتى يتمكن الملك من هزيمتهم، وعرضهم جميعاً على السيف من دون رحمة، وفعل ملك قشتالة بتصميم حتى يجلب الهدوء إلى قلبه، ويزيل عنه ما يحمله، بسبب ضياع عكا وتدمير الصليبيين المساكين في سورية.

لكن دعونا نترك القضية ها هنا، لأنه ليس هناك من زيادة للقول، وسوف تسمعون حول حادثة أخرى.

٥٣٦— إنكم تعلمون كيف قد وصفت لكم حرب الجنويين، وكنت قد أخبرتكم بعد هذا عن الحرب التي قاتل بها الجنويون مع بيزا، والتي هزموهم بها، كما سمعتم، وكان معظم هذا بسبب الحرب التي تقدم ذكرها، عند عكا، فبعد هذه، عند عكا، أبغض البنادقة رجال جنوى كثيراً، وغالباً ما قدموا لهم الاهانات، ومن جانبهم رغب الجنويون كثيراً بالحرب ضد رجال البندقية، للانتقام أو لسحق عارهم، هذا وإن الخطأ متأصل مع البنادقة، ومع العدو من الجحيم، الذي يعرف تمام المعرفة أن كل ما يحتاجه هو أن يبدأ واحداً منهم بها، وهكذا هيأ السبيل على الفور، حسبما سأخبركم.

٥٣٧— فقد حدث في العام ١٢٩٢ للمسيح، أنه قدم من البندقية إلى قبرص أربعة غلايين، وكان هناك رجالاً مسلحين من غليونيين آخرين في قبرص، في خدمة منظمة الداوية، وعليهم كان قد وصل فارس راهب داوي، اسمه وليم دى لى تور Tour ، وقدم مولاي فيليب أوف ابيلين خال الملك هنري الثاني، ملك القدس وقبرص، قدم من بلاد ما وراء البحر في هذه الغلايين الأربعة.

وحدث الآن، أنهم عندما كانوا على الطريق اصطدموا بسبعة غلايين تجارية جنوية، وهم على طريقهم من بيزنطة إلى جنوى، وحسبما كانت العادة في البحار... [فراغ]... لم ترغب الغلايين الأربعة التابعة للبنادقة بتجنبهم، مع أن السير فيليب أوف إيبلين سألهم أن يفعلوا ذلك، لكنهم لم يرغبوا بفعل شيء من ذلك البته، وقام الجنويون -على كل حال- بانزال راياتهم حتى يتجنبوا المضايقات والمتاعب، لأنهم كانوا تجاراً لم يرغبوا بالقتال، وكان لديهم ستة غلايين، لأن أحد الغلايين ذهب إلى قرب اليابسة ليرى إذا كان هناك أية غلايين أخرى، وكان لدى البنادقة عدداً كبيراً من الرجال، وكانوا يتطلعون نحو القتال، ولقد اعتقدوا أن لديهم ما يكفي من ملاحين على غلايينهم الأربعة من أجل الغلايين الستة-كما

أخبرتكم، وعندما رأوا الغليون يتحرك بعيداً عن أنظارهم، اعتقدوا أنهم كانوا يفعلون ذلك صدوراً عن الخوف، وهكذا باتوا رعناء، ومدوا أيديهم إلى سيوفهم، وأشهروها، وهم يصرخون نحو الجنويين: «الآن....[فراغ].» يعني أن تقول: «نحن قد حصلنا عليكم».

وعندما شاهد الجنويون ما يفعله البنادقة، وأنهم قد سلحوا أنفسهم، قاموا هم أيضاً بتسليح أنفسهم، وزحفوا ضدهم، وعندما توجهوا، قتل الراهب الفارس وليم دي لي تور [الذي كان على ظهر غليون بندقي كما أخبرتكم]برمية قوس عقار، وعندما التحموا بالقتال مع بعضهم بعضاً نال البنادقة السوء، وغلبوا، ووقعوا بالأسر، وقتل عدد كبير منهم.

وكان قبطان الغلايين الجنوية السير غيان مالوسيلو Gian Malocelo ، وقد حمى السير فيليب أوف ابيلين، خال ملك قبرص، مع أنه تمّ الاستيلاء على لوح السير فيليب الفضي، ولم يمكن العثور عليه أبداً، وعلى كل حال قدموا تعويضاً عن هذا، من أجل إرضائه.

وأخذ البنادقة إلى جزيرة حيث اعترفوا بما اقترفوه من ذنب، وبالعدوان الذي قاموا به، وعمل الجنويون صكاً موثقاً بالاعتراف، ثم تركوهم يذهبون، فهكذا روى السير فيليب أوف ابيلين الحكاية كلها.

٥٣٨— وفي العام التالي، الذي كان عام ١٢٩٣ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، قام البنادقة بتسليح خمسة وعشرين غليونا في البندقية، وذهبوا إلى قبرص لإلحاق الأذى بالجنويين، ولم يقيموا وزناً ولا تقديراً للذنب الذي صدر عن أعمال رجالهم، كما سمعتموني أذكر، بسبب حضور السيد واللورد الكبير السير جون أوف ابيلين، كما أنهم لم يرسلوا أية رسالة إلى جنوى، بل أقبلوا بمبادرة خاصة منهم، ومراغمة، ووصلت هذه الغلايين الخمسة والعشرين إلى ليماسول في قبرص، وكان قبطانهم ماركو مازيلي Marco Mazilli، ودمروا شرفة موجودة على برج

الجنويين في ليماسول، ودمروا قاعة الجنويين، وأخذوا منها سلباً اللوحة المرسوم عليها رنوك جنوى، وجرجروها— بعدما ربطوها بحبل— على الأرض، وعملوا تهديدات كثيرة ضد الجنويين، ولذلك ما من أحد من الجنويين الذين كانوا في ليماسول، تجرأ على اظهار نفسه.

ثم غادروا ليماسول، وذهبوا إلى ساليني Salines* ، حيث وجدوا الملك هنري الثاني، ملك القدس وقبرص، وفي آخر الليل نزل قبطان هذه الغلايين إلى اليابسة، وتحادث مع الملك، وأعطاه القبطان رسائل بعث الدوج بها إليه، وأثناء حديثها عن كثير من الأشياء، طلب منه الملك أن يعرف لماذا قد وصل إلى هناك مع هذا العدد الكبير من الغلايين، فقال بأنه قد جاء لينتقم لكثير من الأفاعيل العدوانية التي اقترفها الجنويون ضدهم، فأخبره الملك بأن عليه أن يكون محترساً، خشية أن يسلح الجنويون أنفسهم ضده، فأجابه القبطان بأن معه رجالاً، لا يخافون حتى من خمسين غليون جنوي، وهم رجال يعرف الجنويون تمام المعرفة أنهم أبناء الرجال الذين هزموا الجنويين مراراً في الماضي، وقال هذا الكلام إلى الملك على مسمع من مولاي فيليب أوف إيبلين مع كثير من الفرسان وشخصيات البطانة الذين كانوا موجودين هناك، وأنا -الذي، الرب يعرف- كنت هناك، وقد دونت الأمر كما سمعته.

٥٣٩— وغادرت هذه الغلايين ساليني، وذهبت إلى فيماغوستا، وذهب قبطان فيماغوستا السير فيليب براي Brie ، في تلك الليلة إلى قاعة الجنويين، وأخبر القنصل والجنويين الذين وجدهم هناك أنه يريدهم أن يعرفوا بأن غلايين البنادقة قادمة إلى فيماغوستا بقصد إلحاق الأذى بهم، وأنه لم يكن قادراً على حمايتهم، وبناء عليه جمع القنصل الجنويين، فقاموا بوفاق فيما بينهم بمغادرة فيماغوستا، وذهبوا إلى نيقوسيا وإلى أماكن أخرى، ومع كل الاحترام، ما كان ينبغي للقبطان

★ — الاشارة هنا إلى أحواض الملح قرب لارنكا.

أن يقول مثل هذه الأشياء لأنه في صلب امتيازات الجنويين، افتراض قيامك بحمايتهم وحراستهم داخل المملكة، وأن يبذل في سبيل ذلك أفضل إمكاناته، فهو مع ذلك لم يعدهم بالدفاع عنهم بقدر ما يستطيع، بل أبرهم مباشرة بأنه لا يستطيع مساعدتهم، عندما احتاجوا إلى ذلك كثيراً.

٤٠- وكما قلت أعلاه، لقد غادر الجنويون- على كل حال- وذهب غلايين البنادقة إلى أياس في أرمينية، واستولوا على سفينة جنوية كبيرة، ثم أطلقوا سراحها مقابل ألف وخمسمائة قطعة نقدية بيزنطية بيضاء، وذلك بعدما جردوها من كل أسلحتها، وجرجروا الرايات الجنوية على طول البحر، وهم يصرخون: «الحرب».

وكانوا هناك يبيعون بضائعهم، ويحملون غلايينهم، وهرب الجنويون الذين كانوا في أياس إلى القرى، وأنزلت أضرار كبيرة بمقتنياتهم في أياس.

٤١- وفي الوقت نفسه كان في فياغوستا السير إغيديو دوريا Egidio Doria ، وكان قد تحارب في كافا مع غليون بندقي كان عائداً إلى رجل اسمه باوليتو دولفين Paoletto Dolfin ، وقد استولى عليه بالقوة، ثم تركه يذهب، والآن عندما كان في فياغوستا- كما سمعتم- هناك سمع ورأى الأشياء التي صنعها البنادقة للجنويين في قبرص وأياس، فقرر مغادرة قبرص على الفور، والذهاب إلى جنوى، وكان معه الراهب نيكولاس ورفيقه (وكان كلاهما من الفرنسيسكان) حيث قاما بالوصول معه، وقد غادر ومضى مسافراً، والتقى وهو على طريقه بأربعة عشر غليوناً جنوياً، قادمين من جنوى إلى بيزنطة، وتكلم إلى هذه الغلايين، وأخبرهم عن الاعتداءات التي اقترفها البنادقة، وفعلوها للجنويين، وقد غضبوا كثيراً تجاه هذا، وأنهم سوف يصححون هذا، لذلك انعطف إغيديو دوريا هذا، وذهب معهم ومعه الراهبين الفرنسيسكان، وذهب إلى

القسطنطينية، وهناك أفرغوا حمولاتهم وبضائعهم، ووضعوها على اليابسة، وعهدوا بها إلى الامبراطور، ثم إنهم سلحوا أنفسهم بثقل، وزودوا أنفسهم بالأسلحة، وبالأشياء التي بدت أنها مفيدة.

وجاء إليهم النائب البندقي في القسطنطينية إلى بيراء، وهي بلدة خارج القسطنطينية عائدة إلى الجنويين، وتكلم مع سادة الغلايين، وجاهم أن يسمحوا له بالذهاب قبلهم إلى بني قومه في أرمينيا، ليرى إن كان يستطيع فعل أي شيء جيد، غير أن الجنويين لم يسمحوا بفعل ذلك، وبحدداً رجاهم النائب أن يسمحوا بالذهاب معهم في غلايينهم، علّه بذلك يستطيع أن يفعل شيئاً صالحاً، لكن الجنويين لم يرغبوا بأن يكون له أي علاقة بهم، وهكذا غادر وعاد إلى القسطنطينية.

٥٤٢— وغادر الجنويون مدينتهم بيراء وبرفقتهم خمسة عشر غليونا، بما في ذلك غليون السير إغيديو دوريا، وجلبوا الراهبين الفرانسكيين معهم، وعلى طريقهم، عند اقترابهم من أياس، التقوا بغليونين عائدين إلى واحد من بني قومهم الجنويين، والتحق هذا الغليونان بهم، فصار الآن لديهم سبعة عشر غليونا، ووجدوا أيضاً جنوبياً آخر في مركبه المسلح (الذي كان مركباً أصغر من الغليون) وضموهم أيضاً إلى جماعتهم.

وعندما وصلوا إلى غوريغوس، اكتشفوا وجود غليون قبرصي، ملاحيه رجال من سورية، وبيزا، والبندقية، وهم أناس كان الجنويون يبغضونهم كثيراً، حيث أن بعض هؤلاء الرجال كانوا قد أساءوا إلى الجنويين في الماضي، وكان في هذا المركب أيضاً السير أوتو أوف غراندسن، وكان السير أوتو أوف غراندسن هذا فارساً غربياً، صاحب شهرة عظيمة، وقد تحدث إلى الجنويين، ورجاهم بإلحاح أن يسمحوا له بمرافقتهم، وبذلك يكون مفيداً بعض الشيء في تجنب الصراع، لكن الجنويين لم تكن لديهم رغبة بالسماح بهذا، وطلبوا منه إبعاد غليونه عن غلايينهم، خشية من أن يحدث في أي وقت بعض الشرور، لأنه يوجد

في غليونه، أناس قد أساءوا إليهم في الأيام الماضية، وأنهم صدوراً عن تقديرهم له لم يرغبوا بإلحاق أي ضرر بهم.

وتركهم السير أوتو هناك وذهب إلى قبرص، لأنه قد جاء لرؤية ملك أرمينيا والتحادث معه.

٥٤٣- وبات الجنويون في أياس، على مرأى من غلايين البنادقة، وبعث الجنويون بالرهابين الفرنسسكانيين إليهم وأمروهم أن يسلموا إليهم القتيات الجنوية، التي استولوا عليها، ورفض البنادقة الاستجابة إلى ذلك، وأخذوا الفرنسسكانيين وألقوا بهما على اليابسة مع قاربهما، ورفضوا السماح لهما بالعودة إلى الجنويين، وأقلعوا بغلايينهم نحو الغلايين الجنوية من أجل محاربتهم.

وحذهم الجنويون، وذهبوا بهم نحو الجبل الأسود، الذي يبعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من أياس، وألقوا مراسيهم هناك، ووصل البنادقة أيضاً إلى هناك بغلايينهم، وألقوا المراسي، ووقفوا أمام الغلايين الجنوية، وواجهوا بعضهم بعضاً، حسبما تواءم الحال لديهم.

ثم غادر الجنويون وذهبوا إلى أياس، واقترحوا في مؤتمر استشاري أن عليهم ملاحقة البنادقة حتى خليج البندقية [بحر الادرياتيك]، فقد أدركوا بأن أنفسهم أن غلايينهم كانت محملة وغاطسة بسبب الوزن، وإذا ما تفرقوا بسبب أي ريح، فلسوف يخسرون كل شيء، وقرروا أنهم إذا رغبوا في الدخول في معركة، عليهم أن ينتظروا بعضهم بعضاً، ويصبحوا جاهزين، وأن يزودوا أنفسهم بأناس محليين، وأن ينتظروا إلى أن يشتبكوا مع بعضهم بعضاً، لأنهم كانوا أقل عدداً بكثير من البنادقة.

٥٤٤- وكان البنادقة آنذاك عند موقع المصيصة [مصب جيحان] مع اثنين وثلاثين سفينة، لأن خمسة وعشرين غليونا كانوا قد غادروا البندقية، ذلك أن رجال كيمونة البندقية أرسلوا الغلايين لإعلامهم بأن

الغــلايين الجنوية قــد غــادرت جنوى، وأنه لذلك عليهــم أن يكونوا محترسين، وأن ثلاثة مراكب مشحونة بالرماة مع ثلاثة غلايين قادمين إليهم من بيزنطة، وقرر البنادقة خوض القتال ضد الجنويين، لأنهم إذا لم يقاتلوهم، ويحرروا أنفسهم منهم، سيبدو الأمـر بالنسبـة إليهم بأن الجنويين قـد حصلوا على فرصة لإلحاق الأذى بهم، ولهذا السبب كـان مفضلاً لديهم الدخول في معركة.

واقترحوا أن يرفعوا عوارض أشرعتهم إلى ارتفاع شاهق، حتى إذا رفض الجنويين الدخـول في القتال، وقـاموا بالانصراف، سيكونوا وقتها قـادرين على وضع أشرعـة على غـلايينهم، وغلبتهم، وهكذا صـارت عـوارض أشرعتهم عالية، ولم يبق هناك من شيء سوى وضع الحبل في القدم.

٥٤٥— وعندما رآهـم الجنويين قادمين، سلحـوا أنفسهـم وصرخوا: «عليهم، عليهم»، وقـدمت غلايين البنادقة نحوهم لتطويقهم، وكـانت غلايين الجنويين مربوطة مع بعضهـا، لأنهم بما أنهم كانوا أقل في العدد من البنادقـة، لم يتجرأوا على السماح لأنفسهم بالتفـرق والابتعـاد عن بعضهم، وكـانت هناك معركـة كبيرة وحادة، بالرمـاح وبالحجارة، وقـد استنفد القتال الشطر الأكبر من النهار.

وفي النهـاية نال البنادقة السوء مـن القتـال، وعندما رأى الجنويون أنفسهم قد انتصروا، وحدوا غلايينهم واستولوا على خمسة وعشرين من غـلايين البنادقـة، وهربت مـراكـب الرمـاة الثـلاثة، ونجت وذهبت إلى البندقيـة، وبذلك حصـل الجنويون على جميع البضـائع التجـارية، التي امتلكها البنادقة على غـلايينهم، والتي كانت تسـاوي أكثر من خمسمائة ألف دينار اسلامي، وبهذه الطريقة عانى البنادقة من مأساة كبيرة.

وسـوف أتوقف أنا الآن عن الحديث عنهم لبعض الوقت، وسـوف أتحدث عن الأشياء التي يتوجب بحثها، والتي وقعت عاماً إثر عام.

٥٤٦— في عام ١٢٩٤ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، جرى اختيار الراهب الناسك بيترو ديل موروني Pietro del Morrone بابا، وقد دعي باسم البابا سيليستين الخامس، وكان رجلاً قديساً كثيراً، وقال عدد كبير من الناس بأن الرب صنع معجزات كثيرة من خلاله أثناء أيام حياته، وكان دوما يركب حماراً، ولم يرغب بأبهة أكبر، فهو بالحري عاش بشكل متواضع كثيراً، ولم يعمر طويلاً.

وسوف أحدثكم بالذي نزل به عندما كان بابا، كما أخبرتكم، فهو قد رأى أن هناك خصاماً كبيراً وعدم وفاق بين المسيحيين حتى في بلاط روما، لكنه لم يستطع ايجاد حل لهم، ولذلك تخلى عن الكرسي الرسولي، وعاد إلى ديره، تاركاً الكرادلة في نقاش كبير حول من سيكون بابا.

والآن كان هناك كاردينالاً كان حكيماً وماهراً، ومغامراً كثيراً، وكان موثقاً [كاتب عدل] في البلاط البابوي، ويمتلك ثقافة كبيرة، لذلك عرف معارف كثيرة، وقد تحدث إلى كثيرين من الكرادلة الآخرين، ووعد كل واحد منهم بأنه سيعمله بابا إذا ما أعطوه تأييدهم، وما من واحد أدرك الذي كان جارياً، ولذلك أعطوه إفرادياً أصواتهم، وكان قد قطع وعوداً كثيرة، لكن عندما حل يوم الانتخاب، عمل هو نفسه بابا، وانخدع الآخرون تماماً، وكان هذا الرجل يعرف بالأصل باسم بينيديتو كايتاني Benedetto caetani ، وكان قد ولد في منطقة اسمها أناني Agnani*.

٥٤٧— وما أن أصبح هذا الرجل بابا، حتى أصدر أوامر بإحضار البابا سيليستاين (الذي كان قد خلع من البابوية) للمثول أمامه، وقد وضعه تحت الحراسة، ونتيجة لذلك نشب خلاف بين الناس، وقالوا هناك بابوين اثنين، وكان هذا شيئاً لم يحدث قط من قبل، وأنه لم تكن هناك سابقة بوجود بابا مخلوع، وعاش البابا سيليستاين لبرهة وجيزة، ثم مات.

*— هو البابا بونيفيس الثامن (١٢٩٤— ١٣٠٣).

٥٤٨— وأخذ هذا البابا بونيفيس الثامن بداية باضطهاد رجال من أسرة كولونا Colonna والتنكيل بهم، وكان هؤلاء الرجال أعضاء بيت روماني نبيل كبير، وكان هناك اثنين من الكرادلة من هذا النسب، أولهما اسمه السير جاكوبو Jacopo، وكان اسم الثاني السير بيترو، واتهم هذا البابا بسوء التصرف، وقام البابا نفسه بالوعظ ضدهما، ومنعهما- حتى إلى الجيل الرابع- من شغل أي منصب له دخل في الكنيسة المقدسة، ثم إن أسرة كولونا قاتلت بعض رجال البابا وسلبتهم مبلغاً كبيراً من المال، وعند هذا تفجرت حرب بقوة شاملة، وحاصرهم البابا في قلعة كولونا، ثم قام بمحاصرة القلعة التي اسمها باليسترينا Palestrina ، التي كانت عائدة إلى أسرة كولونا، وكانت حصينة جداً، وقد استولى أولاً على القلعة الأولى، ثم استولى على القلعة الثانية، وألقى الكاردينالان نفسيهما عليه يطلبان الرحمة منه، فوضعهما تحت الحراسة، لكنهما نجوا بعد ذلك إلى جنوى، ومن هناك ذهبا إلى صقلية.

٥٤٩— ونقل البابا بونيفيس الثامن كثيراً من الأساقفة، وكان من بين الذين نقلهم رئيس الأساقفة جون تيرك Turk ، وهو فرانسسكاني، كان قد ولد في أنكونا Ancona ، وجعله رئيساً لأساقفة سردينيا.

٥٥٠— وجعل جيرارد، عميد لانغرس Langres رئيساً لأساقفة قبرص، وبقي جيرارد لمدة عامين في قبرص، ثم ذهب عائداً إلى الغرب.

٥٥١— في عام ١٢٩٤ للتجسيد، كان هناك نزاعاً كبيراً في أرمينيا، بين الملك هيثوم الثاني وإخوانه، وسوف أحدثكم عن مناسبة ذلك.

٥٥٢— ذهب الملك هيثوم إلى عند التتار، وترك في محله أخاه طوروس، الذي كان أخاه الثاني، وعندما رجع من عند المغول اتهم أخاه بأنه يريد الاستيلاء على مملكته، واتهم عدداً كبيراً من بارونات بلاده بالمشاركة في هذه الخطة، وذهب هيثوم بعد هذا إلى القسطنطينية، وأخذ

طوروس معه، وكان قد ترك في مكانه سمباط، أخاه الثالث، وبناء عليه قام سمباط بتتويج نفسه ملكاً على أرمينيا، لأن هيتوم لم يرغب، في وقته، بأن يصبح عندما كان ملكاً، بل ارتدى بالحري الرداء الفرنسكاني، وأطلق على نفسه اسم «الراهب جون الأرمني».

٥٥٣ــ وعندما سمع «الراهب جون» بأن أخاه سمباط قد عمل نفسه ملكاً على مملكة أرمينيا، قام بتسليح غليونين، وجلب أخاه طوروس معه، ومضى إلى أرمينية، لكن رجال أرمينية، أغلقوا المدخل أمامها، وعندما سألها «الراهب جون» عن سبب منعه من الدخول إلى بلاده، فأجابوه بأن أخاه سمباط قد جرى تتويجه، وهو لا يريد دخول هيتوم إلى البلاد، وبناء عليه ذهب «الراهب جون» مع أخيه طوروس إلى قبرص، ومن هناك إلى القسطنطينية، ومن هناك مضيا إلى عند التتار، من أجل التشكي ضد أخيه سمباط.

لكن سمباط كان قد ذهب إلى عند التتار قبلهما، وتزوج من امرأة تتارية حتى يكون على صداقة أفضل معهم، والتقى وهو على طريقه عائداً إلى أرمينيا من عند التتار بالراهب جون وبأخيه طوروس، وحدث اللقاء على الطريق، وهما ذاهبان إلى عند التتار، ولذلك اعتقلهما، وجلبهما معه إلى أرمينيا، وبعد مضي عدة أيام قام بشنق أخاه طوروس، وبقلع عيني هيتوم (يعني الراهب جون)، لكن بفضل الرب، ترك له عين واحدة، وهكذا كان فيها بعد يستطيع أن يرى.

وعندما رأى الأخ الرابع، واسمه قسطنطين بأن الملك سمباط قد ذبح أخاه طوروس وأعمى أخاه الآخر، حزن بعمق كبير، وتشاور مع عدد من أكبر أغنياء أرمينية، وحشد رجالاً، وزحف ضد سمباط، وهزمه وأسره، وألقى به في السجن، وأطلق سراح أخاه هيتوم (يعني الراهب جون).

وبعدما أطلق سراح هيثوم، لم يتصرف بوفاء وعرفان نحو قسطنطين، الذي كان ـ قد حرره، بل بالحري اعتقله وألقى به في السجن، ثم بعث به مع سمباط إلى امبراطور القسطنطينية، ثم استحوذ هيثوم على مملكته، وظل دوماً يرتدي رداء الفرانسكان، إلى أن كبر ابن طوروس (الأخ الثاني الذي جرى شنقه)، وكانت أم هذا الولد[مرغريت لوزنغنان] أختاً للملك هنري ملك القدس وقبرص، وقام الملك هيثوم بتتويج هذا الولد ملكاً على أرمينيا في أيام حياته، والآن سوف نترك الحديث إليكم حول هذا، وسوف نتحدث عن مسألة أخرى، حسبما ستسمعون.

٥٥٤ـــ في العام ١٢٩٤ لتجسيد المسيح، كانت هناك اضطرابات كبيرة في جنوى وفي البندقية، لأن البنادقة أرادوا تسليح أنفسهم للانتقام للأذى والعار الذي نزل بهم على أيدي الجنويين، ومثل هذا قام الجنويون من جهتهم بالاستعداد، للدفاع عن أنفسهم.

٥٥٥ـــ وأصدر البابا أوامر قضت بحضور أكثر الرجال حكمة من المدينتين إلى عنده، وبذل جهوداً كبيرة لإقامة وفاق بينهم، لكنه لم يستطع، وهكذا عاد كل واحد إلى مدينته، ونشبت حرب هي الأكثر شدة ووحشية فيما بينهم، كما سوف تسمعون.

٥٥٦ـــ سلح البنادقة سبعين غليوناً، ووصلوا فجأة، ونزلوا على بيراء، التي كانت بلدة جنوية مقابل القسطنطينية، وألقوا النار فيها وأحرقوها، لكنهم لم يلحقوا أضراراً أخرى، لأنه كانت لدى الجنويين أخباراً عن قدومهم، فجمعوا كل بضائعهم، ووضعوها داخل القسطنطينية، لا بل إنهم أغرقوا بعض مراكبهم وجعلوها تذهب إلى الأعماق، ثم عندما غادرت الغلايين المتقدم ذكرها رفعوهم★.

★ــ كانت هذه ممارسات معتادة، حيث كانوا يجردون الغليون من معداته، ثم يفتحون سدادته، فينزل الغليون ويبقى شبه عائم دون أن يغرق كاملاً، وذلك ما لم يثقل بالحجارة، وفي هذه الحالة كان الغطاسون يتولون إزالة الحجارة فيرتفع الغليون ويطفو على وجه الماء، وقد ساعدت على ذلك مرونة الأخشاب.

٥٥٧— وقام الجنويون في الصيف التالي بتسليح ثمانين غليوناً، ودخلوا إلى خليج البندقية، وكان هناك أدميرالان عليهم، أولهما كان السير توماسو سبينولا، مع ثلاثين غليوناً، وكان الثاني السير غاندودي ماري، مع خمسين غليوناً، ومكثوا في خليج البندقية إلى أن بدأت أطعمتهم بالنقص، ثم عقدوا اجتماعاً تشاورياً، وأشار السير توماسو سبينولا بأن عليهم الانتظار، لأنه سوف يكون من العار إذا وصل البنادقة بعد مغادرتهم، لكن السير غاندو دي ماري، الذي كان الأدميرال الآخر، قال بأنه على جميع الأحوال يرغب بالمغادرة والذهاب إلى سردينيا، وتقاذف الأدميرالان عبارات نابية فيما بينهما ونشاقا، وفي النهاية أخذ السير غاندو الخمسين غليوناً، وغادر، وذهب إلى سردينيا، ولم يتجرأ السير توماسو سبينولا، الذي كان معه ثلاثين غليوناً على الانتظار، وبناء عليه غادر وذهب إلى صقلية، وتوقف هناك في مكان اسمه كاتونا Catona.

٥٥٨— وبعد مضي عدة أيام انطلق البنادقة من البندقية، ووصلوا إلى المكان الذي كان الجنويون ينتظرونهم فيه، فوجدوهم قد غادروا، وبناء عليه أصبحوا مغرورين، فذهبوا إلى صقلية، حيث وجدوا السير توماسو سبينولا مع غلايينه الثلاثين، وقاموا بمطاردته، لكن السير توماسو سبينولا امتلك غلايين أكثر سرعة، لذلك تمكن من النجاة.

٥٥٩— ومضت غلايين البنادقة حول صقلية، وتمكنت في عدة أماكن من الاستيلاء على مراكب جنوية كانت محملة بالقمح، وكان تعداد هذه المراكب سبعة عشر مركباً، وقد تضررت كيمونة جنوى بهذا.

٥٦٠— ومع حلول الصيف التالي، سلحت كيمونة جنوى مائة وسبعين غليوناً، وعشرين بارجة، وذهبوا إلى صقلية، وإلى مدينة مسينا، كما أنهم سلحوا خمسة وعشرين غليوناً لحراسة جنوى من البيازنة، وكان السير سانويل زاكاريا هو أدميرال هذه الغلايين الخمسة والعشرين،

والسير أوبرتو دوريا Oberto doria ، الذي كان لزمن طويل قبطان الجنويين، كان الآن أدميرال الأسطول الأكبر، وعندما غادرت قوات هذه الحملة الكبيرة جنوى، أرسلوا رسائل إلى كيمونة البندقية، قائلين بأن مائة وسبعة وسبعين غليوناً قد غادرت جنوى، وذهبت إلى مسينا، وإنه إذا أراد البنادقة أن يبرهنوا عن حقوقهم، عليهم القدوم إلى هناك، وأن يجليوا معهم سجلاتهم، لأن الجنويين قد جلبوا سجلاتهم معهم، وعندما وصل الجنويون إلى مسينا أرسلوا رسالة مشابهة مع رسول ذهب من أبوليا إلى البندقية.

٥٦١— وأجاب البنادقة مخبرين الجنويين بأنهم قد قدموا عن سابق إصرار في مثل هذه القوة لأنهم عرفوا بأن البندقية غير قادرة على تسليح مثل هذا العدد من الغلايين بسرعة كبيرة، ولذلك يبدو، بأن الجنويين لايرغبون حقاً بالاشتباك بالقتال، لكن إذا كان الجنويون قد قدموا حقاً- أو أنهم يرغبون بالقدوم- للاشتباك بالقتال، فإن البنادقة سوف يقدمون، وإنهم بالفعل سوف يقدمون للاشتباك بالقتال معهم، وعند هذا انعطف الجنويون مع أسطولهم كله، وعادوا إلى جنوى، وكان أسطولهم حسب الذين رأوه أسطولاً كبيراً جداً، وممتازاً، لأن جميع رجال جنوى الكبار تنافس أحدهم مع الآخر في تسليح غلايينهم، وتزيينها بألوانهم.

وهكذا استداروا وعادوا بسلام كبير، وسكينة.

٥٦٢— وعندما حل عام ١٢٩٨ للمسيح، سلح الجنويون أربعة وثمانين غليوناً، وغادروا جنوى، وذهبوا إلى داخل خليج البندقية، وكان قائدهم رجلاً مقداماً، وماهراً، وشجاعاً، يدعى السير لامبادوريا، وواجهوا في أثناء الرحلة مناخاً سيئاً كثيراً، حتى أن ثمانية غلايين انفصلت عن البقية، ودفعت العاصفة هذه الغلايين الثمانية إلى أبوليا، غير أن العاصفة جاءت بالنهاية لصالحهم، لأنهم استولوا هناك على عدد

من المراكب العائدة للبندقية، ولولا ذلك لما تمكنوا من الاستيلاء عليهم، وعبرت الغلايين الستة والسبعين الأخرى الخليج، وذهبت إلى سكالفونيا Scalvoni إلى جزيرة معروفة باسم كورزولا Curzola*، وانتظروا هناك البنادقة.

٥٦٣ - وعندما رأى رجال كيمونة البندقية بأن الجنويين قد وصلوا، سلحوا غلايينهم التي كان عددها ستاً وتسعين(هناك ثلاثة عشر آخرين من زارا) وكان أدميرالهم رجلاً عظيماً من البندقية اسمه كالو داندولو Calo dandola، ووصلت هذه الغلايين الستة والتسعين، وصارت على مرأى من الغلايين الجنوية، في يوم السبت السادس من إيلول، وكان هذا عشية عيد سيدتنا، إن العيد نفسه من المفترض الاحتفال به في يوم الاثنين التالي، وبسبب العيد كانت الغلايين الجنوية مشعلة للشموع، في ليلة السبت تلك، في جميع مراكبهم، تشريفاً للعذراء مريم، مما سمح للبنادقة أن يروهم بوضوح.

وعندما شاهد الأدميرال السير لامبادوريا بأن رجاله كانوا يشعلون تلك الأضواء، طلب أن يعرف لماذا كانوا يفعلون ذلك، فأخبروه بأن ذلك معمول من أجل عيد سيدتنا الذي سوف يكون في اليوم التالي، أي في يوم الأحد، فأصدر أوامر من غليونه إلى غليون، وطلب منهم إطفاء شموعهم، لأن عيد سيدتنا ليس من المفترض أن يكون في اليوم التالي، الذي كان يوم أحد، بل بالحري سيقع في يوم الاثنين، وقال: «سوف نخوض المعركة غداً مع أعدائنا، ولسوف نسحقهم، وبعد ذلك سوف نحتفل بعيد سيدتنا وبنصرنا».

وجاءت كلماته بمثابة نبوءة، لأن الأمور حدثت على الشكل التالي: لقد أطفئت الشموع، واندهش البنادقة تجاه هذا، لأنهم رأوا أنواراً

* هي كورزكولا Korkola أو كوركولا Kurcala الحديثة، التي من المحتمل أنها مكان ولادة ماركو بولو، الذي أخذ أسيراً من قبل الجنويين في هذه المعركة.

كثيرة، ثم خمدت تماماً، فاعتقدوا بأن سبب هذا لأن الجنويين قد غادروا، أما بالنسبة لرايتهم التي كانت ما تزال مضاءة، على البنادقة ذلك، بأن هذا كان مصباحاً كانوا قد تركوه على سفينة صغيرة، حتى يضللوا البنادقة، ويجعلوهم يعتقدون بأنهم ما زالوا متمسكين بمواقعهم، وبذلك يكسبون الوقت من أجل الابتعاد والفرار.

وفي سبيل معرفة حقيقة الأمور، أرسل البنادقة واحداً من أفرادهم واسمه مينغو سشايفو Menego schiavo في قارب مسطح صغير، وقد قام بالعبور بغلايين الجنويين، وكان الذي استطاع أن يراه عن بعد أنهم كانوا جميعاً مصطفين على استعداد، وعندما اقترب منهم سمع أحدهم يقول للآخر:« هل تريد أن تشتري الأشياء التي سوف أبيعها غداً؟» فأجابه الآخر قائلاً:« في أي وقت سوف تكون المعركة؟».

وعاد مينغو وأخبر الأدميرال بأن الغلايين كانت ما تزال في أماكنها، وبالحكم من الكلمات التي سمعهم يقولونها، لم يكونوا جميعاً يميلون إلى الفرار، لأنهم كانوا عازمين على تجهيز صفوفهم، ووضع خطتهم موضع التنفيذ.

٥٦٤- وعندما حل صباح يوم الأحد اقتربوا من بعضهم بعضاً، وجرى تبادل كبير لرمايات القسي العقارة، وقرر البنادقة محاربة نصف الغلايين الجنوية، على أساس أنهم عندما سيهزمون ذلك النصف، سوف يكون النصف الآخر بقبضتهم ويمكنهم سحقه، وقد عملوا وفق ما خططوا له: فقد هاجموا بجميع غلايينهم الستة والتسعين نصف الأسطول الجنوي(الذي تألف من ستة وسبعين غليوناً، لأن ثمانية من غلايينهم انفصلوا عنهم بسبب سوء المناخ، ولم يكونوا قد التحقوا بهم بعد، كما أخبرتكم من قبل).

وبناء عليه قام البنادقة بهجوم كبير على جزء من الأسطول الجنوي، وتمكنوا من إبعاد ثمانية غلايين جنوية، ولدى مشاهدة الجزء الآخر من

الأسطول الجنوي، قيام غلايين البنادقة بذلك الهجوم الكبير، وأنهم غير مقبلين على محاربتهم، قاموا بسرعة بقطع الحبال الضخمة التي كانت تشد سفنهم إلى الشاطئ»، وتركوا مراسيهم تمضي إلى قعر البحر، وتحركوا لمحاربة البنادقة، ولم ينهزموا حسبما اعتقد البنادقة أنهم سيفعلون، وبهذا انتهى الحال بالبنادقة أن أصبحوا في وسط الجنويين، وكانت المعركة معركة مميتة، كما يمكن للإنسان أن يتصور، فكل من سقط وقع ميتاً، واستمروا بالذبح والقتال، مع أنهم كانوا مسيحيين واحدهم ضد الآخر.

وفي النهاية انهزم البنادقة هزيمة كبيرة، وخسروا ثمانية وسبعين من غلايينهم، ونجت الثمانية عشر الأخرى، وذهبت عائدة من هناك إلى البندقية.

٥٦٥— وبناء عليه كان هناك حزناً كبيراً في البندقية، وكذلك خوف عظيم، وأخذ بعض الناس يستعدون لإقامة دفاعات مع آلات حصار، وكل شيء آخر كان ضرورياً، وذلك خشية أن تقرر الغلايين الجنوية القدوم إلى هناك.

وأما بالنسبة للجنويين، فلسوف أخبركم بالذي فعلوه بغلايين البنادقة التي حصلوا عليها: لقد أفرغوا منها الحمولات التي أرادوها، ثم أحرقوها جميعاً، وفيما يتعلق بالقبطان البندقي، السير كالو داندولو فقد وقع بالأسر، ومات من حمى مستمرة، وذلك بعد الوصول إلى جنوى، ووقع عدد كبير من السادة البنادقة بالأسر، ومثل ذلك كان عدد العامة من الناس عظيماً، حيث بلغوا ستة عشر ألف رجل، وذلك من دون حساب الموتى والآخرين الذين نزلوا إلى أرض سكلافونيان Sclavoians ، وهم أناس لم يكونوا محبين للبندقية، وعليك أن تعرف بأن الجنويين كانوا في الحقيقة سيذهبون إلى البندقية، لولا أنهم كانوا خائفين من المعارضة في داخل جنوى من قبل الغريماليدين Grimaldis ، وهم أناس كانوا غولفيين Guelfs ، ولهذا السبب عادوا على الفور إلى جنوى.

٥٦٦ — وقد حدث بالنسبة للبيازنة الذين كانوا في سجن جنوى أن سمعوا أن هناك نية بوضع البنادقة بالسجن معهم، فلم يرتضوا بالتساهل تجاه ذلك مطلقاً، لذلك بات من الضروري إيجاد مكان آخر لهم، لذلك بقيوا في السجن لمدة قصيرة فقط.

٥٦٧ — والآن سوْف أخبركم بالذي فعلته ستة غلايين جنوية، قامت الكيمونة بتسليحهم، وكان أدميراﻟﻬم السير جافينو تارتارو Gavino tartaro ، فقد ذهب إلى البندقية، وإلى جزيرة القديس نيقولا، التي هي ميناء البندقية، فنصب هناك علم جنوى، وضرب نقوداً، وعمل أشياء كثيرة سببت للبنادقة عاراً كبيراً، وإذلالاً عظيماً، وقام البنادقة بتسليح ثمانية غلايين، لذلك غادرت غلايين الجنويين وذهبت خارجة إلى الخليج، ومضت غلايين البنادقة خلفهم، فقط إلى فم الخليج، ثم إن الغلايين الجنوية استدارت وعادت إلى جزيرة القديس نيقولا، ومكثوا هناك لعدة أيام قبل أن يغادروا، وأنزلوا أضراراً بعدد من مراكب البنادقة القادمة من أبوليا، ثم عادوا إلى جنوى، وأنا غير قادر على التأكيد فيها إذا كانت هذه الغلايين الستة التي كنت أحدثكم عنها، قد فعلت هذه الأشياء، قبل هزيمة مراكب البنادقة أم بعد ذلك، والمؤكد أنهم فعلوا ذلك، كما أخبرتكم، وحسبما يعرف كل واحد.

٥٦٨ — ثم إن الرب، الذي هزم برحمته قوة الشيطان، قربهم من بعضهم، في اتفاق، وسلام، ووفاق.

٥٦٩ — وصنع هذا السلام، وبحث به، وأعطوا مدينتين جيلتين في لومبارديا كضمانة لبعضهم بعضاً (مع أنني لا أعرف أسماءهم) مع السير توماسو سبينولا، وهو يعمل لصالح كيمونة جنوى، والسير روميو قويرينو دي كا ماجايوري Romeo quirino di ca'maggiore عن كيمونة البندقية، فليقم الرب برحمته بحفظهم بسلام ووئام.

٥٧٠ — وبطريقة مماثلة هيأ الرب أشياء أخرى مع بعضها، لأن البيازنة عقدوا سلاماً مع كيمونة جنوي، وأعطاهم البيازنة مائة ألف فلورين ذهبي، وسلموهم قاضي سيناركا Cinarca في كورسيكا، الذي وضع تحت رحمة كيمونة جنوي، فوضعوه بالسجن مع البيازنة والبنادقة، وفي السجن مات قاضي سيناركا فيما بعد.

٥٧١ — عندما حل عام ١٢٩٨ ليسوع المسيح، تقاتل الجنويون بين أنفسهم في مدينة جنوي، ذلك أنهم انقسموا إلى حزبين، عرفا باسم: الغولف Guelphs، والغيليين Ghibellines، ووقف الغريمالديين Grimaldis مع أسر أخرى إلى جانب حزب الغولف، وكان إلى جانب الغيليين الناس من أسر سبينولا ودوريا، مع أسر أخرى، وقد وقف بعض الناس إلى هذا الجانب ووقف آخرون على الجانب الآخر، واستمرت الحرب لعدة أيام، وكادت أن تتسبب بدمار مدينتهم، وهي مدينة كانت هي الأجمل والأكثر ازدهاراً، وتحتوي على كثير من الناس الحكماء، لكن تفكيرهم الصالح تخلى عنهم بشكل سيء، فمن أجل دفع مصالحهم الفئوية، كانوا راغبين في تدمير أنفسهم، وهو شيء بدا بالنسبة إلي أنه من عمل الشيطان، وقد تأثرت كل من توسكانيا، ولومبارديا، وصقلية وأبوليا، وأراضي الرتامة، وكالبيرا، بهذا التمزق الشرير، الذي بدأ حتى ينتشر بين رجال اللاهوت، على الأقل إلى الجوانب الخلفية، مع أنه لم يصل إلى نقطة حرب مكشوفة.

وجرى قتل كثير من الناس من الحزبين بسبب هذه المعركة، وفي النهاية لحقت الهزيمة بالغولفيين، وتركت مجموعة كبيرة منهم جنوي، خاصة جميع الغريمالديين، الذين تجمعوا في داخل بعض الغلايين التي استولوا عليها في ميناء جنوي، وقد ذهبوا إلى بروفانس، حيث استولوا على قلعة معروفة باسم موناكو، التي كانت جزءاً من أراضي جنوي الساحلية وكيمونتها، واتخذ الغريمالديون مع حلفائهم قاعدة لهم هناك،

فنهبوا وأسروا عدداً من الجنويين مع مراكبهم، يعني أن تقول من الحزب العادي، ووصلوا إلى اتفاق، وأعدوا مع حلفائهم القيام بمهاجمة جنوى براً، في حين يذهبون بحراً مع سبعة غلايين مسلحة، وأعدوا لهذا العمل في صباح يوم محدد، ووقع الأمر حسبما خططوا تماماً، لكنهم وصلوا إلى جنوى بحراً في الليل، وهاجموا الميناء عند منتصف الليل.

٥٧٢— سلح الغيبلينيون أنفسهم، وذهبوا للتصدي لهم، وكان القسم الأعظم من السكان متحالفاً معهم، في حين قام الناس الذين كانوا من المفترض أن يؤيدوا الغيرمالديين بالتخلي عنهم، وبسبب أنهم لم يكونوا متماسكين تماماً، وكان عددهم قليلاً، لحقت الهزيمة بالغيرمالديين، وكان هناك بعض الجرحى من على الجانبين، ووقع بعض الناس بالأسر، ووضعوا بالسجن، ولكن في النهاية عقدوا صلحاً بين بعضهم بعضاً، وتم إطلاق سراح الأسرى، وأخرجوا من السجن، وأعيدت القلعة إلى الكيمونة.

٥٧٣— وفي هذا العام نفسه، أي عام ١٢٩٨ لتجسيد المسيح كانت هناك حرب بين ملك فرنسا فيليب الرابع الجميل، وملك انكلترا إدوارد الأول، الذي رغب بأن يزوج ابنه من ابنة كونت فلاندرز، ووقف كونت فلاندرز إلى جانب ملك انكلترا، وذلك بناء على تحريض، لأنه كان قد أعطاه مالاً، ودعم الكونت اللورد إدوارد ملك انكلترا، بقواه كلها، وكان الكونت غاضباً من ملك فرنسا، لأن اقتراح هذا الزواج لم يرضه، ونتيجة لذلك اختطف ابنة كونت فلاندرز، واحتفظ بها تحت إشرافه.

٥٧٤— وبعث كونت فلاندرز ابنه روبرت إلى ملك فرنسا، يخبره بأن عليه إطلاق سراح الفتاة، لكن ملك فرنسا لم تكن لديه رغبة في أن يفعل ذلك، وبسبب هذا، أشرك كونت فلاندرز عدداً من الكونتات الآخرين في الحرب، وتحالف كثير من بارونات البلاد مع ملك انكلترا،

وبهذه الطريقة، بدأت هذه الحرب بين اللوردين الجبارين، مع أنها انتهت أخيراً بمعاهدة سلام جيدة، جاءت صافية بإرادة ربنا.

والآن سوف أحدثكم عن حرب أخرى قد وقعت.

٥٧٥— في عام ١٢٩٩ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، قام فردريك، الذي كانت بيده مملكة صقلية، بتسليح أربعين غليوناً، وكان هو نفسه القبطان والأمير عليهم، وقام السير كورادو دوريا، وهو مواطن جنوي، وكان أدميرال الملك شارل الثاني، بتسليح أربعين غليوناً آخر، وكان أدميرالهم ملك أراغون، أخو فردريك المتقدم ذكره، لأنه كان متحالفاً مع البابا ومع الملك شارل، وكان قد أقسم على الحفاظ على الحرب ضد أخيه فردريك، وضد أهل صقلية.

٥٧٦— وكان ولدا الملك شارل الثاني — الدوق والأمير — في هذه المعركة، وكان روجر أوف لوريا Loria — الذي كان أدميرال صقلية— أدميرال غلايين الملك شارل، وعندما تواجهت هذه الغلايين ضد بعضها بعضاً، كانت هناك معركة كبيرة، قتل فيها عدد كبير من الرجال من على الجانبين، لكن في النهاية كانت الغلبة لرجال الملك شارل، ولحقت الهزيمة بغلايين فردريك، ووقع عدد كبير من الناس في الأسر، بما فيهم السير كورادو دوريا، واستولى رجال الملك شارل على بلدة اسمها كاتانيا Catania ، وعلى قلاع أخرى.

٥٧٧— ظهر في هذا العام نجم له ذيل طويل، وقد ظهر عند الفجر في أحد الأيام، وظهر في الشرق وظل مرتباً حتى منتصف النهار، واستمر يشاهد وفق هذه الطريقة لمدة ثمانية أيام في شهر كانون الثاني.

٥٧٨—وعلي أن أخبركم، أنه في هذا العام كانت مملكة أرمينيا في وضع سيء كثيراً، وتعانى كثيراً على أيدي المسلمين، الذين تسببوا لها بأضرار مرعبة، واستولى المسلمون على عدد من القلاع منهم: قلعة

غليوم[التينات]، وقلعة اسمها هرومغلا Hromgla [تل حمدون]، وأخرى اسمها سيرفنتكار Serventikar [سرفندكار]، وكهف اسمه بيرتــــوس Pertous ، كان حصيناً جداً، ثم وصلوا إلى سهل أرمينيا واستولوا على قلعة اسمها بتيل Betil [كرنجيل]، ثم بعثــوا قواتهم إلى بلدة أياس، التي هي على ساحل البحر، وهكذا امتلكوا السيادة على أرمينيا كلها تقريباً.

٥٧٩— وبقي الملك هيثوم الثاني، ملك أرمينيا في الجبال، لشدة خوفه وتعاسته، كما أنه لم يتجرأ على التحرك نحو السهل، وفي النهاية جاء التتار، الذين كان تابعاً لهم، قدموا لمساعدته حسبما سأخبركم، غير أنني أريد أن أخبركم ببعض الأشياء حول التتار، وبذلك سوف تعرفون بداياتهم، وكيف جاءوا إلى الوجود.

٥٨٠— أنتم تعرفــون- حسبما أخبرتكم من قبل في هذا الكتاب- حــول هولاكــو، الــذي استــولى على دمشق، وحلب، وحماه، وحمص، وكيف استولى واحداً من أمرائه، واسمه كتبغا، على صيدا في سورية، وكيف هزمه المسلمون خارج طبريا في موضع اسمه عين جالوت.

٥٨١— والتتار هم شعب مغولي، وقد عرفــوا بهذا الاسم، لأنهم قدموا من بلاد اسمها منغوليا، قائمة قرب البحر المحيط، وبلادهم محاطة بجبال عالية كثيراً تواجه كل من البحر والبر ، وقد قيل بأن الاسكندر الكبير هو الذي أغلق الممر الضيق، وبذلك لم يعد بإمكانهم الخروج من بلادهم، والدخول إلى أية بلدان أخرى، وحاصرهم هكذا حتى لا يتمكنوا من الخروج، إلى أن تمكن واحد من رجالهم الشجعان واسمه جنكيزخان- وكان رجلاً مغامراً كثيراً- من الخروج من ذلك المكان بنشاطه وعبقريته، فقد شاهد من فوق جبل مرتفع، مدناً جميلة، موزعــة عبر البلاد، ثم قام بجلب بعض الرجال الآخرين إلى تلك البقعـــة، وتحدث إليهم، وأخبرهم بأن الأراضي التي شـاهدها بدت

نسبة له أكثر جمالاً، وأكثر لطفاً للعيش بها، من بلادهم، ونزلوا هم
منهم إلى أسفل ذلك الجبل، وشاهدوا الناس في تلك البلاد، وهم
ملون، وكانوا رجالاً ظهروا أنهم في غاية النبالة، وثيابهم ثمينة، لكن
لاء الناس هربوا منهم مرعوبين، عندما رأوهم كم كانوا قبيحين،
بيونهم صغيرة، فهكذا هو شكل المغول، وعاد التتار بعد هذا إلى
ضعهم الخاص، وحكوا الذي رأوه إلى التتار الآخرين، وصار كل ما
له جنكيزخان لهم يؤمنون به ويصدقوه.

٥٨٢— وعاش التتار من دون خبز، لأنهم لم يعرفوا شيئاً عن الخبز
وى أنه موجود، وقد أكلوا اللحوم، يعني أن تقول عندما يموت
سان، أو حمار، أو كلب، غير أنهم كانوا يحصلون على غذائهم
باسي من حليب المهاري، والشياه، ومن أعشاب البرية، ومن
يور، ولم يكن لديهم لا ذهب، ولا حديد، أو أي معدن آخر.

٥٨٣— وبعدما شاهد جنكيزخان ما شاهده، حسبما ذكرت لكم،
ل متقدماً مع جميع الذين رغبوا باتباعه، وكانوا جماعة كبيرة من
س، يمتطون مطايا عارية الظهور، بأعداد لا يمكن إحصاءها،
طلقوا ذاهبين شرقاً إلى بلاد تدعى بلاد الخطا (الصين الشمالية)،
ندما رأى أهل بلاد الخطا مثل هذا الحشد الهائل من الناس الجبارين،
سلموا إليهم، وأطاعوا أوامرهم، وهكذا بقي التتار هناك، في بلاد
لمة وواسعة، ورائعة كثيراً، وتعلم التتار في هذا المكان كيف يلبسون
هم الملابس، وكيف يأكلون مختلف أنواع الأطعمة، وتعلموا حول
ب والفضة، والأسلحة الحديدية، وبقية أنواع الأسلحة والدروع،
ول السروج، والحراب، والسوابغ الجسدية، وفق طرائق تلك البلاد،
، باتت الآن تعرف باسم« بلاد التتار».

٥٨٤— ووجد المغول أهالي هذه البلاد جبناء وكسالى كمقاتلين،
ذي اهتمامات حياتية وأنماط معاشية فقط، فاستولوا عليهم بسهولة،

ونتيجة لذلك ساروا عبر البلاد بثقة أكبر، واستولوا على مدينة اسمها هانغ—شو (هانغ زهو) التي هي أعظم مدينة في الشرق، و(إذا كان لكم أن تصدقوا الذي رواه التجار إلى مولاي مقدم الداوية، بأن ذلك هو ما شاهدوه) فإن المدينة طولها سفر يومين بالطول ومثل ذلك بالعرض.

واتخذ منها جنكيزخان حاضرته وحاضرة شعبه، وهناك مات، قرب نبع، وقد مات إما بعضة أفعى، أو بسبب الماء الذي شربه من النبع، لأنه عثر عليه وهو ميت قرب النبع والأفعى.

وعاش له أربعة أولادهم: أولهم بيركي Berke* ، وقد مضى هذا نحو البحر الكبير، واستولى على البلاد حتى هنغاريا، وتولى اثنان آخران الاستيلاء على أقاليم أخرى، وكان واحداً منهم الذي اسمه هولاكو، قد وصل إلى مناطقنا، ولسوف أترك موضع أولئك الآخرين، وأتحدث إليكم عن هولاكو، وعن الذي فعله في البداية في أيامنا الحالية.

٥٨٥— وصل هولاكو هذا نحو بغداد، المدينة الرئيسية بين جميع بلاد المسلمين، فهناك كان مقر الخليفة، الذي كان يقوم مقام محمد(صلى الله عليه وسلم) ونائباً له، وقدم هولاكو زاحفاً ضد المسلمين، وتحارب معهم لعدة سنوات، وقد عاث فساداً في جميع المناطق التابعة لبغداد، وأحرقها ودمرها.

٥٨٦— وعندما رأى الخليفة بأن التتار قد نكلوا ببلاده، وآذوها، ودمروها، جند أكثر من مائة ألف فارس من بلاده، واحتفظ بهم جميعاً لمدة طويلة، ولهذا توقف التتار عن التحرك والزحف نحو الأمام أية مسافة أكبر، لذلك قام الخليفة بتسريح جميع هؤلاء الرجال المسلحين الذين كان قد جندهم.

وعندما غادروا بغداد، جاء هولاكو مباشرة، ووصل إلى خارج

★— كان بركة هو حفيد جنكيزخان، وأبوه هو جوجي.

بغداد، مع جيع حشوده، وحاصرها وضيق عليها، وقام المغول حتى في تلك الليلة بحفر خندق حول مدينة بغداد كلها، وبذلك باتت مطوقة تماماً وما من أحد يمكنه أن يدخل إليها، أو يخرج منها.

٥٨٧ـ وعندما شاهد الخليفة هذا، ووجد نفسه أنه ما عاد يستطيع حشد رجال مسلحين، أو الحصول على أي نوع من المساعدة، أو تنبيهها، ارتعب رعباً شديداً، لأنه كان جباناً، وضعيف القلب، وتنقصه الشجاعة، وكان رجال شعبه أيضاً جبناء، ليست لديهم مهارة في استخدام الأسلحة، وأخساء، وكانوا قوماً اعتادوا على حياة الرخاء، والأنانية، لذلك ما كان بإمكانهم مساعدته بقوة السلاح.

ولهذا السبب اجتمع الخليفة مع أمرائه للتشاور، حول ما ينبغي عليهم فعله، وقد أشاروا عليه أن يبعث رسلاً إلى هولاكو، ملك التتار، ليتحدث حول السلام، وتحادث هولاكو مع الرسل وأدرك، ولاحظ بأن الخليفة وشعب بغداد، كانوا في ضائقة شديدة، فوافق على كل شيء قد طلبه الرسل فيما يتعلق بالسلام، وقال بأن على الخليفة أن يأتي ليتحدث معه، لأن لديه رغبة كبيرة برؤيته، وبناء عليه وثق الخليفة به، وخرج إلى لقائه، وأحضر معه عدداً كبيراً من كبار أمرائه، ثم دفع هولاكو للدخول إلى بغداد، وعندها صار لديه عدداً كبيراً من الرجال داخل بغداد، قام باعتقال الخليفة شخصياً مع الأمراء الذين كانوا برفقته، واستولى هولاكو على المدينة، وأمر بصب الذهب المصهور في حنجرة الخليفة، لأن الخليفة أهمل في توزيع الذهب في الدفاع عن نفسه وعن بلاده، وبذلك خسر هو الآن ليس فقط الذهب والبلاد، بل حياته أيضاً.

٥٨٨ـ وبعدما تمكن هولاكو الجبار، ملك التتار، من الاستيلاء على بغداد، ركب ووصل إلى تركيا، واستولى على مدينة قونية، كما استولى على قيسارية الكبرى(التي تعرف أيضاً باسم قيصري) واستولى على أرض تركيا حتى البحر.

٥٨٩— ثم ذهب إلى المياه الباردة، واستولى على مدينة اسمها الموصل، ثم قدم إلى مناطقنا واستولى على حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، حسبما أخبرتكم من قبل في هذا الكتاب، وكنت قد أخبرتكم أيضاً كيف تمكن المسلمون من إلحاق الهزيمة بالتتار عند طبرية، أعني التتار الذين كان هولاكو قد تركهم في ذلك المكان، عندما عاد إلى بلاده.

والآن إنني أريد أن أحدثكم حول الورثة الذين جاءوا بعد هولاكو هذا.

٥٩٠— ومات هولاكو بعد وقت قصير من عودته إلى بلاده، وصار ابنه أباقا خان مكانه، وبعد أباقا صار أرغون(بن أباقا) خان.

٥٩١—وأحب أرغون هذا المسيحيين كثيراً، وأرسل مراراً إلى البابا وإلى ملك فرنسا مبيناً أنه بقواته وبقواتهم مع بعضها يمكنهم أن يدمروا المسلمين، وقد حدث أن أرسل أرغون هذا واحداً من إخوته، الذي كان يدعى منغو تيمور ضد المسلمين، وقد تحارب معهم فوق سهل حمص، وهزم الجزء الأكبر منهم، ثم أخذ يتراجع ظاناً أنه قد انتصر تماماً، غير أن المسلمين أعادوا تجميع صفوفهم،، ومن ثم هزموا التتار، حسبما أخبرتكم أعلاه، وكنت قد أخبرتكم عن العام الذي وقعت فيه هذه المعركة.

٥٩٢— ومات منغو تيمور بعد عودته بوقت قصير، وبعد مضي أيام قليلة مات أيضاً أرغون ملك التتار وعاش له ابنه غازان من بعده، وهو الذي أصبح ملك التتار.

٥٩٣— وفعل غازان الكثير في بداية سلطنته، لإلحاق الأذى بالمسيحيين في الشرق، فقد أمر بتدمير الكنائس المسيحية، وقد أحب المسلمين حباً عظيماً، وكان هو نفسه مسلماً، وكان التتار وثنيون، ولكن منذ الوقت الذي جاءوا فيه للعيش في بلاد المسلمين، صار جميع أبنائهم الذين ولدوا لهم هناك مسلمين.

٥٩٤ — على الرغم من أن غازان كان قد أصبح مسلماً، تابع باستمرار بشدد إلحاق الأذى بسلطان المسلمين، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، والوصول إلى هذا الهدف، غالباً ما بعث برسل إلى الملوك المسيحيين، وقدم اعتذارات من أجل الكنائس التي دمرها المسلمون في أراضيه، قائلاً بأنها عملت من قبل أميرين كبيرين كانا مسلمين، رجلين كانا أخوين، وقد كرها النصارى كثيراً، لكن بفضل الرب، فقد هذين الأميرين فيما بعد الحظوة عند غازان، الذي أمر بقطع رأسيها، وليس من الممكن القول لماذا فعل هذا، لكن إنني أعتقد أن ذلك عمل الرب، لأنه بعدما صارا ميتين، صارت أوضاع المسيحيين في الشرق أسهل، ونظر غازان نفسه نحوهم نظرة أكثر لطفاً، وأمر المسيحيين بإعادة بناء كنائسهم.

٥٩٥ — لقد أخبرتكم كيف أن التتار خرجوا من بلادهم، وكيف ذهب الإخوة في اتجاهات متفرقة، وكيف أن الذي جاء باتجاهنا كان يدعى هولاكو، وأخبرناكم حول الذين تبعوه وخلفوا به، الواحد تلو الآخر، حتى غازان الذي أنا أحدثكم عنه، والذي كان سلطاناً من الوقت الذي ضاعت فيه سورية، وتشوه وضع أرمينيا كثيراً كما أخبرتكم.

وأريد الآن أن أخبركم عن الناس وعن الأحداث المتعلقة بغازان هذا، وعن المعركة التي قاتل بها ضد المسلمين.

٥٩٦ — حدث بعد هذا شيئاً كان كبيراً جعل غازان يسرع بالقدوم، فقد كان واحد من أمرائه في تركيا قائداً، يحكم باسمه، كان اسمه سلامش، وقد أظهر رعونة كبيرة، حيث لم يرد أن يفعل أي شيء لغازان، الذي كان سيده، وبعث غازان يستدعيه عدة مرات، لكنه رفض الحضور، وبناء عليه أمر غازان جيشاً كبيراً بالمضي لمحاربته.

وعندما شاهد سلامش هذا الجيش الكبير قادماً ضده، بات خائفاً كثيراً، فغادر وذهب إلى دمشق، وسأل سلطان القاهرة أن يساعده

بجنود، حتى يتمكن من القتال ضد هؤلاء الناس، وأعطاه السلطان ألف رجل من منطقة حلب، وقد عبروا من خلال أرمينيا، ولم يتجرأ ملك أرمينيا على الاعتراض، بسبب أنه لم يمتلك القوة لفعل ذلك.

٥٩٧— وهكذا وصل هذا الجيش إلى تركيا، وعندما رأى التتار بأن سلامش قد جلب مسلمين ضدهم، غضبوا غضباً شديداً، واشتبكوا معهم في القتال، وهزموهم على الفور، كما أن المسلمين لم يتجرأوا على الوقوف ضدهم، وقد تفرقوا هاربين في الجبال العالية لأرمينيا، وعندما شاهد سكان الجبال، الذين كانوا مسيحيين أرمن، بأن الجيش الإسلامي قد انهزم، وأنه غير قادر على الاهتداء إلى طريقه، هاجوا أفراده، وانقضوا عليهم، وقتلوهم كلهم تقريباً أو أسروهم.

٥٩٨— وعندما سمع غازان بأن سلطان القاهرة قد أعطى مساعدة إلى عدوه سلامش، وبعث رجاله لمحاربة غازان، غضب غضباً شديداً، وحشد رجاله بسرعة، وبعث بهم للدخول إلى منطقة حلب.

٥٩٩— وفي العام ١٢٩٩ لتجسيد يسوع المسيح، دعا سلطان القاهرة رجاله على سرعة، وحشدهم ومضى حتى يلهب خلال البرية، يعني خلال الصحراء، ووصل إلى غزة التي هي المدخل من مصر إلى سورية، وهناك تسلم السلطان رسالة من غازان، بأنه قادم إلى هناك بكل تأكيد، لذلك سار مسرعاً، فتمكن من خلال ستة أيام من الوصول إلى دمشق، وكان هذا السلطان الذي أنا أتحدث عنه شاباً صغيراً جداً، عمره خمسة وعشرين عاماً فقط، وكان يعرف باسم الملك الناصر، وهو كان ابن الملك المنصور (الذي فتح طرابلس)، وكان أخاً للسلطان الآخر الذي فتح عكا، والذي عرف باسم الملك الأشرف،(وعرفت القاهرة آنذاك عدداً من السلاطين، في مدة قصيرة من الوقت، في حين كان هذا السلطان ما يزال طفلاً، وهو على كل حال صار في النهاية سلطاناً).

٦٠٠ — وفي هذه الأونة بات غازان قرب حلب، ووصل المسلمون والتتار إلى مواجهة بعضهما بعضاً، وانطلق الطرفان معاً في الاستعداد، لأنها كانا عدوين.

٦٠١ — وبناء عليه صف غازان رجاله، ونشر أسلحته وقواته، ولم يكن لديه - على كل حال - جميع رجاله معه، ولم يكن يتوقع الدخول في القتال حتى اليوم التالي، ومهما يكن من أمر، لقد هاجم المسلمين بنشاط بالرجال الذين كانوا معه، وهكذا كانت صدمة الحملة على الفئتين كبيرة جداً، وكان المسلمون قد وصلوا على خيول مجللة مسلحين بالسوابغ وبالخوذ، وقد ضغطوا على التتار بأسنة الرماح، وردوهم إلى الخلف قرابة أربع رميات قوس، وقتلوا عدداً كبيراً منهم هناك بطعنهم بالرماح.

٦٠٢ — وعندما رأى ملك التتار بأن رجاله قد طردوا من الميدان على هذه الصورة، والأتراك قد توغلوا بينهم بقوة كبيرة، ذلك أنهم كانوا يمتلكون مطايا أفضل، ورجالهم مسلحين أحسن من رجاله، هنا بات خائفاً من أن يرتعب رجاله أثناء الاشتباك، ويفرون، فهو قد ضرب بخطة جريئة لم يكن رجاله معتادين عليها أثناء القتال، وبناء عليه ترجل وأمر جميع رجاله بالترجل مثله وأن يستخدموا خيولهم بمثابة سواتر دفاعية، وبذلك لن يتمكن الترك من التوغل بينهم، ثم تناول التتار قسيهم، التي كانوا معتادين على استخدامها أكثر من المسلمين، وقد أطلقوا زخات من النشاب على الترك، فقتلوا عدداً كبيراً من الترك، ومن خيولهم، مما أرغم الترك على التراجع.

ووصلت في الوقت نفسه ساقة جيش غازان، وعندما شاهد غازان اقتراب رجاله، وتراجع رجال المسلمين، أعطى الأمر لرجاله بامتطاء ظهور خيولهم، وقد امتطوا جميعاً، وضغطوا بشدة على صفوف المسلمين، وفي هذه الساعة انهزم المسلمون، ولم يقوموا بمحاولة دفاعية

أخرى، واستمرت الأمور حتى حلول الظلام، وقد تعرض الكثير منهم للقتل، ولولا حلول الظلام لكان الذين قتلوا أكثر بكثير.

٦٠٣ — وعندما لحقت الهزيمة بالسلطان في هذه المعركة(التي وقعت في اليوم العشرين من شهر تشرين الأول لهذا العام، أعني عام ١٢٩٩ للمسيح) هرب إلى المنطقة المحيطة بدمشق، حيث عسكر مع قسم من جيشه، غير أنه لم يتجرأ على البقاء هناك، لأن الخوف دخل إلى قلوب رجاله وقلبه، ذلك أنهم كانوا يعتقدون دوماً بأن التتار كانوا خلفهم مباشرة.

٦٠٤ — وغادر السلطان دمشق عند منتصف الليل، وهرب إلى المنطقة التي من حول غزة، ولم يلتزم بالسفر عبر الطريق، كما أنه لم يحافظ على وحدة قواته، بل سافر مباشرة بأفضل طريقة تمكن منها، ونزلت به وبرجاله عبر الطريق مآسي كثيرة، لأنه كانت هناك أمطار كثيرة، ومناخ بارد، كما هي العادة في كانون الأول، وأصيب كثير منهم بالمرض، وماتوا، وفقدوا كذلك عدداً كبيراً من خيولهم.

٦٠٥ — ولقد قيل بأن السلطان دخل إلى القاهرة مع خمسة عشر راكباً فقط، لأنه فقد عدداً كبيراً من رجاله في المعركة، والذين هربوا، هرب كثير منهم عبر الطرقات، وتفرق بعضهم هنا، وبعضهم الآخر هناك، وبالنسبة للذين قدموا مع السلطان، مات كثير منهم بسبب البرد والمرض، كما أخبرتكم، وهرب بعضهم نحو البحر، ولسوف أخبركم بالذي حدث إليهم، فقد ذهبوا إلى قلعة حصن الفرسان، في أحواز طرابلس، ومن هناك إلى جبيل، وكان بين هؤلاء، الذين كان عددهم أربعة آلاف، وجد أربعة أمراء، كان واحداً منهم اسمه سيف الدين أزدمر، الذي صار فيما بعد أتابكاً، «ملك الأمراء»، وكان اسم واحد آخر الحموي(عز الدين أيبك)، وكان اسم الثالث الدوادار، وأنا لم أعرف اسم الأخير بينهم.

وعندما شاهد فلاحو منطقتي طرابلس وجبيل، الذين كانوا جميعاً مسيحيين وصول هؤلاء الأمراء مع رجالهم المهزومين، انقضوا عليهم، ونجا من الأربعة آلاف مسلم الأربعة أمراء فقط، وما بين ثلاثمائة إلى أربعة مائة من أتباعهم، وحدث هذا فقط من خلال قوة خيولهم، لأنهم كانوا يمتطون خيولاً جيدة.

٦٠٦ـ وكان هذا الجيش الذي خرج من القاهرة برعونة كبيرة وبأبهة عظيمة، يضم ما لا يقل عن سبعين ألف فارس، حيث كان الشطر الأكبر منهم على ظهور خيول مجللة، مسلحين بالسوابغ وبخوذ حديدية جيدة، وقد مات في المعركة المتقدم ذكرها حوالي الخمسة والعشرين ألفاً منهم، أما البقية فقد تشتتوا، ووصلوا إلى حالة العدم، وقد ساروا على طول الساحل، وعبروا أماكن أخرى ليتمكنوا من العودة إلى القاهرة، لكن مع أن عدداً كبيراً من هؤلاء تمكنوا من العودة إلى القاهرة، بعدما وصل السلطان إلى هناك، فقد ماتوا هناك نتيجة المتاعب التي عانوا منها على طول الطريق.

٦٠٧ـ لقد مرت أعوام كثيرة، لم تتعرض فيها جيوش القاهرة إلى الهزيمة، بل كانت هذه الجيوش بالحري منتصرة على أعدائها، وبذلك صارت متكبرة كثيراً، وواثقة من أنفسها، إلى حد أنهم اعتقدوا أن بإمكانهم إلحاق الهزيمة بأي شعب في العالم.

٦٠٨ـ وتدنت معنوياتهم الآن كثيراً، وبدأوا يشعرون أنهم حتى غير آمنين هناك في القاهرة، وهرب كثير منهم في قوارب عبر النهر، ومضى آخرون إلى مناطق منعزلة وبعيدة جداً، وعندما شاهد هذا عدد من تجارنا المسيحيين، الذين كانوا في الاسكندرية، ودمياط، ذكروا عند عودتهم بأن القاهرة كلها مهزومة.

٦٠٩ـ وأريد الآن أن أحدثكم، عن الذي فعله غازان والتتار ورجاله، بعدما هزموا المسلمين، فقد عسكر غازان في ميدان المعركة،

وانطلق في اليوم التالي وراء المسلمين المهزومين، لكن بشدة كبيرة، لأن مطاياه كانت مرهقة كثيراً من الرحلة التي قاموا بها، ومن المعركة، ومن قلة الأعلاف، وركب -على كل حال- وراء المسلمين حتى غزة، ثم عاد متوجهاً نحو دمشق، حيث تجول عبر الطرقات وفي كل مكان، وهو يقتل المسلمين.

٦١٠ — وكان ملك أرمينيا هيتوم الثاني، الذي كان يدعى« بالراهب جون الفرنسسكاني» حسبما أخبرتكم في مكان آخر، كان مع الحملة طوال الوقت، وقد ألحق أضراراً جسيمة بالمسلمين، وأنزل بهم الأذى، وألحق بهم الدمار، بكل وسيلة تمكن منها.

٦١١ — وبعدما هزم غازان المسلمين، عاد إلى بلاده، حيث ترك واحداً من أمرائه مكانه في دمشق، وكان رجلاً اسمه مولاي، حيث كان معه عشرة آلاف تتاري.

وكان هناك أمير كبير من أمراء القاهرة اسمه قفجاق مع أربعة أمراء آخرين كانوا معه، وكان هؤلاء قد هربوا من القاهرة، وذهبوا إلى التتار في العام الماضي، وذلك خوفاً من أن يعتقلهم السلطان ويقتلهم، وقد شجع هؤلاء الرجال التتار على العمل ضد المسلمين، وقد ذهبوا معهم، وكانوا مقتنعين بأن السلطان يكرههم كثيراً، وترك غازان هؤلاء الأمراء الخمسة، أعني قفجاق مع الأربعة الآخرين، مع مولاي في دمشق، عندما عاد إلى بلاده، وهكذا حدث أن قفجاق وأصحابه بقيوا في دمشق مع مولاي، لأنهم كانوا خائفين كثيراً من السلطان بسبب الجرائم التي اقترفوها، حسبما أوضحت لكم، وقد بعثوا برسائل إلى أصدقائهم في القاهرة، بأن يبذلوا جهودهم لصالحتهم مع السلطان، وبناء على هذا أصدر السلطان عفواً عنهم، وبعث إليهم بأمان، وقام قفجاق مع الأمراء الأربعة الآخرين بالمغادرة، من دون أن يشعر مولاي بالذي كان يحدث، وذهبوا إلى القاهرة.

٦١٢ — وعندما رأى مولاي أن قفجاق مع رفاقه الآخرين قد هربوا، ومضوا عائدين إلى القاهرة، بات خائفاً كثيراً من الخيانة، ولهذا السبب قام ومعه رجاله بالمغادرة، وعادوا إلى بلادهم.

ولقد أخبرتكم حتى الآن بكل شيء حول غازان والأحداث التي أحاطت به، وكيف أنه هزم جيش المسلمين.

٦١٣ — عليكم أن تعرفوا، أنه كان مع غازان، في هذه المعركة التي سمعتم عنها مائة ألف فارس، وأن مائة فارس فقط من التتار هم الذين قتلوا.

٦١٤ — وبعدما غادر غازان، ذهب بعض الصليبيين من قبرص، إلى جبيل، وإلى نفين، وإلى مناطق هذه السواحل، ولسوف أذكر أسماءهم: غي، كونت يافا، والسير جون صاحب أنطاكية، وفرسانها، وكانا عازمين على الذهاب إلى أرمينيا، التي كانت تحت حكم الجيش التتاري.

لكنهما عندما رأيا بأن غازان قد غادر من المنطقة، انعطفا هما بدورهما للمغادرة أيضاً، ولحسن حظ الكونت أنه وجد غليوناً جنوياً في جبيل، عائداً لواحد اسمه جاكوبودي آفوغارو Jacopo d' avogaro ، وكان رجلاً قد استولى على جبيل لصالح كميونته ولنفسه، ولكن عندما غادر غازان، احتشد المسلمون في تلك المناطق، وزحفوا نحو جبيل، وبناء عليه قام الغليون والمراكب الأخرى الصغيرة، بالإقلاع آخذين معهم الكونت، والسير جون صاحب أنطاكية، مع الصليبيين الآخرين، وعندما كانوا ينسحبون، هاجمهم المسلمون، وهكذا تم مقتل عدد كبير من الصليبيين وغرقهم، وعاد الكونت غي صاحب يافا، والسير جون صاحب أنطاكية، وغليون الجنوية مع الصليبيين الآخرين إلى قبرص.

٦١٥ — في عام ١٣٠٠ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، قام الملك [...]ري، ملك القدس وقبرص، مع الداوية والاسبتارية بتسليح ستة عشر [...]يوناً مع خمس من السفن الحربية الصغيرة، وعدد من السفن الحربية

المغطاة والمخصصة للرماة، وغادروا فياغوستا في العشرين من تموز، وكان قائد الرجال المسلحين السير ريموند الفيزكونت، وكان أدميرال الغـلايين السير بلدوين أوف بقـويني Baldwin of picquigny ، وذهبوا إلى بلاد مصر، إلى مكان اسمه رشيد، حيث هناك واحد من مصبات النهر الذي اسمه النيل، والذي يجري حيث موضع القاهرة، وقد وجدوا هناك خمسة غلايين إسلامية مسلحة، قامت بالإقلاع فوراً والإبحار بعكس التيار، فور مشاهدتهم لأسطولنا، وقام رجالنا بالتشاور حـول هل سيلاحقونهم أم لا، لكنهم استغـرقـوا وقـتـاً طويلاً في مناقشاتهم، مع أنهم قرروا ملاحقتهم، ولكن الملاحقة لم تثمر شيئاً، لأن المسلمين كانوا قد ابتعدوا كثيراً، ولذلك قرر رجالنا النزول إلى اليابسة، وقد أنزلوا خيولهم التي كان عددها مائة، وركبوا وذهبوا إلى مسافة فرسخ، فـوجدوا قرية اسمهـا الجديدة Al-jadiyah ، فنهـبـوهـا وأحرقوها، وعندما كان رجالنا هناك، مروا بأربعين فارساً مسلماً، لم يتجرأوا على الاقتراب من رجالنا، وعاد رجالنا إلى غلايينهم، ثم إن المسلمين شاهدوا علم غازان على غلايينا، وكـان موضوعـاً هناك ومرفوعـاً فوق غلايينا، وبسبب راية غازان، كـان هنالك أربعة تتار مع الفرسان الأربعين المسلمين، الذين أنا ذكرتهم، وكـان محتفظاً بهم هناك لدى المسلمين وكأنهم في السجن، وقام هؤلاء بنخس خيولهم، وجاءوا يعدون نحو غلايينا، واستقبلهم رجالنا مع مطايـاهم، فعلموا بأخبار الكارثة الكبيرة التي حلت بالمسلمين، بسبب الخسارة الكبيرة التي عانوا منها نتيجة لانتصار غازان.

٦١٦ — وغادر الرجال رشيد، ووصلوا إلى ميناء الاسكندرية، وهناك دخلوا إلى ميناء المسلمين، ولم يحدث من قبل أن تجرأ صليبي على الدخول إلى هناك، بما أن المسلمين كانوا يحرسونه عن قرب، ولم يرغبوا بأن يعرف الصليبيون عنه أي شيء، وقد وجده رجالنا ميناء جميلاً جداً.

٦١٧— ثم غادرت غـاليينا ميناء الاسكندرية، ووصلوا إلى ميناء عكا، ووجـدوا هناك ثلاثين رجـلاً، وخيـولاً، وعلى الأقل ثلاثمائـة سير جندي رجالة، ونزل سيرجنديينا إلى اليابسـة وتحاربوا مع المسلمين الذين ذكرتهم، وهزموهم، وقتلوا عدداً منهم.

٦١٨— ثم غادر رجالنا ميناء عكا، ووصلوا إلى قبالة ساحل جزيرة طرطوس (أرواد)، واقتربوا من بلدة طرطوس، فوجدوا مائة فارس هناك، فهاجموهم، ولم يتجرأ المسلمـون على الاشتباك في معركـة مع رجـالنا، لكـن رجالنا هاجموهم، وأرغم المسلمـون على الفـرار، وأسر رجـالنا ستة منهم، جلبـوهم معهم وأنزلـوهم ثم قتلوهم، ثم غـادروا المكان، ووصلوا في اليوم التالي إلى مرقية.

٦١٩— وهاجم الاسبتارية مرقية مع السفينتين الحربيتين المخصصتين للرماة، ومعهم عدد من السيرجندية، ودخلوا إليها، وانطلق السيرجندية ينهبـون البلدة، ثم شرعـوا يأكلون ويشربون، لكن عندمـا لاحظ المسلمون الذين كـانوا خارج البلدة، بأن رجالنا نزلوا من مركبين فقط، وأن الغـاليين كـانت راسية بعيداً عن الشاطئ، ألقوا بأنفسهم على الاسبتـارية، وطردوهم إلى المركبين، وقتلوا حـوالي العشرين من السيرجـاندية، وواحـداً من فرساننا، وبناء عليه غـادر رجالنا مرقية، وأقلعوا عائدين إلى قبرص.

٦٢٠— ووصل في العام نفسه رسول من عند غازان، ملك التتار، إلى قبرص، قائلاً بـأن غازان قادم نحو الغرب خـلال ذلك الشتاء، وهو يريد من الملك مع جميع الفـرنجـة أن يقدمـوا وأن يلتقوا به في أرمينيـا، ولذلك قام الملك ورجاله بالاستعداد لذلك.

٦٢١— في تشرين الثاني من العام نفسه، ذهب صاحب صور، الذي كـان أخـاً للملك هنري الثـاني ملـك قبرص، والذي كـان يدعى السير

أمالرك(عموري) أوف لوزنغنان، والذي كان قهرمان مملكة القدس، ذهب إلى جزيرة طرطوس(التي تبعد حوالي النصف فرسخ عن بلدة طرطوس، مع أنه أن تذهب من الجزيرة إلى اليابسة المسافة أقصر بكثير)، وجلب عموري معه قوة مؤلفة من ثلاثمائة رجل وفرس، وكان مع الداوية والاسبتارية العدد نفسه أو أكثر، ونزلوا في الجزيرة، ثم ذهبوا إلى بلدة طرطوس، حيث مكثوا لعدة أيام، لكنهم وجدوا أن التتار قد أخروا وصولهم كثيراً، وأن لدى المسلمين جيشاً كبيراً من الرجال لسحقهم به، ولذلك انسحبوا من البلدة، عائدين إلى الجزيرة.

٦٢٢— وعند حلول شهر شباط، وصل أمير تتاري كبير اسمه قطلوشاه، إلى منطقة أنطاكية مع ما يقارب أربعين ألف فارس، ومن هناك أرسل فاستدعى الملك هيثوم الثاني ملك أرمينيا(الراهب جون الفرنسكاني) حيث وصل إليه، جالباً معه السير غي أوف إيبلين، كونت يافا، وجون صاحب جبيل، وعندما كانوا أمام قطلوشاه، أخبرهم كيف أن غازان كان قادماً، لكنه أصيب بمرض خطير وهو على الطريق، وحدثهم عن الرياح الشديدة والمناخ البارد الذي عانوا منه على طريقهم، وأن كثيراً من مطاياهم قد ماتت، وأغار قطلوشاه على جميع البلاد من حلب وصولاً إلى حمص، ثم عاد إلى بلاده، دون أن يعمل أي شيء آخر.

٦٢٣— وعندما سمع السير عموري، صاحب صور، والداوية، والاسبتارية، والرجال الجيدين الآخرين الذين كانوا في جزيرة طرطوس، بأن التتار قد عادوا، قرروا الانسحاب إلى قبرص، وفعلاً عادوا، لأنه حتى قبل عودتهم، قام المسلمون بالاحتشاد، وزحفوا ضد مدينة طرطوس، من أجل إنزال الضرر بهم، وقاوم رجالنا بثبات، وقتلوا بعض المسلمين، لكنهم عانوا من مصاعب كبيرة.

٦٢٤— في العام ١٣٠١ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، بعث البابا بونيفيس الثامن رسله إلى فرنسا إلى السير شارل(أوف فالوي Valois)

أخو الملك فيليب الرابع، ملك فرنسا، (الذي كان ملكاً وسيماً)، وطلب من السير شارل القدوم إليه، واعداً بكثير من الثروة والتشريف، وبناء عليه اعتقد السير شارل، الذي كان متزوجاً من ابنة الامبراطور اللاتيني للقسطنطينية، بأن البابا يرغب بإعطائه مساعدة كبيرة، لاسترداد تلك الامبراطورية التي استولى عليها الإغريق، وبناء عليه أحضر معه ستمائة فارس مدرع من فرنسا، وسافر من خلال لومبارديا وتوسكانيا، وعندما وصل إلى روما، استقبله البابا والكرادلة بتشريف عظيم، وأعطاه البابا لوردية أنكونا والرومانا Romagna.

٦٢٥ — ولم يمكث السير شارل هذا- أخو ملك فرنسا- مدة طويلة مع البابا، بل ذهب إلى توسكانيا، إلى مدينة فلورنسا، حيث استقبل بتشريفات عظيمة، وقدموا له ستمائة خيال، وأعطته مدن توسكانيا الأخرى التشريفات نفسها، والتكريمات، وغادر السير شارل هذا توسكانيا، وذهب إلى نابلس، إلى الإمارة التي كان فيها الملك شارل الثاني، وعمل ترتيبات هناك، لكي يذهب إلى صقلية مع عدد من البارونات الفرنسيين، وقد عبر إلى هناك في شهر نيسان.

والآن سوف أترك إخباركم حولهم، بسبب أنني أريد أن أحدثكم حول الخلاف الكبير بين البابا، وملك فرنسا.

٦٢٦ — أرسل البابا بونيفيس الثامن رسالة شفوية عنيفة إلى ملك فرنسا، في العام ١٣٠٣ لتجسيد مولانا المسيح، يطلب منه إما أن يمثل أمامه، أو أن يبعث واحداً يمثله، وأنا سوف أخبركم عن سبب الخلاف: كان ملك فرنسا قد اعتقل أسقفاً... [فراغ]... لذلك لم يرغب الملك لا أن يحضر هو بنفسه، ولا أن يرسل أي واحد آخر، ولذلك ألغى البابا جميع الامتيازات والأعطيات التي كانت كنيسة روما قد منحتها إلى أجداد الملك، وعلاوة على ذلك، أصدر البابا بونيفيس دعوات إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء الأديرة فيها، للمثول أمامه في تاريخ يوم محدد.

٦٢٧— عند هذا أصدر ملك فرنسا حظراً عممه على جميع أراضيه، يمنع فيه أي واحد بأن يأخذ ذهباً أو فضة خارج أراضيه، مالم يكن ذلك على شكل نقود.

٦٢٨— وعندما سمع الأساقفة حول هذا الحظر، أدركوا بوضوح أنهم لن يكونوا قادرين على الذهاب إلى روما بطرقة الأبهة التي كانوا معتادين عليها، كما أنهم لم يرغبوا بالذهاب، وأن يفعلوا ذلك وهم فارغي الأيدي، علاوة على ذلك، لقد رأوا بأن البابا كان يقوم بإثقالهم بأحمال غير مستوجبة بجعلهم يذهبون إلى روما، من أجل سبب غير جيد، ولذلك أعد جميع رجال اللاهوت والبارونات النبلاء في فرنسا، للاجتماع في يوم محدد للتشاور، وتناقش رجال اللاهوت والبارونات حول القضية فيما بين أنفسهم، وقرروا بالإجماع أن يرسلوا رسولاً إلى البابا، يطلب منه أن يسحب قراره من أجل تجنب الخلاف الكبير، الذي سيقع بين بلاط روما، والتاج الفرنسي.

٦٢٩— وعندما استقبل البابا الرسول، بات غاضباً أكثر من أي وقت مضى، وأصدر استدعاء إلى الملك شخصياً، وقال للرسول - الذي كان أسقفاً فرنسياً، ورجلاً صغيراً، ومن أصل منحط، وجريء، وعاقل، وماهر - بأنه سيقوم بعزل ملك فرنسا من مملكته، وأنه سوف يضع ملكاً آخر مكانه، واحداً سوف يتولى حكم مملكة فرنسا بطريقة أفضل مما صنع هو، وأن يكون مطيعاً للكنيسة المقدسة أكثر مما فعل هو، ويحب الكنيسة المقدسة ويخاف منها، مثلما فعل أجداده.

٦٣٠— وأجاب هذا الأسقف الرسول، لصالح ملك فرنسا، وقال بأن ملك فرنسا كان حقاً ملكاً قوياً جداً، يمكنه التعامل مع هذا التهديد ومع ما هو أسوأ منه، تماماً مثلما تعامل، وسوف يتعامل مع مثل هذه التهديدات، الرجال الذين كانوا أدنى من ملك فرنسا، وأصبح البابا تجاه هذا غاضباً كثيراً من الأسقف، فأمره بأن يضبط لسانه، وأمر بأن يأخذ

خاتم الأسقفية من إصبعه، وأن يجرد من أسقفيته، غير أن الأسقف خبر البابا، بأن لايستطيع بالقوة أن يخلعه من أسقفيته، لأن أسقفيته عائدة إلى ملك فرنسا، الذي كان ملكاً قديراً، يمكنه تماماً أن يصحح بعوض عن الأضرار التي يمكن للبابا أن يصنعها له، ومائتي ألف مرة أكثر وزيادة.

وعند هذا بات البابا شديد الغضب منه، فأمر باعتقاله، ولكن فيما بعد قام بإطلاق سراحه، بناء على طلب بعض الكرادلة، وبسبب أنه كان رسولاً، وقد عاد إلى فرنسا، وعند ذلك وضعه ملك فرنسا بالقوة في أسقفيته، وأعطاه أشياء جيدة أخرى كثيرة.

وهكذا كان في هذا الوقت خلاف شديد بين البابا وملك فرنسا، لكنني سأترك الآن إخباركم حول هذا، لأحدثكم حول فاجعة أخرى كبيرة حلت بالمسيحيين السوريين.

٦٣١— فلقد حدث في هذا العام، أن قام سلطان القاهرة بإرسال أربعة آلاف مسلم تركي إلى داخل مملكة أرمينيا، وقد اجتاحوا أرمينيا كلها وصولاً حتى المدينة الرئيسية التي اسمها سيس، والتي كانت قلعة حصينة جداً، فيها تجمعت أكثرية الناس، وكاد الملك هيتوم ملك أرمينيا نفسه أن يقع بالأسر، لأنه اعتقل مع عدد قليل من رجاله، لكن بعون الرب نجا، وتدبر الدخول إلى قلعة سيس.

٦٣٢— وكانت مدينة سيس مدينة كبيرة جداً، وقد وضعها المسلمون تحت تهديد الإحراق، وبقيوا هناك اثني عشر يوماً، ذلك أنهم أدركوا أخيراً أنهم لن يكونوا قادرين على إلحاق الأذى بالقلعة، وقد غادروا أرمينيا، وعادوا نحو مدينة اسمها حلب، التي تبعد مسافة سفر أربعة أيام عن أرمينية.

٦٣٣— وعندما رأى ملك أرمينيا الأضرار التي أنزلها المسلمون به،

بعث أخاه إلى التتار حتى يحكي لهم عن الأضرار التي عملها المسلمون له (لأن غازان ملك التتار، كان في ذلك الوقت في تركية مع جيش كبير جداً، وكان عازماً على التوجه إلى سورية، ضد المسلمين في ذلك الشتاء).

٦٣٤ — وأريد الآن أن أحدثكم عما وقع عند جزيرة صغيرة، قرب مدينة اسمها طرطوس في سورية، والتي كانت محتلة من قبل الفرسان الداوية.

٦٣٥ — أرسل السلطان — مضطهد الصليبيين — ستة عشر غليوناً ومركباً مسلحاً، إلى طرابلس في سورية، إلى واحد من الأمراء اسمه أسندمر الذي كان مسيحياً (من قبل) كان قد ولد من رجل مسيحي وامرأة مسيحية في بلاد تدعى جورجيا، وكان أسندمر قد طلب من السلطان إرسال هذه الغلايين، وقد حملهم بالرجال والسلاح، وسار على طول الساحل إلى أن وصل إلى طرطوس، وهناك أعد قواته، وقصد تلك الجزيرة (التي تبعد أقل من ألف قدم عن اليابسة) وعندما رآهم فرسان الداوية، باتوا خائفين كثيراً، لأنه لم يكن لديهم غلايين، وكان لديهم مركباً مسطحاً واحداً.

٦٣٦ — ونزل المسلمون على الجزيرة من جانبين، وحمل عليهم بعض الداوية وردوهم إلى ساحل البحر، وكانت هناك معركة حادة جداً، وأطلق المسلمون كميات كبيرة من النشاب وقد عقروا الخيول، وجرحوا عدداً كبيراً من الداوية، وبوساطة القوة دفع الداوية إلى برج كان في الجزيرة، وعندما رآهم المسلمون يتراجعون هكذا من الشاطىء نزلوا كلهم من غلايينهم على الجزيرة، وتمركزوا في الأبنية التي كانت في الجزيرة، ودافع الرماة السريان الرجالة عن أنفسهم بشجاعة كبيرة، وقتلوا عدداً من المسلمين، لكن هذا لم يفد شيئاً، لأن الداوية والآخرين، لم يعودوا يتجرأون على الهجوم، وعلاوة على ذلك كانوا بعيدين جداً.

٦٣٧ — وضغط المسلمون بشدة، وانتشروا عبر الجزيرة كلها،

وا رسالة إلى فرسان الداوية، قالوا فيها بأن عليهم الاستسلام بناء
ـات، وأنهم سوف يأخذونهم إلى أي مكان يريدونه في العالم
ي، ووثق الداوية بهذه الحكاية الشريرة، وسلموا أنفسهم بناء على
الفارس الراهب هيوج أوف أمبورياس Ampurias ، وهكذا
ستيلاء على الداوية، وعلى جزيرة طرطوس.

٦ــ لكن قام المسلمون بقطع رؤوس جميع الجنود السريان
الة، لأنهم أبدوا تلك المقاومة الشديدة، وألحقوا أضراراً كبيرة
مين، وجرى حمل الرهبان الفرسان بشكل غير مشرف إلى القاهرة.

وهذا الذي سمعته كان ما حدث لجزيرة طرسوس.

لآن سوف أعود لأحدثكم حول قضية البابا، والملك في فرنسا.

٦٢ــ لقد سمعتم كيف أن البابا دعا ملك فرنسا للمثول أمامه
ميا، وكيف قام بإلغاء جميع الامتيازات والمنافع التي أعطتهم
ـة إلى أجداده، واتسع الخلاف بينهما كثيراً، إلى حد قيام ملك
ا بكتابة لائحة ضمنها اثني عشر اتهاماً هي الأكثر إهانة ضد البابا،
أن الأدنى بين هذه الاتهامات يمكنها أن لا تؤهله لأن يكون
، وينبغي عزله بموجبها.

٦٤ــ وحدث في الوقت نفسه أن ذهب البابا إلى أناني، وعندما
هناك، أعد ملك فرنسا رجالاً من أناني لاعتقال البابا شخصياً،
سل ملك فرنسا بعض رجاله إلى هناك، قاموا شخصياً باعتقال
، وحملوه وأعادوه إلى روما(★)، وقد ضيق عليه بالحراسة، حيث لم
مح لأحد بالتحادث معه من دون إذن من رجال ملك فرنسا، وقد

أخطأ المؤلف هنا في روايته، ذلك أن بونيفيس اعتقل بالفعل في أناني من قبل ضباط
يين بمساعدة أعداء لأسرة بونيفيس من أسرة كولونا الرومانية، وكان ذلك في السابع من
عام ١٣٠٣، لكن السكان المحليين ثاروا وأنقذوا البابا، وطردوا الذين هاجموه، وحمل
فيس وأعيد إلى روما، حيث مات وهو غير معتقل، ويبدو أن موته جاء نتيجة الصدمة التي
منها، وكان ذلك في الثاني عشر من تشرين الأول.

مات وهو في هذا الوضع، وعمل الراهب نيقولا الدومينيكاني بابا، وقد كان لومباردياً، ونشأ في البندقية، وقد عاش مدة قصيرة، ثم مات، ثم صار كليمنت الخامس بابا، في عام ١٣٠٥ لتجسيد المسيح.

٦٤١— وكان في هذا العام خلاف شديد بين ملك فرنسا، وكونت فلاندرز، وجاء ذلك بسبب حقيقة أن كونت فلاندرز، رغب في أن يعطي ابنته إلى ابن الملك إدوارد، ملك انكلترا، ولكن ملك فرنسا، لم يكن راضياً بالموافقة على هذا، وقام ملك فرنسا بأخذ الفتاة الشابة من كونت أوف فلاندرز، واحتفظ بها تحت إشرافه.

٦٤٢— وحدث في الوقت نفسه، أن ثار دوق بيرغندي، وكونت بار Bar ، وكونت فلاندرز ضد ملك فرنسا، وتبع ذلك حرب كبيرة، وأثناء ذلك حمل الفلمنغيين Flemings السلاح وقتلوا نائب ملك فرنسا، ووصل ملك فرنسا وحاصر كونت بار، وبناء عليه ألقى كونت بار نفسه عليه وطلب رحمته، وسامحه ملك فرنسا، وعفا عنه.

٦٤٣— أعطى ملك فرنسا أوامر إلى عساكر مأجورين- عساكر رجالة مع رماح طويلة وقبي عقارة- وأرسل أوامر مشابهة إلى كونت آرتوي، وإلى كثير من الفرسان، والكونتات، والبارونات الفرنسيين، فذهب هؤلاء إلى داخل فلاندرز.

٦٤٤— وعندما رأى الفلمنغيون بأنه قد وصل، عملوا خندقاً جافاً حول مواقعهم، لذلك بات بإمكان الفرنسيين الوصول إلى الفلمنغيين، عبر طريق ضيق واحد، وبناء عليه قام الجنود الرجالة الحاملين للرماح الطويلة بالعبور فوقه، لكن كونت آرتوي جعلهم ينسحبون.

٦٤٥— عندما رأى الفلمنغيون عدداً كبيراً جداً من الرجال قد اصطفوا ضدهم، باتوا خائفين كثيراً، وقد أقاموا كونت أوف نامور، حفيد كونت فلاندرز قائداً لهم، وبعث الكونت مع الفلمنغيين رسولاً

بير لى روي إلى كونت آرتوي، وكان حكيماً جداً، ومتحدثاً بشكل وقد عرضوا بأن يضعوا أنفسهم تحت رحمة كونت آرتوي، وبها ملك فرنسا، إذا كان سينقذ حياتهم، وحياة نسائهم وأطفالهم.

يرغب كونت آرتوي بأن يوافق على هذا، بل أرادهم أن يضعوا م من دون شروط تحت رحمة ملك فرنسا، ونعمته الصالحة، لكن غين لم يتجرءوا على فعل هذا، ولذلك استعد كونت آرتوي هو له ليزحف على ظهور الخيل ضد الفلمنغين، وتحرك الفلمنغيون جوا للتصدي لهم، فصدوهم وضغطوا عليهم بشدة متناهية، حتى دفعوا الفرنسيين للسقوط في الخندق الجاف، وقتلوا عدداً كبيراً هنا وهناك حسبما رغبوا، وبذلك انهزم الفرنسيون هزيمة كاملة، كونت آرتوي، ومثله قتل عدد من أعلى بارونات فرنسا، مما خسارة كبيرة.

٦٤- في هذه الأيام، وفي هذا الوقت، كان كونت فلاندرز في الملك، فقد جرى تسليمه ووضعه تحت رحمة ملك فرنسا، من ضباط السير شارل، أخو ملك فرنسا، وقد وضع في السجن في Pontoise ، حيث مات، ووضع دوق بيرغاندي وكونت بار بها أيضاً تحت رحمة ملك فرنسا، وقد عفا عنهما.

٦٤- عندما وقعت المأساة عند كورتراي Courtrai إلى رجال ا، قتل أكثر من ستة آلاف من أكثر فرسان فرنسا نبالة وخيرة.

٦٤- وعندما وصلت الأخبار إلى ملك فرنسا، حزن حزناً شديداً، ب كثيراً، وحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والرجالة، ومضى هو شخصياً، ودخل إلى فلاندرز.

عزم ملك فرنسا على مهاجمة الفلمنغيين ومضايقتهم بالبحر أيضاً، أصدر أوامر إلى رجل من جنوى، اسمه رينيير غريمالدي Ranieri grim ، الذي كان رجلاً شجاعاً وقاسياً، وجريئاً، بأن يجمع بحارة

وصناع سفن ماهرين، وصنع رينير غريمالدي سبعة غلايين هناك. قام الجنويون بتسليحهم وفقاً لعاداتهم، وكان أدميرالهم رينير غريمالدي، وقد ذهبوا مغيرين ضد سفن التحميل الفلمنغية الواسعة، حسبما سوف تسمعون فيما بعد.

٦٤٩ - عندما وصل ملك فرنسا إلى فلاندرز، ألقى الحصار على مدينة ليل Lille، ودافع الفلمنغيون عن أنفسهم ببسالة، وكانت المعركة مميتة كثيراً، وعندما اشتبك الفريقان، ألقي ملك فرنسا من على ظهر حصانه، وبات على قدميه في وسط أعدائه، الذين حملوا عليه، لكنه دافع عن نفسه بسيف كان بيده، وكانت ضرباته جبارة ومرعبة إلى حد أن كل من أصابه مات على الفور، وتمدد على الأرض، لأن ملك فرنسا كان رجلاً ضخماً جداً، أطول بعرض شبر من الرجال الآخرين الطوال، مع عظام أكبر من جذوع الأشجار، وكان شديداً وشجاع القلب مثل أسد، ولم يكن هناك حصان مهما كان كبيراً وقوياً، إلا ويرتخي تحته، وكان وركيه وكانت أطرافه واسعة إلى حد أنه عندما كان يركب، كانت قدماه في حدود الشبر تحت الأرض، وكان وسيماً في وجهه، وأشقر البشرة، وعظيم الشعار، إلى حد أنه لم يكن في أيامه من هو أكثر وسامة منه، ويعرف كل واحد رآه تمام المعرفة بأن الذي أخبرتكم به هو الصدق بعينه.

وكانت المعركة قاسية جداً، ومميتة كثيراً من كل من الطرفين، كان خلالها ملك فرنسا على قدميه مرتين أو ثلاث مرات، لأن حصانه قد قتل تحته، وعندما امتطى حصاناً، بعدما كان على الأرض، امتلك أربعة وعشرين فارساً يحرسونه شخصياً على أكمة، ووصل إلى هناك صاعداً رجل كبير من الجانب الفلمنغي، هو اللورد كوجك Cuijk، وقد تحارب مع الملك الفرنسي، وسدد إليه ضربة بمدية حادة إلى وسط جسده، ولكن الملك كان جيد الدروع، بحيث أن الضربة لم تسبب له الأذى، وقتل اللورد كوجك على الفور، وقطع إلى أشلاء.

النهاية لم يعد الفلمنغيين قادرين على تحمل ثقل المعركة، وقد جميعاً، واستولى ملك فرنسا على مدينة ليلي، وأمر ببناء واحدة من القلاع وأجملها داخل المدينة، ووضع رجاله داخل هذه القلعة بها، ولإبقاء سكان المدينة تحت إشرافه عن قرب.

هذا كانت نتيجة المعركة البرية، كما سمعتم.

- وأريد الآن أن أحدثكم حول غلايين الملك الفرنسي، وحول رينيير غريمالدي، وحول إنجازاته والذي فعله.

- تمركز الأدميرال هو نفسه ومعه غلايينه على طول نقاط، أن كل من كان قادماً أو ذاهباً مسافراً، لابد له من المرور بها، كان راسياً ينتظر، توجب عليه التصدي لقوة المرافقة كلها، لأن ين كانوا قد سمعوا حول غلايينه، ولهذا السبب كانوا يسافرون جماعي مع بعضهم، وفور رؤيتهم لهذه الغلايين سلحوا أنفسهم ماتهم، وقام رجال الغلايين(الذين كما يعرف كل واحد كانوا في مراكب أسرع، ولذلك كانوا قادرين على الذاهب والإياب إلى حيث يريدون) بمحاصرة سفن التحميل الكبيرة التي كانت إلى الفلمنغيين، وكانت هذه السفن جيدة التسليح، وحصينة، ومراكب طويلة، وقد تحاربوا مع بعضهم بحدة متناهية، وبما أن التحميل كانت مراكب من دون مجذفين، كانوا غير قادرين على التأييد لبعضهم بعضاً، ولذلك وجدوا أنفسهم وسط مصاعب أحاطت الغلايين بمراكب التحميل هذه، وقاتلوا كل واحد م انفراد، وقد استولوا على أربعة وعشرين مركباً مع حمولتهم، الاستيلاء عليهم، هبت الريح واتجهت إلى منطقة كانت بقية المراكب، فرفعوا الأشرعة وأقلعوا إلى منطقة أخرى، بعدما كثيراً، ولحقهم الأذى وأصيبوا بالجراحة.

٦٥٢— وكان في داخل المراكب المحملة التي جرى الاستيلاء عليها ثروات كبيرة جداً، كلها ذهبت إلى ملك فرنسا، وشُرف رينيير غريمالدي كثيراً لهذا النصر، وجُعل فارساً، وأعطاه الملك إقطاعاً جيداً.

٦٥٣— وأريد الآن أن أحدثكم حول كونت فلاندرز، الذي كان في سجن الملك الفرنسي، ولكن كان مسموحاً له بالركوب والذهاب إلى حيث كان يرغب.

٦٥٤— وحدث في أحد الأيام أنه وصل إلى أمام ملك فرنسا، ورجاه أن يسمح له بالذهاب إلى فلاندرز، إلى أراضيه، وإلى شعبه، وهو أمر رغب به كثيراً، وسأله الملك عن الضمان الذي يمكن أن يعطيه على أنه سوف يعود، وأجاب الكونت بأنه لا يمتلك ضماناً إلا كلمته، وتركه الملك يذهب اعتماداً على هذا فقط.

وذهب الكونت إلى فلاندرز، ورأى أراضيه وأصدقائه، فأشاروا عليه بعدم الرجوع ثانية إلى السجن، لكنه لم يرغب بالأخذ بهذه النصيحة، لا بل بالحري قام بالمحافظة على وعده وكلمته، وعاد إلى مولاه ملك فرنسا، إلى السجن في بونتوي، حيث مات عن سن بلغ مائة عام.

٦٥٥— وصنع السلام في فلاندرز، بعدما استسلمت مدينة ليلي إلى رحمة ملك فرنسا وشفقته، الذي مع أنه نال أذى كبيراً من الثورة، هو لم يقم بالانتقام ضد أي واحد.

والآن سأدع الحديث إليكم حول هذا الموضوع، وسأتحدث إليكم حول قضية أخرى.

٦٥٦— ولدى حلول اليوم السابع من شهر آب من العام ١٣٠٣ للمسيح، كان هناك زلزالاً كبيراً جداً في جزيرة قبرص، وكان أكبر من أي زلزال جرى الشعور به في أيامنا، ومع أن الزلزال- بفضل رحمة الرب- لم يحدث أضراراً في قبرص، لقد تسبب بأضرار كبيرة جداً في الخندق(

يوت الحديثة) في كريت، وفي رودس، وقتل عدداً كبيراً من الناس، لشعور به في جميع أماكن العالم، حسبما تحدث التجار ورووا.

أدع الآن إخباركم حول هذا، وسوف أحدثكم عن وقائع وقعت في قبرص.

٦٤— امتلك الملك هنري الثاني، ملك القدس وقبرص، بعد وفاة الملك جون الأول، ثلاثة إخوة أصغر منه، كان الأسن بينهم يدعى ي، الذي إليه أعطى منحه المدينة التي تدعى صور في سورية، وجعله قهرمان مملكة القدس، ومع أن المسلمين يمتلكون أراضي سورية في الوقت الذي قدم فيه الأعطية، هو مع ذلك منحه الأعطية، في أن يحمل لقب لورد، وكان عموري متزوجاً من أخت هيثوم الثاني رمينيا، وهي سيدة اسمها إيزابيلا، وقد تزوجها في أرمينيا.

٦٥— وكان واحد من الأخوين الآخرين اسمه غي، وقد تزوج من بيروت، التي كانت زوجة همفرير أوف مونتفورت (الذي كان أخاً جون أوف مونتفورت، وصاحب صور وتبرون)، وأعطى الملك إلى غي هذا وظيفة قهرمان مملكة قبرص، لكن لم يمض وقت كبير ات، مخلفاً صبياً وابنة من زوجته صاحبة بيروت، وكان اسم الصبي الصغير، وقد رباه عمه الملك في بلاطه.

٦— بعد وفاة القهرمان المتقدم ذكره، عمل الملك هنري السير Aimery ، الأصغر بين إخوته، قهرماناً.

٦— كان للملك خالين، أخوين للملكة أمه، وكان الأول بينهما بالين دي إيبلن، وقد كان قهرمان مملكة قبرص، وكان الآخر، نو الأصغر، يدعى فيليب أوف إيبلين، وخطوة خطوة، وبفضل مات القهرمان، وعمل هذا سير فيليب أوف إيبلين أخاه، ان لمملكة قبرص.

آن وقد حدثتكم عن الإخوة والأخوال، بذلك يمكنكم أن تفهموا أفضل أحداث شؤونهم التي سوف تسمع روايتها فيما يلي.

٦٦١— ولم يكن الملك هنري في هذه الأيام معتــاداً على أخـذ النصيحة، حول القضايا السرية من أي واحد، إلا من خاله السير فيليب أوف إيبلين، وأبقى جميع الآخــرين بعيــدين ونائين، ونصرف الملك بطريقــة تسببت - بفضل تدخل العدو من الجحيم - بإثارة التحاسد بينهم، وهكذا حدث أن السير عموري، صاحب صور، راهن على أن يكون حاكماً لقبرص، وعبر عن رغباته وأسمع بها الفرسان، فوجد أن الأكثرية بينهم على اتفاق معه.

٦٦٢— في العام ١٣٠٦ لتجسيد المسيح، أعلن السير عموري، الأخ الثاني للملـك عن مطالبة مفتـوحة لأن يكون حاكم مملكة قبرص، وحدث أن فارساً اسمه هيوج أوف بريستيرونا Peristerona وجه الدعوة إلى صاحب صور وإلى عدد من القبارصة للاجتماع، وكانوا في ذلك الصبـاح مع بعضهم في الحمام، وأعـدوا في ذلك الاجتماع، لأن يجعلوا صاحب صور حاكماً.

ووري كل شيء فعلوه إلى الملك، لكنه لم يرغب في أن يصدق ذلك، وأعلن أنهم لن يتجرأوا على تنفيذ الخطة.

٦٦٣— وفي اليوم التالي لهذا الاجتماع، في اليوم السـابع والعشرين من نيســان (الذي كــان يوم ثلاثاء) حشــد السير عمــوري جميع الإقطاعيين والفرسـان الذين أمكنه الحصول عليهم في مسكنه، من أجل أن يعمل نفسه حاكماً، وأمر بـوجوب إغلاق الأبواب، بحيث ما أن يدخل أي فارس، لايمكن أن يسمح له بالخروج، وعقدوا مجلساً استشارياً مع بعضهم.

وعندما كانوا مجتمعين للتشاور، كان السير فيليب أوف إيبلين، خال الملك، مع الملك، وكـان السير فيليب، على دراية بهذا الشيء الذي كانوا يصنعــونه، لأنهم كــانوا قــد أخبروه به في إقطاعيتــه الأمينوس

(Alamino(*) ، وعندما أدرك أنهم كانوا مجتمعين في مقر صاحب صور، ترك الملك هناك، وذهب إلى مقر أخته الملكة الأم، وأخبرها حول القضية، وركبت الملكة على الفور، وأحضرها على ظهر فرس عسكري إلى مسكن صاحب صور.

وخرج صاحب صور من الاجتماع، ومضى لوحده إلى أمه الملكة، فبادرته أمه قائلة: «عموري ما هذا الذي تفعله ضد الملك، الذي هو أخوك، ومولاك؟».

ورد صاحب صور على أمه الملكة، هو بسبب أفاعيل السير فيليب أوف إيبلين، وعندما سمع السير فيليب هذا الادعاء رد، بأن الأمور كانت دوماً جيدة بين الملك وبينه شخصياً، وأخبره صاحب صور بأنه سوف يجعل هذه الأفاعيل معروفة لديه بسرعة كافية.

وعندما سمعتهما الملكة الأم يرد أحدهما على الآخر، تركت أخاها السير فيليب أوف إيبلين، خشيـة من أن يتصاعـد الكلام بينهما ويكبر، وتُرك السير فيليب لوحـده، من دون مـرافقين، لأن السيرجندية لم يكـونوا يسمحون إلى أي فارس بالخروج من البيت بعدما دخل إليه، كما سمعتم.

وبقيت الملك لوحدها، ولذلك تدبر صاحب صور أمر مرافقتها من قبل بعض الفرسان من حزبه، وحدث هذا كله والملك في تلك الأثناء لا يعرف شيئاً عما كان يحدث، وعندما عاد السير فيليب أوف إيبلين إلى مكان الملك، جلس إلى جانبه، ولم يرغب في أن يبحث في القضية.

٦٦٤— عاد صاحب صور إلى الاجتماع، وقاموا هناك بإعداد الأمور وفق طريقة جعلوه فيها حاكماً لمملكة قبرص، وبناء عليه ركب الحاكم على ظهر فرس، وجميع الفرسان معه، وتوجهوا إلى بيت الملك، وأوصلوا الكلمات التالية، اللاتي سوف تسمعونهن، أوصلوهن له مكتوبات، وكان

(*) - قرب الشاطيء الجنوبي لقبرص بين ليماسول ولارنكا.

الشخص الذي قرأهن عليه هو السير هيوج أوف إيلين، أخو القهرمان فيليب أوف إيلين، الذي مات، وهذا ما قالته الوثيقة:

٦٦٥ — «نحن أيها السيد حضرنا أمامكم لنخبركم أنه بسبب أنك مريض في جسدك، وغير قادر على القيام بمهام حكومة المملكة كما ينبغي، ومثل هذا بسبب العديد من الصراعات التي حدثت في أيامنا، بينك وبين عدد كبير من الأشخاص، وخاصة مع الجنويين، لهذا رسمنا في المحكمة ورتبنا بأن يكون أخاك السير عموري، صاحب صور، الحاكم».

وعلى هذا عمل الملك الجواب التالي:

٦٦٦ — ما الذي تحاولون قوله؟ هل بسبب مرضي جعلتموه حاكماً؟ لقد كان هناك ملك بين أسلافنا مصاب بالجذام، لكن ما من حاكم وضع مكانه، وإذا كنتم تشيرون إلى الخلاف والصراع مع الجنويين، لقد فعلت ذلك من خلال وكالة صاحب صور، وإنكم حتى إذا عملتم صاحب صور حاكماً، ما من واحد من رجالي سيؤدي القسم إليه.

٦٦٧ — رد صاحب صور بهذه الكلمات: «لقد أقسم كل واحد الأيمان لي، وإذا كان هناك أي واحد لم يفعل ذلك، سوف يقسمون، وبالنسبة للذين لا يريدون أن يقسموا سوف أطعنهم بهذا الخنجر في أجسامهم وفي أجسام ذريتهم إلى الجيل الثالث، وغادر الحاكم وخرج من قاعة الملك، وأمر بإعلان المرسوم في جميع أرجاء البلاد باسمه كحاكم، وعمل بهذه الطريقة حاكماً، وقام كثير من الفرسان الذين كانوا فعلاً ضده بأداء الأيمان له، كما سوف تسمعون فيما بعد، في هذا الكتاب.

٦٦٨ — وكان أول أعماله كحاكم إعطاء كيمونة البندقية امتيازاً في مملكة قبرص، بفضل منه.

وهكذا سوف أحدثكم عن الحاكم في وقت آخر، وسوف أحدثكم حول قضية أخرى كانت تحدث أثناء حدوث هذه الأشياء، التي حدثت في قبرص.

Alamin(*) ، وعندما أدرك أنهم كانوا مجتمعين في مقر صاحب
ور، ترك الملك هناك، وذهب إلى مقر أخته الملكة الأم، وأخبرها حول
ضية، وركبت الملكة على الفور، وأحضرها على ظهر فرس عسكري
مسكن صاحب صور.

وخرج صاحب صور من الاجتماع، ومضى لوحده إلى أمه الملكة،
ادرته أمه قائلة: عموري ما هذا الذي تفعله ضد الملك، الذي هو
وك، ومولاك؟.

ورد صاحب صور على أمه الملكة، هو بسبب أفاعيل السير فيليب
ف إيبلين، وعندما سمع السير فيليب هذا الادعاء رد، بأن الأمور
ت دوماً جيدة بين الملك وبينه شخصياً، وأخبره صاحب صور بأنه
ف يجعل هذه الأفاعيل معروفة لديه بسرعة كافية.

وعندما سمعتهما الملكة الأم يرد أحدهما على الآخر، تركت أخاها السير
ب أوف إيبلين، خشية من أن يتصاعد الكلام بينهما ويكبر، وترك
ير فيليب لوحده، من دون مرافقين، لأن السيرجندية لم يكونوا
محون إلى أي فارس بالخروج من البيت بعدما دخل إليه، كما سمعتم.

وبقيت الملك لوحدها، ولذلك تدبر صاحب صور أمر مرافقتها من
، بعض الفرسان من حزبه، وحدث هذا كله والملك في تلك الأثناء
يعرف شيئاً عما كان يحدث، وعندما عاد السير فيليب أوف إيبلين إلى
ان الملك، جلس إلى جانبه، ولم يرغب في أن يبحث في القضية.

٦٦٤ — عاد صاحب صور إلى الاجتماع، وقاموا هناك بإعداد الأمور
ن طريقة جعلوه فيها حاكماً لمملكة قبرص، وبناء عليه ركب الحاكم على
ر فرس، وجمع الفرسان معه، وتوجهوا إلى بيت الملك، وأوصلوا
لمات التالية، اللائي سوف تسمعونهن، أوصلوهن له مكتوبات، وكان

قرب الشاطئ الجنوبي لقبرص بين ليماسول ولارنكا.

الشخص الذي قرأهن عليه هو السير هيوج أوف إيبلين، أخو القهرمان فيليب أوف إيبلين، الذي مات، وهذا ما قالته الوثيقة:

٦٦٥— «نحن أيها السيد حضرنا أمامكم لنخبركم أنه بسبب أنك مريض في جسدك وغير قادر على القيام بمهام حكومة المملكة كما ينبغي، ومثل هذا بسبب العديد من الصراعات التي حدثت في أيامنا، بينك وبين عدد كبير من الأشخاص، وخاصة مع الجنويين، لهذا رسمنا في المحكمة ورتبنا بأن يكون أخاك السير عموري، صاحب صور، الحاكم».

وعلى هذا عمل الملك الجواب التالي:

٦٦٦— ما الذي تحاولون قوله؟ هل بسبب مرضي جعلتموه حاكماً؟ لقد كان هناك ملك بين أسلافنا مصاب بالجذام، لكن ما من حاكم وضع مكانه، وإذا كنتم تشيرون إلى الخلاف والصراع مع الجنويين، لقد فعلت ذلك من خلال وكالة صاحب صور، وإنكم حتى إذا عملتم صاحب صور حاكماً، ما من واحد من رجالي سيؤدي القسم إليه.

٦٦٧— رد صاحب صور بهذه الكلمات: «لقد أقسم كل واحد الأيمان لي، وإذا كان هناك أي واحد لم يفعل ذلك، سوف يقسمون، وبالنسبة للذين لايريدون أن يقسموا سوف أطعنهم بهذا الخنجر في أجسامهم وفي أجسام ذريتهم إلى الجيل الثالث، وغادر الحاكم وخرج من قاعة الملك، وأمر بإعلان المرسوم في جميع أرجاء البلاد باسمه كحاكم، وعمل بهذه الطريقة حاكماً، وقام كثير من الفرسان الذين كانوا فعلاً ضده بأداء الأيمان له، كما سوف تسمعون فيما بعد، في هذا الكتاب.

٦٦٨— وكان أول أعماله كحاكم إعطاء كيمونة البندقية امتيازاً في مملكة قبرص، بفضل منه.

وهكذا سوف أحدثكم عن الحاكم في وقت آخر، وسوف أحدثكم حول قضية أخرى كانت تحدث أثناء حدوث هذه الأشياء، التي حدثت في قبرص.

٦— حدث بعد سقوط عكا موت مقدم فرسان مشفى القديس
لفارس الراهب جون أوف فيلاري، وصار من بعده الراهب
س أودو دي بنز Odo des pins هو المقدم، وعاش أودو
نصير ثم مات، وصار من بعده الراهب الفارس وليم أوف
ت Villaret (وهو من بروفانس كان رئيساً لدير القديس
المقدم.

٦— وكان لهذا المقدم ابن أخ، وكان راهباً شاباً من رهبان
رية، وقد كان هو القائد الأعلى، وكان اسم هذا القائد الفارس
، فولك أوف فيلارت، وكان هذا كريماً، وأديباً، وسخياً جداً وقد
سلوكاً جيداً في قيادته، وأحب كثيراً إخوانه الفرسان الرهبان،
م كثيراً مع الناس الآخرين، وقد صدفت وفاة عمه المقدم، فعمل
الاسبتارية مقدماً لهم الراهب الفارس فولك القائد الأعلى، وكان
عام ١٣٠٥ لتجسيد المسيح.

٦— وبعدما جرى تثبيت هذا المقدم، قام بتنفيذ مغامرة كبرى،
سأحدثكم وأروي لكم.

٦— كانت هناك جزيرة تدعى رودس، عائدة لامبراطور
طينية، وهي واقعة على مفترق الطرق البحرية، وكانت قريبة جداً
كيا، وملاصقة لجزيرة قبرص، وعلى الطريق الذي يأخذه الناس
نهابهم إلى مصر، وسمح سكان جزيرة قبرص بمرور المراكب
ة بالأخشاب والحديد، والأطفال الإغريق، والنساء، وقد جرى
ل هؤلاء من أجل بيعهم إلى مسلمي مصر، لا بل حتى شعب
ن غالباً ما حملوا هم أنفسهم هذه السلع إلى المسلمين.

٦— أراد الراهب الفارس فولك أوف فيلارت، مقدم
سارية، في بداية توليه المقدمية أن ينال حظوة الرب، والثناء

والتشريف من العالم، لذلك انطلق بعمل في سبيل الاستيلاء على تلك الجزيرة، وقرر أن يمنع مرور التجارات الذاهبة إلى المسلمين، وبعمله هذا سوف يكون بمقدوره إخضاع المناطق المجاورة من تركيا للصليبيين، ولذلك قام، حتى يبدأ بهذه المغامرة، التي أنا بصدد الحديث عنها، بتوجيه دعوة إلى رجل جنوي كبير اسمه اللورد بونيفيسو غريبالدي، للحضور إلى فيناغوستا، وقد وصل إلى عند المقدم، إلى كولوسي Kolossi ، وهي إقطاعية تابعة للاسبتارية قرب ليماسول، وتحادثا هناك مع بعضهما، ونظراً لما شؤونها حسبما بدت ضرورية لهما بالنسبة للمغامرة التي قررا القيام بها، وبعد نقاشات طويلة عقداها، وبعد كثير من المحادثات التي جرت بينهما، تم الاتفاق والإقرار بأنهما سوف يعدان أسطولاً.

وركب المقدم وفرسانه الرهبان ظهور سفنهم، وذهبوا إلى رودس، وعند وصولهم تمكنوا من النزول إلى اليابسة والاستيلاء على البلاد بالقوة، وحاصروا قلعة رودس، ونصبوا مجانيق حصار كبيرة وأشياء أخرى.

وعندما كانوا يقومون بحصار مدينة رودس، حدثت واقعة أخرى تتعلق بقلعة أخرى اسمها فيليرمو Philermo ، وكانت فيليرمو بعيدة عن البحر، وقد زودها الإغريق بسيرجندية وبأطعمة وبثلاثمائة تركي من تركيا، قدموا إلى عونها.

وقام الآن قسطلان تلك البلدة الحصينة بضرب سيرجندي إغريقي، الذي شعر بالخجل والرفض، فذهب هذا السيرجندي وهو غاضب إلى الجيش الاسبتاري، الذي كان أمام رودس -كما سمعتم- وتوصل إلى تفاهم معهم، ووعدهم بخيانة تلك القلعة (التي -كما أخبرتكم- تدعى فيليرمو) من الجانب الذي كان يتولى حراسته، إذا ما رغبوا بالاستيلاء عليها.

٦٧٤— وخرج هذا الرجل في الليل من مكان، ما من أحد يعرف

شيئاً- كما أخبرتكم- ومضى إلى عند الاسبتارية، وعندما ساد و»، في آخر الليل، أرسل القدم والرهبان الفرسان جنوداً رجالة، . وثقوا به وذهبوا معه، وتسلق هذا الرجل إلى الشرافات، حيث كان س بالعادة، وتسلق الاسبتارية وسيرجنتيهم بعده، إلى حيث أظهر وأراهم» واستولوا على البلدة الحصينة من ذلك المكان، ووضعوا يف في الشلاثمائة تركي مسلم، وجدوهم هناك، وذهب الرجال حرون والنساء والأطفال إلى الكنائس لإنقاذ حياتهم.

عزز الاستيلاء على هذه البلدة الحصينة الاسبتارية كثيراً، ومنحهم ات والإصرار على متابعة الحصار بقوة أكبر، وللتقدم في قضيتهم ر، ومع ذلك احتاجوا إلى أكثر من عامين للاستيلاء على قلعة س، بسبب أن تحصيناتها كانت قوية جداً، وامتلكت رجالاً مقاتلين ين في داخلها، (مقدرين أن الذين كانوا في داخلها إغريق)، ولأن بتارية لم يرغبوا بتدميرها بشكل فعال يؤدي إلى انهيارها، وبسبب أن ن كانوا في داخلها مسيحيين، لذلك استخدموا قوتهم للاستيلاء ا بطريقة موائمة، وهذا هو سبب أن الحصار استمر وقتاً طويلاً إلى الحدود.

عندما قضى الرب بوجوب انتهاء القضية لصالح المسيحية، حتى هب التجارات إلى المسلمين -كما قلت- بعد حادثة، أنا سوف ها لكم.

٦٧- ولقد حدث أن تسلم الامبراطور البيزنطي رسائل ورسولاً الناس في رودس، وقد سألوه أن يزودهم بالطعام وبالسلاح، وبناء استأجر الامبراطور مركباً جنوياً، وحمله بكميات كبيرة من الطحين سلحة، وأرسلهم مع الرجل الذي أرسله أهل رودس إليه.

لكن عندما كانت السفينة في مياه رودس خارجها، وجد الذين كانوا

على ظهرها الجزيرة محروسة بشدة كبيرة بحيث لا يمكنهم الرسو، علاوة على ذلك دخلوا بين اثني عشر غليوناً، أربعة لبروفنكال Provencals، وواحد لسيدو دوريا Sido doria، وواحد للانفرانكوسيا Lanfranco ceba، الذي كان يدعى (La pennato)، وآخر لجنوي اسمه فينولو Vignolo، وقام الاسبتارية بتسليح بعض الغلايين الأخرى في قبرص، وفي أماكن أخرى، ولذلك توجهت السفينة عوضاً عن ذلك نحو قبرص، ووصلت إلى ميناء فياغوستا.

وكان هناك فارس من قبرص اسمه السير بيير لي جوني Pierre la jaune، وكان قد وصل من رودس إلى قبرص، ولديه سفينة حربية صغيرة، وكانت مسلحة وتابعة للاسبتارية، وعندما كان في الميناء، بات التاجر الجنوي صاحب سفينة التفريغ خائفاً من أن يقوم الرجل الذي كان من رودس، وكان عائداً إلى رودس، بالاستيلاء على سفينته، وقد كان في السفينة كثيراً من الأطعمة والأسلحة، قد أرسلها الامبراطور، وقد أراد صاحب السفينة إنزال هذه الحمولة في فياغوستا، حيث سيكون أكثر أماناً، لكن عندما كان الرجل في بارجته، عرفه واحد من البحارة الذين كانوا على ظهر مركب السير بيير لي جوني، فأبحر البحارة نحو بارجته حيث كان، واعتقلوه، وسلمه على الفور السير بيير لي جوني إلى مقدم الاسبتارية في رودس، وقام الرجل خوفاً على حياته، بالتفاوض مع الرجال من رودس، وأخبرهم باسم الامبراطور، مع كثير من العلامات المتبادلة، بأن على رجال القلعة أن يعهدوا بأنفسهم وببضائعهم ويسلموها إلى أمان الاسبتارية.

وهكذا صارت القلعة بأيدي الاسبتارية، حيث سلم الرجال الذين كانوا في القلعة المفاتيح إلى المقدم، وعملوا ميثاقاً بأن تبقى مقتنياتهم تحت حماية الاسبتارية، وأن يصبحوا هم رجالاً لديهم، تماماً مثلما كانوا رجال الامبراطور صاحب القسطنطينية، وتمسك الاسبتارية بنود

لية، واستقبلوهم بمثابة رجال لديهم، لكنهم جعلوهم يعيشون تحصينات القلعة في الربض، وكان هذا في العام ١٣٠٦، وكانوا ا الحصار في العام ١٣٠٠.

١ــ قدم مقدم الاسبتارية، والشيوخ المحنكين والرهبان الفرسان الرب وللعذراء مريم على هذا الحظ الطيب والتشريف الذي يعملوا على تحصين رودس وتقوية أنفسهم، وجمعوا عدداً كبيراً من الجيدين الذين أرادوا الحضور إلى رودس، وذلك في سبيل إسكان بالسكان، وتطويره، ثم إنهم أخضعوا عدة أجزاء من تركيا وها تحت سيطرتهم، وقد أعطوهم جميعاً هدنة، ولم يعد أولئك الأشرار يتجرأون على المرور من هناك ثانية، أو يلتقطوا من تركيا لا ثياب ولا الجلود، أو أي شيء آخر لأخذه إلى القاهرة، وإذا ما حي واحد الذهاب، كان الاسبتارية مع غلابيينهم يستولون عليها ويجردونهم، وكان هذا أمراً مفيداً كثيراً للمسيحية، وهكذا هيأ الرؤساء نحو الأفضل.

- وبهذه الطريقة بارك الرب مقدم الاسبتارية النبيل، وجمع المحنكين للاسبتارية، فقد أصبحوا الآن في حرية واسعة، بمحـرية كبيرة للعمل في هذا المكان، الذي بات حـاوياً سيحيث باتوا نائين عن سيطرة أي واحد آخر، وليكن الرب مام بنعمته الكبيرة، على هذه الأعمال الجيدة، آمين.

والآن نعود إلى مسألة صاحب صور، الذي عمل حاكماً لقبرص.

٩ وحدث أن الحاكم لم يعد يسمح إلى أي فارس أن تكون له ـغة بالملك، أو أن يذهب إليه راكباً، باستثناء مـولاي ـيهـ/خاله) وعدد محدد من الفرسان الآخرين أنا سوف أذكر ـمائهم: السير جـون صاحب جبيل في سـورية(الذي كان يدعى

باسم أرنب Arneb) والسير لويس أوف نوري Nores ، والسير رولاند دي لى بومي Baume ، والسير باليان أوف مونتغيسارت Balian of montgisart مع اثنين آخرين.

وعندما صارت الأمور هكذا، فإن كثيراً من الفرسان الذين أقسموا الأيمان للحاكم كانوا نادمين كثيراً في قلوبهم لأنهم فعلوا ذلك، وأدرك الحاكم هذا، ووضعهم تحت المراقبة، وكمن بانتظار إمساكهم متلبسين بالجريمة في ساعتها.

وحدث الآن، أنه في وسط هذا كله، أراد الحاكم من الملك أن يعلن في بلاطه بأنه حاكم بإرادة من الملك واختيار منه، وأراد منه إصدار صك بهذا الخصوص، من أجل أن يبرىء نفسه في أعين الملوك فيما وراء البحار، وذلك بسبب العنف الذي عمله للملك، وقال الملك بأنه لن يفعل هذا بأية طريقة من الطرق، ويفضل أن يمزقوه إلى أجزاء، قطعة قطعة على أن يفعل ذلك، وغضب الحاكم لهذا غضباً شديداً، وبات في بعض الأوقات مجنوناً إلى حد أنه أراد أن يهاجم الملك في مسكنه، وأن يأخذه بالقوة، ولذلك قام مولاي صاحب صور(الحاكم) بتسليح نفسه مع جميع رجاله، ووصلوا مع خيول مدرعة، وأعلام تخفق، وأحاطوا بمسكن الملك.

وكان في ذلك الوقت حاكم جنوي كبير في قبرص، في مدينة نيقوسيا، وقد جاء هذا شخصياً، وتبعه جميع الجنويين في نيقوسيا، وذلك بناء على أوامره، مع أعلام تخفق في الهواء، وكان مع الحاكم الجنوي فرس كبير، كان الحاكم قد أعطاه إياه كهدية، وكان هذا الحاكم الجنوي يدعى غياكومو بانزانو Giacomo panzano ، وكان الملك قد أذنب بحقه في الماضي، فقد كان قد اعتقل من قبل فيزكونت فياغوستا، ووضع بشكل مهين في سجن اللصوص، ولهذا السبب قدم تحت السلاح ضد الملك، مع أنه ليم كثيراً ووبخ في جنوى لفعله ذلك.

٦ — وعندما رأى الملك أنهم قادمون لمحاربتـه واعتقاله في
، جمع كل من استطاع أن يجمعه من الناس في بيتـه، وكان مولاي
فيليب أوف إيبلين-خاله- وقهرمان المملكة هناك، وكان مسلحاً
بقية، حتى الملك نفسه كـان لابساً دروعـه، وقـال بأنه يرغب
ج ليكتشف لماذا جاءوا ضده.

ن فرسان الحاكم ورجالـه مسلحين، وقد انتظموا في صفوف على
شارع، أمام مسكن الملك، لكن الملكة الأم- التي كانت مزعوجة
سبب هذا كله- والدومينيكان والفرنسيسكان والرهبان الآخرين،
إلى عند الملك، وركعوا أمامـه على ركبهم، لا بل حتى السيدة
وصلت إلى أمـامـه، ورجـاه الجميع بأن لا يخرج ضـد الحاكم،
ا على ذلك كثيراً، حتى انسحب الملك.

التوصل إلى اتفـاقيـة حسب الخطوط التاليـة: يتـوجب على السير
وف إيبلين قهرمان المملكة، والذي كان خال الملك والحاكم، وعلى
رسان، والغلمان، والسيرجنـدية الذين كانوا يساعـدون الملك في
لاطه عندما كان محاصراً، يتوجب عليهم الخروج على أقدامهم كتلة
وأن يذهبوا إلى مسكن صاحب صور، أي الحاكم، ويرجونه ليعفو
ركـان من المفترض قيـام الحاكم بالعفـو عنهم، وأن يحافظ على
هم وأطرافهم، وأن يسجنهم على الخبـز والماء، وأن يعيـد إليهم
ئهم، حسبما نصت شروط الميثاق، وهكذا تم عمل كل شيء.

— وخرج السير فيليب أوف إيبلين على قـدميه مع البقية، وقد
أسقف غبي، أسقف فيماغوستا إلى بيت الحاكم، وبعـد وقت قليل
ل، وصل الفرسان الآخرون، والغلمان، والتوركبلية والسيرجندية
تظام كتلة واحدة، وككتلة واحدة حسبما سمعتموني أحكي.

— وعندما وصلوا إلى مسكن الحاكم، ومثلوا في حضرته، سامحهم،

وحرر الذين رغب في تحريرهم، وألقى بالسجن الذين رغب في سجنهم، وسوف أكتب لكم أسماء الذين سجنهم، وأخبركم عن الفرسان:

٦٨٣— السير أيمري أوف ميلمار Aimery of milmars ، والسير رينالد أوف سايسون Reynald of saissons ، والسير جيمس أوف فلوري James of floury (فارس من عكا)، والسير جون أوف بابين Babin ، والسير أنسلم أوف براي Brie ، والسير جون ليزي Layze ، والسير هيوج أوف أغويلر Aguilers والسير سيمون أوف أغويلر، والسير هيوج بيدوين Bedouin ، والسير جيرالد أوف براي مع فرسان آخرين سوف يكون متعباً ذكر أسماءهم، وكان هناك غلامين جرى اعتقالهما هما: توماس أوف إيبلين وبيرثلين ماهي Berthelin mahe.

لقد سمعتم الآن أسماء الذين جرى اعتقالهم وأسيئت معاملتهم، لأنهم ساعدوا مولاهم الملك.

٦٨٤— عندما حل العام التالي(الذي هو عام ١٣٠٧) لتجسيد المسيح، أخبر السير بلدوين أوف إيبلين- الذي أدرك أنه من الخطأ المضي في الوقوف ضد الملك- الحاكم أنه لم يعد يرغب

..... [فراغ]......

٦٨٥[٦٨٤]—......[فراغ]...... تسلم من الجميع، ولذلك بعث واحداً من رسله مع المرسوم، وعندما رأى الملك هيتوم المرسوم، قبله، ووضعه على رأسه، وعلى عينيه، ونزل واثقاً، جالباً معه الملك الشاب، ابن أخيه، كما أخبرتكم.

٦٨٦[٦٨٥]— وما أن صار الملك هيتوم، وبعض الفرسان الآخرين من عكا (من ضمنهم واحد يدعى جايلز أنتيومي Gilles antiaume) تحت سيطرة الأمير التتاري الكبير، حتى قرر هذا تنفيذ خططه، وقد

لب من الملك هيتوم إعطاءه مملكة أرمينيا لصالح الخان الكبير، فأجابه يتوم بأنها ليست ملكه حتى يعطيها، بل هي عائدة إلى الطفل، ابن يه، الذي اسمه ليون، وعلى هذا أمر هذا الأمير الكبير، ومن دون خير، رجاله بذبح هيتوم، وبناء عليه قام رجاله بضرب هيتوم وجميع رسان والآخرين الذين جلبهم معه، بالسيف.

وعندما رأى الطفل الصغير ليون بأنهم يقتلون عمه والآخرين، هرب بين خيام النساء التتار لينقذ حياته، لكن هذا لم يفده، لأن التتار ضوا خلفه وأمسكوه، وسحبوه بعيداً من بين النساء، وقطعوا رأسه، أنه كان طفلاً لم يبلغ العاشرة من عمره.

٦٨٧[٦٨٦]- عندما حدث هذا الشيء، تحصن أخو هيتوم: أوشين أليناخ Alinakh ، وعندما رأى التتار أنهم لن يكونوا قادرين على تنفيذ يد من خططهم، أداروا ظهورهم نادمين وخائفين كثيراً من أن ينزل بهم دن بعض الضرر، وكان هذا ما حدث تماماً، كما سوف تسمعون.

٦٨٨[٦٨٧]- وبالنسبة لأوشين وأليناخ، اللذان كانا أخوين هيتوم وشين وأليناخ كانا توأمين، وكان أوشين هو الذي ولد أولاً أراد لين أن يكون أليناخ ملكاً وسيداً، ولكن أليناخ احترم الحق والمنطق، ال: بأن السلطة ستكون أفضل لو رست على أوشين، لأنه كان هو أول بالخروج من رحم أمهما، قبل أليناخ، وهكذا مارس أوشين سلطة على مملكة أرمينيا، وقد جرى تتويجه فيما بعد.

٦٨٩[٦٨٨]- وقد حزنا كثيراً من أجل وفاة مولاهما وأخيهما الملك يتوم، وحزنا من أجل الطفل ابن أخيهما، الملك الصغير، وبعدما أقاما داد، وأظهرا حزنهما تبعاً لعاداتهما، وبعدما دفنا أجساد الموتى، أرسل شين هذا، ملك أرمينيا أخاه أليناخ إلى غازان، الخان الكبير لدى تار، للاحتجاج على موت أخيهما والطفل، لأن رجاله قتلوهما عندما نا تحت أمانه، وقادمين استجابة لأوامره، حسبما جاء في مرسومه.

٦٩٠[٦٨٩]– رأى الملك غازان، سيد التتار، أن هذا العمل شنيع جداً، وغير صحيح، فدعا إليه قائد رجاله الذي أرسله لحراسة تركيا، وفعل هذا الشيء للملك أرمينيا(كما سمعتم)، وأمر بقطع رأسه، وفعل الشيء نفسه للذين ضربوا بسيوفهم وقتلوا الاثنين المتقدم ذكرهما(هيتوم ملك أرمينيا، والطفل الصغير، الملك ليون)، وهكذا عاد ألبناخ إلى أرمينيا.

٦٩١[٦٩٠]– كان ما يزال لدى البارون أوشين–الذي كان ملك أرمينيا– والذي صار مستحوذاً على المملكة كلها– أخوين في القسطنطينية: الأول الذي يدعى سمباط(وهو الذي عمل ملكاً، وتولى شنق أخاه طوروس، وأعمى هيتوم، أخاه الأكبر، الذي كان ملكاً) والأخ الثاني الذي كان يدعى قسطنطين، الذي مات فيما بعد، وكانت هناك واحدة من أخواتهم، هي زوجة امبراطور القسطنطينية، وكانت ما تزال حية.

٦٩٢[٦٩١]– وعندما سمع سمباط بوفاة هيتوم، غادر القسطنطينية، وذهب إلى قبرص، لأن أخته كانت هناك، زوجة الحاكم صاحب صور، ثم ذهب في غليون إلى أرمينيا، وأرسل رسوله إلى أخيه أوشين، قائلاً بأن على أوشين تسليم المملكة إليه، بما أنه كان هو الأسن من أوشين، ولذلك فإن المملكة كانت من حقه.

وبعث أوشين جواباً له قائلاً بأن سمباط قلع عيني الملك الذي كان أخاه ومولاه، وقام بشنق الآخر، وأنه بسبب هذه الأعمال هو خائن، والخائن ليست له حقوق في أي مكان، كما لاينبغي له استحواذ أي أرض، وهكذا فإن المملكة بالحري عائدة إليه، وهو الذي مستحوذ عليها، ولسوف يظل مستحوذاً عليها إلى الأبد.

وعندما سمع سمباط هذا الجواب، رأى بشكل واضح أنه لن يكون بمقدوره الذهاب إلى أي مكان، ولذلك غادر وعاد إلى قبرص.

-[٦٩٢]— وبقي الملك أوشين مستنفـراً، ومحترسـاً، فقـام بمركب حربي أصغر من الغليـون وبعث بواحـد من جنوبيه ن، وكان نبيلاً جنوياً كبيراً اسمـه السير بلدو سبينولا، على ظهر كب، لينتظر إلى حين ذهـاب سمباط إلى القسطنطينيـة، وذهب لو إلى هناك وانتظر مـدة طويلة هناك في تلك المياه، في المكان كان يعرف بـأن سمباط لابد من أن يمر من خـلاله، لكن السير ع مريضاً، وذهب إلى رودس، حيث وجد السير سايدو دوريا Said ، وكـان نبيلاً جنوياً آخر كبيراً، فتحادث معـه حـول ورتب معه أن يقـوم السير سايدو بالكمين وانتظار سمباط على طريق.

[٦٩٣]— ثم إنه حـدث أنه بعدمـا عاد سمباط مـن أرمينيا إلى أقلع في غليـون عـائد إلى جنوي اسمـه السير جيـوفـانينو دي Giovannino de ghisolfi ، كان متوجهـاً إلى القسطنطينية، ا كانا على طريقهما اصطدمـا بالسير سـايدو دوريا وغليـونه، الغليـونان من بعضهما بعضاً، وهما واثقـان أحدهما من الآخر،

نهاية قال السير سايدو، بصرف النظر عن كيفية حدوث الأمر، اعتقال سمباط شخصياً، ورداً على هذا قال السير جيوفانينو ولفي بأنه لن يعتقله في أي حال من الأحوال.

السير سايدو بأنه سـوف يأخـذ سمباط بالقـوة من السير نو دي غيسـولفي، الذي كان غير قـادر على الدفاع عن نفسه، ك إلى حقيقة أن غليونه كان سيء التسليح، وكان لديه عدد أقل ال مما كان لدى السير سايدو، وجعل السير سايدو ورجاله يحتلون الغليون وأخذ سمباط، ووضعـه في غليونه، ونقله إلى أخيه أوشين ملك أرمينيا.

وتلقى السير بلدو سينولا، الذي ذهب مريضاً من رودس إلى قبرص، رسالة من السير سايدو، بوساطة واحد من أولاده، أخبره فيها كيف جرت الأمور، وأنه جرى أسر سمباط، وهو الآن معتقل لدى ملك أرمينيا، وقام السير بلدو، الذي كان في فماغوستا، على الفور باستئجار مركب، قام بتسليحه، وركب فيه، مع أنه كان مريضاً تماماً، ومضى من هناك إلى أياس في أرمينيا، وحدث أنه قبل أن يتمكن من قطع فرسخ واحد، باتت القضية معروفة في فماغوستا، ولذلك لو أنه تأخر قليلاً لجرى اعتقاله.

وأخذ الملك أوشين مع أخيه أليناخ أخاهما سمباط، ووضعاه في السجن، وفي الوقت نفسه مات أليناخ فجأة، فقد كان قد أنهك نفسه بالصيد، وقام وهو منهك بشرب بعض الحليب الذي كان بارداً كثيراً، فوقع فجأة مريضاً، ومات حيث كان، وقد حزن الملك أوشين كثيراً لوفاته.

وحدث الآن أنه بعد وفاة أخي الملك أوشين، وصلت بعض الغلايين التجارية العائدة للبنادقة، وكان على رأسهم رجل عظيم من رجال البندقية اسمه السير نيكوليتو موروسيني Nicoletto morosini ، وقد قدم رسولاً من قبرص إلى أرمينيا، وقام الملك أوشين ملك أرمينيا بإطلاق سراح البارون سمباط، وسلمه إليه، ووضع في أحد الغلايين، وعندما كانت هذه الغلايين على طريقها، وعلى مسافة قصيرة من قبرص، مات سمباط هذا في البحر بسبب مرض، وهكذا انتقلت مملكة أرمينيا إلى الملك أوشين من دون أية معارضة.

وأريد الآن أن أحدثكم حول أمر حدث، وكان حدوثه كما ستررون:

٦٩٥[٦٩٤]— حدث في العام ١٣٠٧ للمسيح(كما أخبرتكم) أن مات البابا نيقولا في العام الماضي، وعمل كليمنت الخامس بابا في مكانه، وأقام كليمنت في أفينون في بورد، ولم يذهب قط إلى روما عندما

ان بابا، وأرسل البابا دعوة إلى الفارس الراهب جيمس أوف مولوي Mola مقدم الداوية(الذي صار مقدماً بعد ثيوبولد غودين، وثالثاً ـد وليم أوف بيجو، الذي قتل أثناء سقوط عكا، حسبما سمعتم من ل في هذا الكتاب).

٦٩٦[٦٩٥]— تصرف الراهب جيمس أوف مولوي، مقدم الداوية ـكل جشع جداً نحو البابا والكرادلة، عندما كان فيما وراء البحر، لأنه ن بخيلاً خارج حدود المنطق، ومع ذلك استقبله البابا بحظوة مناسبة، ناء عليه ذهب المقدم إلى فرنسا وباريس وطالب بتحويل أموال داوية إلى حسابه.

وجد الخازن قد أقرض ملك فرنسا كمية كبيرة من المال، قيل قد ـلت إلى أربعمائة ألف فلورين ذهبي(مع أنني لا أعرف فيما إذا كان ـغ بهذا المقدار)، وقد غضب المقدم منه غضباً شديداً، وانتزع منه ـه الكهنوتي، وطرده من الرهبانية، وبناء عليه وصل الخبر إلى الملك ـنسي، الذي كان غاضباً كثيراً لأن الخازن قد جرد من ردائه الكهنوتي ـا السبب، وأرسل الملك رجلاً فرنسياً كبيراً إلى المقدم، طالباً من ـقدم أن يعيد الرداء إليه من أجل محبة الملك، والمبلغ المدان به الخازن ـينة الداوية، سوف يدفعه له الملك عن طواعية، لكن المقدم لم يرغب ـل أي شيء من هذا القبيل، ورد بشكل معاكس لما ينبغي على طلب ـ مثل ملك فرنسا، وعندما رأى الملك أن المقدم لن يفعل شيئاً ـجابة للطلب، طلب من البابا أن يأمر المقدم أن يعيد رداء الداوية إلى ـزن، وحمل الخازن نفسه رسالة البابا إلى مقدم الداوية، لكنه تجاهل ـ، وعلاوة على ذلك لقد قيل بأن المقدم ألقى الرسالة في النار، التي ـ تحترق في الموقد.

٦٩[٦٩٦]— وغضب ملك فرنسا غضباً شديداً، وبعد مضي عدة ـستدعى البابا المقدم، ووصل المقدم إلى باريس، إلى عنده، وبناء

عليه أمره البابا بوجوب أن يعطيه نسخة عن نظام رهبنة الداوية، وأعطاه المقدم النسخة، وقرأها البابا.

وبعد ذلك تكلم الناس بين أنفسهم حول جميع الأعراف في رهبانية الداوية، غير أنني لست متأكداً عن الذي يمكن حقاً وصدقاً تدوينه، بعيداً عن الأشياء التي وقعت بصورة علنية: لقد قيل فيما بعد بأن نسخة النظام، جرى فحصها من قبل رجال حكماء، ومن قبل رهبانيات أخرى، وأنهم (الداوية) قد جرى تجريدهم من أملاكهم، وتم تدمير الرهبانية، كما جرى إحراق سبعة وثلاثين منهم في باريس، وقال الذين رأوهم يحترقون، بأنهم صرخوا بصوت مرتفع وهم يحترقون، بأن أجسادهم تحت سلطان ملك فرنسا، ولكن أرواحهم مع الرب.

٦٩٨[٦٩٧]— ثم أخيراً، جرى جلب المقدم وقائد غاسكوني Gascony إلى باريس، وعرضا أمام جميع الناس، الذين توفر منهم أكثر من خمسين ألفاً قد اجتمعوا، كما كان هناك اثنان من الكرادلة أيضاً يمثلان البابا، كان عليها تلاوة نص نظامهما، وحول ذلك النص، لقد فهم أنهما كانا بعرفانه وقد اعترفا به بأفواههما، ولكن التجار الذين صدف أن كانوا هناك قالوا بأن المقدم التفت نحو الناس، وقال بصوت مرتفع كثيراً، بأن جميع ما كتب هو مزيف، وأنهما لم يقولا قط، ولم يعترفا بمثل هذه الأشياء، وعلاوة على ذلك كان الداوية مسيحيين جيدين.

وبسبب نطقه بهذه الكلمات ضربه سيرجندي بيده على فمه، حتى لا يتمكن من الكلام بأي شيء زيادة، وجرى جره من شعره إلى البيعة، وجرى الاحتفاظ به إلى وقت متأخر، وأصبح جمهور الناس أقل، وغادر معظم الناس، وعند ذلك جرى وضع قائد غاسكوني والمقدم في قارب صغير، وقد حملا إلى جزيرة صغيرة في النهر، وكانت هناك ناراً تضطرم، ورجاهما المقدم السماح له بتلاوة صلاته، التي صلاها للرب، ثم جرى بعد هذا ربط جسده إلى الأشياء المعمولة حسب رغبتهم، وإرادتهم.

ثم إنهم أخذوه، وألقوه في النار، وقد احترق، وإذا كان الرب القدير، الذي يفهم الأشياء الخفية، يعرف بأنه هو والآخرين الذين أحرقوا كانوا أبرياء من هذه الأفاعيل التي اتهموا بها، فهم وقتها شهداء أمام الرب، وإذا كانوا قد تلقوا ما يستحقونه، فهم قد عوقبوا، لكن الذي يمكنني أن أقوله حقاً، وذلك اعتماداً على جميع المظاهر، أنا أعرفهم أنهم كانوا مسيحيين جيدين، ومخلصين أتقياء في قداساتهم، وفي حياتهم، وخاصة مولاي المقدم الراهب الفارس وليم أوف بيجو، الذي أعطى صدقات كبيرة وكريمة إلى عدد كبير من الناس الجيدين، على صورة سرية، وبشكل علني، وهذا ما يمكن لأي مهتم أن يكتشفه.

غير أنني سأدع الحديث حول هذه المسألة، وسوف أخبركم حول حادث آخر، جلب شراً عظيماً إلى قبرص، وبسببه وعلى أساسه نشأ خلاف شديد، كان من الممكن أن ينجم عنه ضرر كبير للبلاد.

٦٩٩[٦٩٨]- لقد حدث في العام ١٣٠٩ لتجسيد يسوع المسيح، أن قدم صاحب صور، أي الحاكم، على اعتقال خاله السير فيليب أوف إيبلين، قهرمان مملكة قبرص، وكان السير فيليب في إقطاعيته ألامينوس، هناك تولى اعتقاله السير إيمري الذي كان قائد شرطة مملكة قبرص وابن أخته، واقتاده إلى طرف الماء لهذه الإقطاعية نفسها، ووضعه على غليون مسلح، وجرى إرساله إلى عند ملك أرمينيا، الذي وضعه تحت الحراسة.

٧٠٠[٦٩٩]— واعتقل الحاكم أيضاً السير بلدوين أوف إيبلين، ووضعه على ظهر مركب مسلح وبعث به إلى أرمينيا، ولقد أرسله مع فرسان آخرين أسماؤهم فيما يلي: السير إيمري أوف ميلمارس Aimery of milmar ، والسير جيمس أوف فلوري Floury ، والسير هيوج بيدوين، وكذلك السير يوستورج بيدوت Eustorge pedot ، السير وليم روسل Roussel ، والسير نيقولا أوف سينت بيرتن، السير فيليب صاحب جبيل، والسير جيمس أوف أرتوز Artuse ،

والسير جيمس كوستا، والسير توماس أوف بيفورت، فلقد جرى إرسال جميع هؤلاء الفرسان إلى السجن في أرمينيا، لأنهم كانوا غير راضين بإطاعة أوامر الحاكم.

[٧٠٠]٧٠١ — عندما رأى صاحب صور، أي الحاكم، بأن أخاه الملك كان على غير استعداد على الإطلاق أن يكلفه شرعياً بأن يكون الحاكم في محله، أراد أن يبرىء نفسه أمام الحكام فيما وراء البحر، وهذا قرر أن يبعث رسولاً إلى ملك فرنسا، حتى يسوغ الذي فعله، وليبرهن أن الأشياء باتت مرتبة بشكل أفضل وفق هذه الطريقة، بسبب أحوال الملك، وقد أرسل السير جون بري مع فارس آخر، كان مرتزقاً اسمه جون لومبارد، للقيام بهذه المهمة.

وقد ذهبا إلى البابا، فوجدا ملك فرنسا هناك أيضاً، وقاما بحضرة البابا وملك فرنسا، باتهام الملك هنري بالإصابة بمرض بشع، وبسلوك بشع، وهو أمر من المؤكد أنه لم يفعله، لكن الذي كان رائجاً بين الناس أنه كان مثلما قال الرسولان، ولقد قيل بأنه لا البابا ولا ملك فرنسا قد صدقا أي شيء مما قالاه، كما أنهما لم يعطياهما أي جواب موائم لهما، وبناء على هذا غادر الرسولان البلاط على نحو مفاجىء، وعادا إلى قبرص.

[٧٠١]٧٠٢ — وبعد هذا انصرف صاحب صور، أي الحاكم بنفسه كلياً، لصنع ما هو الأسوأ لديه، حيث أرسل سيدة صور، أي زوجته، إلى ملك أرمينيا حتى تناقش وترتب الأحوال التي في ظلها سوف يعتقل الملك، أخاه الملك هنري....


المحتوى

وصول الجيش المملوكي إلى عكا قبل معركة عين جالوت
معركة عين جالوت
مقتل قطز
سلطنة بيبرس
استرداد الإغريق القسطنطينية من اللاتين
حملة لبيبرس على أنطاكية
مبادلة للأسرى بين المسلمين والصليبيين
حروب بحرية بين الجنويين والبنادقة
محاولة البنادقة احتلال صور
موت البابا أوربان الرابع
استيلاء بيبرس على قيسارية
حروب داخلية في انكلترا ووقوع الملك بالأسر
تتويج شارل أوف آنجو ملكاً على قبرص
الحرب بين الملك الألماني مانفرد والملك شارل
ذهاب بيبرس إلى صفد وفتحها
ذهاب بيبرس إلى مملكة أرمينيا
وصول بيبرس إلى خارج عكا عام ١٢٦٧
تجدد الحرب بين البنادقة والجنويين
حملة الملك لويس التاسع ضد تونس
تجدد الحرب بين ملك ألمانيا كونرادين والملك شارل
استيلاء بيبرس على يافا وعلى الشقيف وإطلاق سراح سنقر الأشقر